BURY WHAT WE CANNOT TAKE

 كيرستن تشين

ادفنوا ما لا يمكننا أخذه

ترجمة: **سليمان ع. يوسف**



ألقينا نظرة كما طلبتم ..
والبقية لكم الكتاب والإهداء

ادفنوا ما لا يمكننا أخذه

BURY WHAT WE CANNOT TAKE

كيرستن تشين

ادفنوا ما لا يمكننا أخذه

ترجمة: **سليمان ع. يوسف**

رواية بيع منها أكثر من **مليون** نسخة



مكتبة | 990
سُر مَن قرأ

ادفنوا ما لا يمكننا أخذه





في مديح كيرستن تشين:

«تسبِر روايةُ **ادفنوا ما لا يمكننا أخذه** أغوار ما تتطلبه النجاة في عالم فقد صوابه، وما الذي نخسره حينما نفعل ذلك. كتبت **كيرستن تشين** دراما تاريخية ساحرة، واستكشافًا دقيقًا للمدى الذي يمكن لأواصر الحب العائلي بلوغه على حد سواء».

- سليست إنغ، مؤلفة الروايتين المصنفتين ضمن الكتب الأكثر مبيعًا بحسب صحيفة نيويورك *تايمز*: *كل شيء لم أخبرك به* و*نيران صغيرة في كل مكان*.

«في الصين الماويّة، تتمزّق العائلة التي تتمحور هذه القصة المؤرقة المستفزة للمشاعر حولها، جَراء التداعيات المعقدة، على نحو مذهل لفعل واحد لا رجعة فيه. تُظهر هذه الرواية المشوّقة جميلةُ الحبكةِ مُرهفة العواطف **كيرستن تشين** التي لطالما أُعجبتُ بأعمالها، في قمة إبداعها على الإطلاق. إن **ادفنوا ما لا يمكننا أخذه** كتاب مهمّ».

- لورا فان دين بيرغ، مؤلفة رواية جِدني.

«تفي **ادفنوا ما لا يمكننا أخذه** بما وعد به الظهور الأول لــكيرستن تشين. تفرُّ عائلة «سان سان» من جزيرة «درَم ويف» ويتركونها وراءهم، ويعقب ذلك قصة ملحمية تتحدّى الأدوار الجندرية والأيديولوجيات القمعية والتضحية ومعنى أن تكون حُرًّا، وكل ذلك عبر عالم مصغر قوامه عائلة واحدة. إنه كتاب تدور أحداثه في الماضي، وفي الجانب الآخر من العالم، لكنه أكثر من ملائم لأميركا اليوم. قدّمت تشين كتابًا مشوّقًا يحمل مرآة تاريخية في وجه عالمنا الأغبشِ المتواطئ».

- ماثيو ساليسيس، مؤلف *فيضان المئة عام*.

«ستجتاحك هذه القصة. إنها ملحمة بطولية عائلية ساحرة تمامًا وجميلة بكل معنى الكلمة. تكتب تشين الخيانة والحب مع الحكمة والاختلافات الدقيقة المتناغمة دائمًا مع تعقيدات القلب البشري؛ الشخصية والتاريخية والثقافية. إن **ادفنوا ما لا يمكننا أخذه** كتاب كلاسيكي مباشر».

- كلير فاي واتكينز، مؤلفة رواية حمضيات *غولد فيم* وكتاب *وليد المعركة*.

«المزيج المثالي بين الدراما العائلية والرومانسية المعقدة والتغطية الماهرة خلف الكواليس لأكثر المنكّهات غمْرًا في العالم».

- مجلة غلامور.

«سيجعلك نثر تشين السائغ تفكر بالمنكّه الذي غالبًا ما يُصرف النظر عنه، بطريقة جديدة كليًّا».

- صحيفة ميترو.

«تحافظ تشين على وتيرة ثابتة في سير الأحداث، وعلى حوار ومسرح حسَنيْ الموقع، ما يجعل ترك الرواية صعبًا حتى للنوم».

- صحيفة ويبستر - كيركوود *تايمز*.

«تُشكّل رحلة «غريتشن» في اكتشاف الذات، العمودَ الفقري لهذه القصة التي تدور حول العائلة والتقاليد والشرف. سيقدّر عشاق الطعام النظرة خلف الكواليس على عالم **صلصة الصويا** الاحترافية، في حين سيستمتع الآخرون بتكريم تشين لوطنها الأم: سنغافورة».

- مجلة *بوكليست*.

«**صلصة الصويا للمبتدئين** هي رواية كيرستن تشين الأولى، تتوالى أحداثها مثل وصفة جيدة بلغة سلسة وحبكة سهلة الهضم ... كتاب مشوّق قائم على الحوار ... سيُعلن القراء التوّاقون إلى حكايةِ طعامٍ لذيذة ومقروءة، أنفسَهم راضِين».

- *مراجعة واشنطن إندبندنت للكتب*.

«**صلصة الصويا للمبتدئين** رواية ظهورِ أولِ جريئةٌ كالضوء وشهيّة كالمنكّه الذي يُبهّر صفحاتها».

- صحيفة ستريتس *تايمز*.

«رواية ظريفة قلبيّة تستقصي ملتقى الطرق بين الطعام والعائلة والثقافة».

- *هارتفورد غارديان*.

«تُبحر تشين في الثقافة بحكمة شخص عارفٍ».

- *سان خوسيه ميركوري نيوز*.

«إن الرواية الأولى لـكيرستن تشين وليمةٌ لذيذةٌ مشوّقة. تقبض تشين على روح عصر الجيل السنغافوري الجديد، في حكاية أخّاذةٍ ذاتِ طبقات حميمية، قوامها الحب والعائلة واكتشاف هاتف المرء الحقيقي. إضافة إلى أنها ستحوّل كل قارئ إلى هاوٍ لصلصة صويا احترافيةٍ، لن يقبل بشيء دون الأفضل».

- كيفن كوان، مؤلف رواية *آسيويون أثرياء مجانين*.

«**صلصة الصويا للمبتدئين** قصة فاتنة حول رحلةِ شابةٍ في غمار الحب والصداقة والعمل والعائلة، بينما تسعى لكسب مكانها الخاص في العالم. إنها رواية مُشبِعةٌ ونافذة البصيرة».

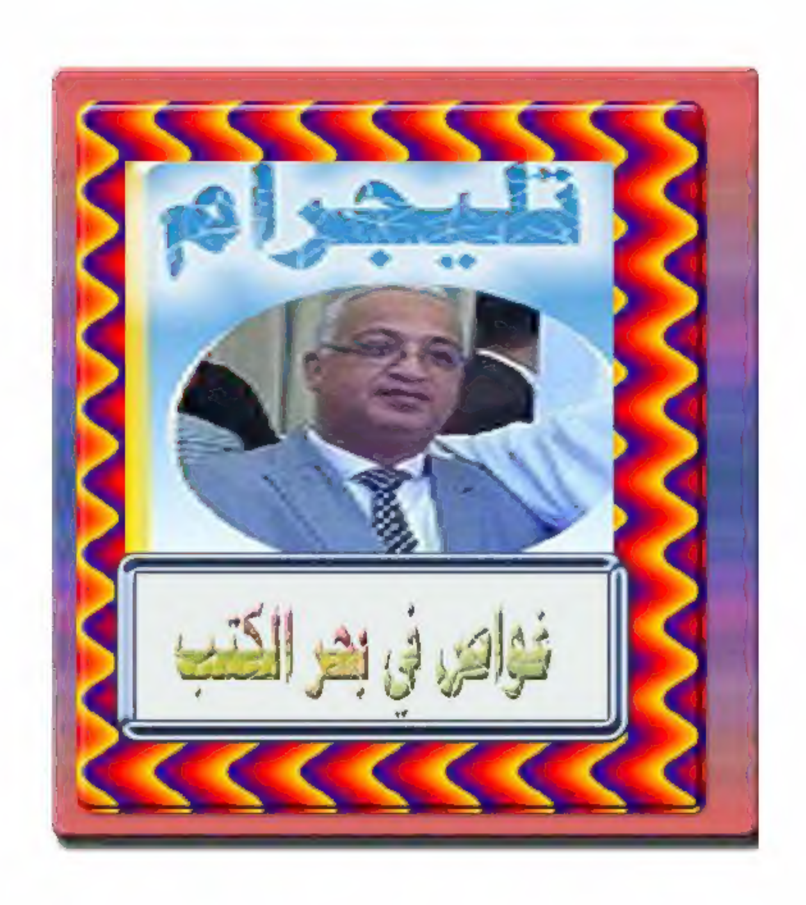
- جيل ماكوركل، مؤلفة كتاب *حياة بعد حياة*.

«تتمحور هذه الرواية حول مهنة عائلية تُنازع، لكن القلب الأبيض هو مهنة العائلة الشاقة. كُتبت **صلصة الصويا للمبتدئين** بدفء ولذة وظرافة، وتطرُّق إلى تشابكات الإرث وتحديات حماية التراث. لقد كتبت **كيرستن تشين** رواية شجاعة حول اكتشاف الذات».

- آمبر ديرمونت، مؤلفة كتاب بحر *الميمنة*.

«تستحضر **كيرستن تشين** بحيوية مذهلة صراعات عمل العائلة، وصراعات العائلة. لقد جعلتني قراءة هذه الصفحات النابضة بالحياة أرغب بركوب الطائرة التالية إلى سنغافورة، أو أقعد عن ذلك لأقرأ فصلًا ساحرًا آخر. إنها رواية أولى لامعة».

- مارغو ليفيسي، مؤلفة رواية *رحلة جيما هاردي*.


تليجرام
غواص في بحر الكتب

لأجل «آسمين»، و«باريسي»...



صيفُ عامِ 1957

1



عندما تبِعتْ سان سان أخاها إلى الداخل، عرفتْ أن شيئًا ما لم يكن على ما يرام، إذ كانت الشقة في غاية الهدوء ولا أثر لموي التي طالما لاقتهما عند الباب لتأخذ حقائبهما. هز أخوها كتفيه وترك حقيبته تسقط على الأرض في طريقه إلى غرفة السفرة، وفعلتْ سان سانُ مثله.

جرَت العادة على أن تكون جدتهما جالسة في الكرسي الأقرب إلى باب المطبخ، لكن كرسي الجدة كان خاليًا في هذه الظهيرة، رغم وجود علبة المخبوزات الورديّة في مكانها على الحامل الدوَّار في منتصف الطاولة.

خرجت موي من المطبخ حاملةً صينية الشاي، وعيناها داميتان كأنما قد فركتهُما بقبضتيها.

سألت سان سانُ: «أين جدتي؟»

شغلت موي نفسها بإبريق الشاي وفناجينه، وقالت: «في غرفتها، على ما أظن».

فسأل أخو سان سان: «أهي متوعّكة؟»

وسألت سان سان: «ما خطب عينيك؟»

حرّكت موي رأسها تحريكةً بين الإيماءة والهزة وانسحبتْ إلى المطبخ. رفع أخو سان سان غطاء علبة المخبوزات، وحدقا معًا داخلها كما لو أن محتوياتها ستعطيهما أجوبة، وكان فيها نفسُ قطع البيتي فور، التي اعتادت الجدة إرسال موي يوميًا لشرائها من الخباز الذي كان قد تدرّب مع رجل فرنسي قُحّ قبل أن يغادر كل الأجانب جزيرة درَم ويف.

كان أخوها يقبض على قطعة الإصبعيّة بالشوكولاتة عندما سمعا صوت تكسّر زجاج، فغطّت راحتا سان سان أذنيها كأن قوة خارجية تسيّرهما، وهبطت الإصبعية على الطاولة مصدرةً وَقعًا خافتًا، ثم ظهرت موي في مدخل المطبخ وكوك في أعقابها.

قال أخو سان سان دافعًا كرسيه خلفًا: «سأذهب للتحقق، انتظري هنا».

فدفعت سان سان كرسيها أيضًا. كان أخوها الأكبر في الثانية عشرة من عمره، وهي في التاسعة، لذا دائمًا ما كان ينهاها عن التجول معه ومع أصدقائه، وفي عدة مراتٍ كان مزاجه فيها نكدًا زيادةً، جعلها تمشي بضع خطواتٍ خلفه في طريق عودتهما سيرًا من المدرسة، لكنها لم تكن لتتركه يستبدّ بها هذه المرة، فوقفت وقوّست كتفيها، فقطّب جبينه لكنه لم يقل شيئًا.

مشيا على رؤوس أصابعهما خارجيْن من غرفة السفرة، ومرّا بالصالون الفارغ ثم توقفا أمام غرفة المكتب. كان الباب المنزلق غير مغلق عن آخره، وصدر من داخل الغرفة صوت شيء قد ارتطم بالأرض.

وضع أخوها سبابته فوق شفتيه، فلوّت سان سان قسمات وجهها. ماذا كان يتوقع أن تفعل؟ أن تصدح بأغنية ثم غرس نفسه أمام الشقّ بين حافة الباب والجدار حاجبًا الرؤية عنها. كان أنفها يسيل - وقد وبختها جدتها على دوام إصابتها بالزكام، كما لو أنه أمر طوع إرادتها - فمسحت منخريها بكمها كي لا تضطر إلى التنشُّق، وراحت تجذب الجيب الخلفي لبنطال أخيها المدرسي حتى تنحى جانبًا في النهاية.

كبَتَتْ سان سان شهقةً؛ ففي الطرف المقابل من الغرفة، كانت الجدة راكعة أمام صورة مؤطرة للجد وُضعت على مذبح العائلة، ووجهها محتجب بين يديها لتكتم نشيجها. وعندئذٍ لاحظت سان سان كسرات الزجاج المتناثرة فوق الأرضية الجوزية الداكنة، ومخلب المطرقة وقبضتها الخشبية الطويلة المخفييْن جزئيًا تحت تنورة الجدة، وفي وسط الجدار فوق صورة الجد تمامًا، تابع الوجه النيّر للرئيس ترؤّسه الغرفة مبتسمًا بإحسان في وجه كل المحدقين إليه، غافلًا عن الشقوق التي رسمت شبكة عنكبوتية من الندبات عليه.

لامست رؤوس أصابع سان سان مقبض الباب، ثم سحبت يدها ولجأت إلى أخيها، لكن وجهه كان شاحبًا وعيناه يغشاهما القلق، وجرّها عودةً إلى غرفة السفرة.

قالت: «أنت تؤلمني».

عندما تركها، رأت أن أنامله قد خلّفت بقعًا حمراء على جلدها، ففزعت فزعًا شديدًا وأخذت تدلّك ساعِدها.

قال لها بهدوء، رغم أنه لم يعُد مضطرًا إلى الهمس: «آسف»، وانحنى مقتربًا منها، «أريدكِ أن تنصتي إليّ، أرجوك، ولو لمرة واحدة».

توقفت سان سان عن فرك ذراعها.

«لم تَرَيْ شيئًا. لم يرَ أي منا شيئًا. مفهوم؟»

أومأت سان سان برأسها.



«لا شيء على الإطلاق».

أومأت مجددًا.

«عُدنا من المدرسة، وأخبرونا أن الجدة كانت تستريح في غرفتها، وشربنا شاي الظهيرة كالعادة».

فقالت سان سان منزعجةً: «لقد فهمت».

خرجت موي حاملة مكنسة ومجرفة: «أتحتاج الجدة إلى مساعدة؟»

فصرخت سان سان وأخوها بصوت واحد: «لا».

ضيّقت موي عينيها.

قال أخو سان سان: «دعيها وشأنها، ستناديك إذا ما احتاجت إلى المساعدة».

فتراجعت موي على مهل إلى المطبخ.

جلس أخوها على كرسيه إلى الطاولة، وفعلت سان سان مثله رغم أنها لم تعد تشعر بالجوع. مد يده إلى قطعة الإصبعية بالشوكولاتة المهروسة بعض الشيء، التي لا بدّ أن موي قد أعادتها إلى علبة المخبوزات، وقدمها لسان سان: «يمكنكِ تناول هذه لو أردتِ».

لم يسبق له أن قدّم إصبعيته لأحد قط، وبغض النظر عن فقدانها الشهية، لم ترغب سان سان بردّه، فسارعت وقضمت قضمةً من القشرة الهشة المغطاة بالشوكولاتة قبل أن يغير رأيه.

سألها: «أعجبتك؟»

فأومأت برأسها، وقضمت مرةً ثانيةً وقالت بفم ملآن: «شكرًا ليام». لكونها طفلة صغيرة، لم تفهم لِمَ عليها مناداته «غور» - أخي الأكبر - في حين يناديه بقية أفراد العائلة باسمه، وبعد فترة من الزمن، استسلم البالغون وتوقفوا عن تصويبها.

حمل ليام فطيرة الإجاص التي كانت آخر ما يفضلانه، والتي عادة ما كانا يتركانها لأمهما تأكلها عند عودتها من اجتماعات جمعية السكان، وتذوّق قليلًا من طرفها.

على الرغم من تلذّذ سان سان بعجينة الشو الليّنة خفيفة الحلاوة والكاسترد القشدي في إصبعيْتها، ظلت أفكارها عالقةً في المكتب مع الجدة. أيمكن أن الأمر بأكمله كان حادثًا؟ تُرى هل كانت جدتها تصوّب نحو شيء آخر؟ لا، فالضرر الذي رأته سان سان كان مقصودًا ومُحكمًا. لا بدّ أن الجدة قد ترنّحت على قدميها المطويتين[1] الصغيرتين تحت ثقل المطرقة، وأرجعَتْ ذراعها حتى أجهد كتفها في تجويفه، وجمعت كل ذرة من قوتها المهزولة لتهشّم وجه الرئيس المقدس.

وشرعت في الكلام: «أتعتقدُ...»

فقاطعها أخوها: «كيف عسانا نعرف؟»، وترك فطيرة الإجاص غير المأكولة تقريبًا تسقط في صحنه واندفع إلى غرفته.

رشفَت سان سان بعض الشاي. كانت متفاجئةً من فورته لا من كلماته، فطوال حياتها، كان أفراد عائلتها يتحاشون أسئلتها، ويتجاهلونها أو يُسكتونها ببساطة. سألت مرةً جدتها عن سبب عجز أبيها عن إيجاد عمل أقرب إلى الجزيرة، مثل آباء أصدقائها، فحتى قبل إغلاق الحدود عندما كانت في الثالثة من عمرها، لم يكن والدها يرجع

(1) عادة ربط القدم في الصين، انظر ربط القدم في الصين أو قدم اللوتس.

من هونغ كونغ إلا بضع مرات في العام، فطقطقت جدتها بلسانها وقالت: «لن يتزوّج أي رجلٍ فتاةً فضولية مثلك»، وهذا – بحسب ما استطاعت سان سان فهمه – لا صلة له بالموضوع.

في مرة أخرى، وبعد أن شرح مدرّس سان سان أن الرئيس قد حرر المرأة الصينية بحظر ممارسة تعدد الزوجات المجحفة، سألت أمُّها عما إذا كان اتخاذ المَحظيات ما يزال مسموحًا في هونغ كونغ، فشَرِقت أمُّها بجَرعة شاي وركضت إلى المطبخ تسعل، ثم غيّر أحدهم الموضوع ولم تحصل سان سان على إجابتها قط.

لم تكن قادرةً على تصوّر أي شيء من شأنه أن يُغضب جدتها الحليمة الحكيمة إلى هذا الحد، لكن من ناحية أخرى؛ فإن عائلتها تنحدر من نسل طويل من مُلّاك الأراضي والصناعيين والرأسماليين، وكما تعلّمت في المدرسة، فقد انتقل الفكر البرجوازي وممارساته إلى قومها عبر الأجيال. تُرى هل عكّر دمهم الملوث عقل الجدة بطريقة ما؟ أكانوا كلهم معرضين للخطر؟

حينما كانت سان سان تواجه صعوبة في النوم، كانت جدتها تجلس بجوارها أحيانًا، وتسرد عليها قصص سالف الأيام، وذات مرة، ذكرَت جدتها طرد أرواح شريرة كانت قد شهدته في الفناء المجاور، فاتّسعت عينا سان سان عن آخرهما، ما جعل الجدة تقول: «وهذه قصة أحكيها لكِ في وقت آخر».

لكن سان سان توسّلت إليها وبالغت في التوسّل حتى لان قلبها.

«علا صراخ الفتاة حتى جاء كل الجيران إلى نوافذنا، وصارت تخبطُ بذراعيها وتكشّر عن أنيابها في وجه القسّ مثل ذئب متعطش للدماء. تطلّب تثبيتُ ذاك الشيء الهزيل ثلاثة رجال بالغين».

«لماذا؟»، سألت سان سان وهي تحكم قبضتها على ذراع جدتها.

فقالت الجدة: «لم يكن ذنبها، فقد تلبّس الشيطان جسدها وسيطر عليها كليًّا».

وضعت سان سان فنجان الشاي من يدها، وهرعت إلى غرفة أخيها.

2

في اليوم التالي في المدرسة، كتب الرفيق آنغ موضوع المناقشة السياسية على السبورة بعقب طبشورة: *البضائع الغربية ليست أجوَد من البضائع الصينية*. بحث ليام عن مثال ملائم من حياته الشخصية، لكونه واحدًا من عرّيفين للصف، كان مُتوقعًا منه أن يكون قدوة لزملائه، وكلما تعجّل بالكلام تعجّل بالاستراحة.

كالعادة، كانت بينغ بينغ، وهي العرّيف الثاني والعضو الوحيد في رابطة الشباب في الصف، أول شخص رفع يده، وقالت وهي تنقّل نظرها في الصف وتبتسم: «ليس مِنّا مَن بحاجة إلى تذكيره بأن اللص تشيانغ كاي شيك قد غسل أدمغة الجماهير وجعلهم يعبدون كل ما هو أجنبي».

أمِلَ ليام أن تستثنيَه، لكن ما إن التقت أعينهما حتى أشاحت بنظرها.

وتابعت بينغ بينغ كلامها: «بسبب ماضينا المُخزي، علينا أن نكون محترسين من غرائزنا الدنيئة».

تفحّص ليام جانبَ وجهها. كم كانت واثقةً حينما نطقت بتلك العبارات الملساء المصقولة! وكم بدت راشدةً بذلك الدبوس الذهبي الأنيق المُمجّد بالعلم القرمزي للصين الجديدة، والبارز على الزاوية

العليا من كنزتها على خلاف بقيتهم! بأوشحة الرواد الصغار الطفولية المعقودة عند حناجرهم.

قالت بينغ بينغ: «منذ بضعة أيام فقط، أمر والدي كل عائلتنا بالتخلص من الأحذية غربية الصنع» ورفعت قدمها في الجو لتُظهر خُفًّا قماشيًّا أنيقًا، «فأحذية النجوم الحُمر أفضل أحذية في العالم. إنها مُريحة وقابلة للغسل، وما عساكم تحتاجون أكثر من ذلك؟»

فأومأ الرفيق آنغ برأسه إيماءةً حازمةً هي أكثر ما فعله فقط ليُبدي موافقته. كان مدير المناقشة السياسية رجلًا نحيلًا معتدل القامة ذا ملامح عريضة عادية، من النمط الذي كان ليام يواجه مشقة في وصفه لأصدقائه، لكن رغم السلوك الرائق للرفيق آنغ، كان الجميع يعرف أنه يتابع المشاركات ويتمعّن في كل كلمة بدقة.

لوّى ليام أصابع قدميه في خُفّ النجوم الحُمر خاصته، ورفع يده: «إن الرفيقة بينغ بينغ محقة في ما قالته عن حاجتنا إلى مساءلة تصرفاتنا، فعلى سبيل المثال: كانت جدتي لتظل على عادتها القديمة في شراء المخبوزات الفرنسية من أجل وجبات الشاي، لو لم أحثها على التحرر من عبودية عاداتها وتنشئتها».

نَخر رفيق مقعد ليام، الذي كان الجميع يدعونه بصاحب الوجه المتبثّر، مستاءً من تأييده، وفي الطرف الآخر من الغرفة، ابتسمت بينغ بينغ لليام ابتسامةً متكلّفة.

تابع كلامه: «إلى جانب أن حلوياتنا المحلية، *كالموا* جي وكعكات القمر، تكافؤها في اللذة، إن لم تزِد عليها، وكما يقول الرئيس: من يقف إلى جانب الشعب الثوري بالقول هو ثوري بالكلام فقط، ومن يقف إلى جانب الشعب الثوري بالفعل مع القول هو ثوري بكل ما في الكلمة

من معنى»، وفي ذلك المكان والزمان، اعتزم التكلّم إلى جدته في أقرب فرصة تواتيه، وقرر ألّا يلمس مخبوزة فرنسية أخرى أبدًا.

عندما انتهت الجلسة، اتجه ليام إلى الباب مع زملائه، لكن الرفيق آنغ ناداه، فخطى خطوةً مترددةً باتجاه مدير المناقشة الذي كان يسند كفيه على مقعده الخشبي وينظر إليه باهتمام شديد. لم يكن ممكنًا للرفيق آنغ أن يعرف أنّ ليام قد اختلق مثاله بأكمله، إلا إن كان قد رأى موي تهرع إلى الخباز، وكان يعرف بطريقة أو بأخرى أنها مدبرة منزل آل أونغ. هل بدا شيء من كلامه كاذبًا؟ ما الذي دفعه إلى الاستفاضة هكذا؟ ولمَ كان عليه التباهي باقتباس كلام الرئيس؟

أشار له الرفيق آنغ أن يقترب: «لقد كنتُ أراقبك في الأسابيع الأخيرة».

فبلعَ ليام ريقه بشدة.

«وإنك دائمًا ما تطرح نقاطًا مدروسةً ومثيرةً للاهتمام، تعكس التزامك بالحزب».

فاسترخى ليام: «شكرًا على تشجيعك يا رفيق».

فقال الرفيق آنغ: «والآن، إن خلفيتك العائلية مشكوكٌ فيها، وهذا أقل ما يمكن قوله، لكن من الواضح أنك قادرٌ على التفكير المستقل».

شعر ليام بوجنتيه تتلونان. كان جميع زملائه من عائلات ثريّة، لكنه الوحيد الذي كان أبوه صينيًا يعيش خارج البلاد في هونغ كونغ؛ وهو الوحيد الذي كان يعيش في الفيلا الماسية على قمة طريق ترانكيل سين، رغم أن الحزب قد استولى على الطابقيْن الأسفليْن وأجّرهما، وجرى تحويل مساكن الخدم إلى عيادة الأمومة الشعبية.

لم يكن ليام متأكدًا ما إذا كان عليه شكر مدير الجلسة على الإطراء الساخر، أم الاعتذار بالنيابة عن عائلته، وقبل أن يقرر بين الخياريْن،

مد الرفيق آنغ يده إلى درج مكتبه وسحب ورقة صفراء شاحبة ورقيقة مثل منديل.

تجمّدت أنفاس ليام في حلقه، فقد كانت الورقة طلب انتساب إلى رابطة الشباب.

وقال الرفيق آنغ: «أنا لا أمنح هذه الطلبات جزافًا، وأنا وأنت نعرف أن الانضمام إلى رابطة الشباب هو الخطوة الأولى في طريق عضوية الحزب الكاملة».

أومأ ليام برأسه عاجزًا عن الكلام، فقد رغب بذلك الدبوس الذهبي منذ اللحظة التي رأى فيها فريقًا من الصِبية الضخام طوال القامة من المدرسة الإعدادية، يكنسون الشوارع بجوار السوق وهم يغنون «مايو الأحمر» بأصوات باريتونية قويّة، وبينما كان واقفًا أمام الصِبية، تبيّن الأوجه الشاكرة المُعجبة لكل المارّة من سكان البلدة، إلا والدته، التي جذبت ذراعه بقوة بطريقتها البرجوازية المعتادة وهي تقول: «يا لها من مضيعة للوقت، أليس لديهم كنّاسون ليقوموا بهذا العمل؟»

سلّمه الرفيق آنغ الورقةَ: «أرجعها بأسرع وقت ممكن».

سلك ليام الطريق الطويل إلى المنزل، ممتنًّا أن سان سان، ولو لمرةٍ واحدة، لم تكن تتطفل عليه، فبسبب احتشاد كامل العائلة مع الخدم في الطابق العلوي من الفيلا، لم يكن يحظى بأي وقت لوحده، لكن التذمّر كان جرمًا حتى بينه وبين نفسه، ذلك أن كل ما ادّخرته عائلته كان على حساب البروليتاريا. والآن بعد أن غادر أقاربه وأولادهم قاصدين تايوان والفلبين، كان من الإنصاف أن تُرجع هذه الغرف الخالية إلى الشعب.

عندما وصل إلى التقاطع، بدلًا عن الانعطاف باتجاه المنزل تابع سيره على طريق إتيرنال بيس المؤدي إلى حافة جزيرة درَم ويف بعيدًا

عن صخب البلدة. في يومه الأول في المدرسة، قبل سنوات، عرف ليام أن صخورًا ضخمة جوفاء كانت تصطف على امتداد الشريط الساحلي الوعر في الأسفل في غابر الأزمان، وعندما كانت موجات المد العالي تضرب الصخور، كانت أصوات الطبول الشبحية تعلو في الجو مفزعة السكان الأوائل، الذين سموا الجزيرة الضئيلة الممتدة على كيلومترين مربعين تيمنًا بها[1]. وبالطبع، فقد مرّ وقت طويل مذ تحلّل الرصيف البحري، الأمر الذي اختصر كل ما كرهه ليام عن كونه طفلًا؛ إذ بدا أن كل الأمور السحرية أو المثيرة هي إما حدثت في الماضي قبل ولادته، أو ستحدث في المستقبل بعد أن يصير راشدًا، لم يبدُ أن أي شيء يحدث الآن البتة. منحنيًا أقصى ما يستطيع من دون أن يفقد توازنه، وقف يشاهد الأمواج تلعق الشاطئ مثل ألسنة الهِررة، لعوبة ومسالمة ووديعة.

على بُعد بضع مئات من الأمتار عبر القناة، كانت الأبنية الشاهقة المتراصّة لمدينة شيامن تتلألأ تحت شمسِ آخِر الظهيرة، وفي تلك اللحظة تمامًا، تخيّلَ أبنيةً سكنيةً حديثةً متعددةَ الطوابق ترتفع في السماء، وسِككًا حديديةً تمتدّ عبر الأرض، وأسرابًا من الناس في الحافلات وعلى الدراجات الهوائية يهرعون إلى أي مكان يحتاج إليهم ليلعبوا أدوارهم في بناء الصين الجديدة. لم يكن مسموحًا بالمركبات الآلية حتى في جزيرة درَم ويف الخاملة، وكانت فرق من العمال تجرّ العربات الخشبية صعودًا على الممرّات المنحدرة، كما لو كانوا عالقين في زمن أقدم. كان رهان ليام الأفضل أن يحافظ على علاماته عاليةً، وأن يتأهل إلى رابطة الشباب، وأن يكسبَ كرسيًّا في جامعة شيامن، ثم أخيرًا، يمكنه عبور القناة والالتحاق بركب العمل.

---

(1) درَم ويف: مَوج الطبول.

كان يتساءل عما إذا كان الرفيق آنغ قد دعا غيره للتقدم إلى رابطة الشباب، أم أنه سيكون وبينغ بينغ العضويْن الوحيديْن في صفهما. نقرت بضع قطرات مطر تاج رأسه، فنظر إلى السماء المشمسة ورأى زُمرةً من السحب الداكنة محتشدةً في الشرق، ما دفعه إلى الإسراع إلى المنزل والانعزال في غرفته بصحبة طلب الانتساب.

كان ليام طالبًا نموذجيًا، فقد كان عرّيفًا للصف لثلاث سنوات متتالية، وحائزًا على أعلى العلامات في الرياضيات والعلوم، وقائد فريق كرة القدم، ومع ذلك، كان على طلب انتسابه أن يُكفِّر عن ثراء عائلته السابق، وعمل والده، بل وحتى عن تعلُّم والدته في مدرسة تبشيرية.

بعد أن هيّأ القلم فوق الورقة، سمح لنفسه بتصور ما سيحدث إذا ما عرف الحزب بجريمة جدته؛ فقد كانت عائلته تحت المراقبة بالفعل، وكان يجري إرسال مفتشين بانتظام إلى الفيلا. إنهم الجيران وأصدقاء أمه الذين كانوا يستجوبونهم حول عمل أبيه في هونغ كونغ، ومتى سيرجع ليساعد في إعادة بناء أرض الأجداد. كان المفتشون ودودين، بل حتى مبررِّين معبِّرين عن أسفهم، ولم يصدق ليام أن عائلته كانت في موقفٍ خطِر. لا شكّ أن اعترافه سيغيّر هذا، لكن ربما سيكون مخطئًا إن تستر على فِعلة الجدة، وربما كان بعض الخوف هو الدفعة التي تحتاجها بالضبط لتهجر الماضي وتبدّل أساليبها، فكيف لها أن تتعلم درسها إن لم تتلقَ عقوبةً؟

قبل خمس سنوات، وقتما انتقل آخر اثنين من أقربائه بعيدًا، توسّل ليام إلى أمه أن تسمح له بالذهاب معهما، لكنها رفضت بالطبع، فقادته وحدته وضجره إلى مصادقة ابن مساعدة الطباخ. كان الصبي أطول منه بكامل طول رأسه، ومتى ما كانا يشكلان فريقًا للعب كرة القدم ضد أصدقاء طفولة ليام كانا يفوزان.

في أحد الأيام، بينما كان ليام يتمرّن مع صديقه الجديد على المناورة في الفناء، نادته جدته إلى الداخل: «على ذاك الصبيّ أن يساعد في أعمال المطبخ، لكنه لن يستطيع إذا ما أمضى جلّ وقته في اللعب معك».

حلّ ظُلم الأمر ثقيلًا على كاهل ليام، فقد كان صديقه في الثامنة من عمره أيضًا، لمَ إذن لم يذهب إلى المدرسة؟ ولمَ كان يرتدي ملابس ليام القديمة التي كان واضحًا أنها أصغر من مقاسه بكثير؟ ولمَ كان عليه العمل في المطبخ رفقة البالغين؟

استطالت عينا الجدة حتى صارتا شقَين، وقالت: «لأن هذا قدره، مثلما هو قدرك أن تجدّ في دراستك كي تتمكن من السير على خطى جدك ووالدك وتجلب الرخاء للعائلة».

اتّضح كل ما تعلمه ليام في المدرسة، وفهم أخيرًا سبب تصريح الرئيس أن «الشيوعية مطرقة نستخدمها لسحق أعدائنا». رأى فجأةً العدو في كل مكان حوله. كان العدو هو من حظر على الخدم الدخول من الباب الأمامي للفيلا، وحقّر الرجال إلى شحاذين كانوا ينسلّون خلسة حول السوق قبل أن يكدّسهم الحزب ويرسلهم إلى الإصلاحيات، وجعل زملاءه يسخرون من رفيق مقعده صاحب الوجه المتبثر، الذي كانت والدته أرملة وكان لباسه رثًا ولا يلائم جسده. عرف ليام أن عليه مواجهة قسوة قلب جدته بمطرقة، لكنه لم يجرؤ آنذاك، وبدلًا عن ذلك، ترك بضعة أيام تنقضي ثم عاد إلى اللعب في الفناء مع صديقه. بُعيد ذلك، طردت الجدة والدةَ صديقه، وزعمتْ أنه لم تعد ثَمةَ حاجةٌ إلى الطباخ الآن بعد أن بقيَت قلة قليلة من العائلة، فبكى ليام واهتاج ورفس باب غرفة نومه رفسةً تصدّع الخشب من قوتها، لكن ذلك لم يغير شيئًا بكل تأكيد، وبينما وقف يشاهد من نافذة غرفة نومه صديقَه ومساعدةَ

الطباخ يهيمان في الشارع حاملين حقائب مزيلة على ظهريهما، نذَر ليام ألّا يقف صامتًا في وجه العدو مجددًا أبدًا.

مُذ ذلك الحين، طمست غرائزه الدنيئة - ألم يكن هذا مصطلح بينغ بينغ المتكلّف؟ - ذكرى ذاك النذر، دافعةً إياه إلى أن يُقسم وأختُه على كتمان ما فعلته الجدة.

ومع ذلك، فقد منحه الآن طلب انتسابه هذا فرصةً لإثبات إخلاصه للحزب ثانيةً وتصويب الأمور.

أنزل قلمه على الورقة وحلّت عليه لحظة جمود، ذلك أن الموافقة التي يوشك على إجرائها لا يُمكن إلغاؤها، فكتب: *إن الرئيس ماو يُعلم أن أولئك الذين يعترفون سيُعاملون بقسوة أقل من أولئك الذين يرفضون الاعتراف بآثامهم*. ومضى إلى تفصيل وقائع الطريقة الفظيعة التي أهانت بها جدته القائد العظيم، ولمَ لم يكن لديه خيار إلا فضح جريمتها.

لم يتوقف عن الكتابة حتى أتمّ ملء طلب الانتساب بأكمله، وعندما رفع رأسه أخيرًا، شعر بالألم في يده وساعده، وكان دائخًا وجائعًا، فمشى عبر غرفة السفرة إلى المطبخ حيث سمّرته رؤية جدته في مكانه. لم يتوقّع أن تكون في خير وعافية.

متكئةً على عكازها لتخفف الوزن عن قدميها المطويّتين، أقحمت إصبعها في قِدرٍ موضوع على الموقد ثمّ رفعته إلى شفتيها، وقالت: «لا نكهة له. أضِف المزيد من الخل، والمزيد من صلصة الصويا، والمزيد من كل شيء!». كانت هذه لازمة جدته، وقالت أمُّه إنّ حليماتها الذوقية قد تخدّرت بسبب التقدّم في السنّ.

التفتت الجدة إلى ليام وقالت مشيرةً إلى المطبخ: «لقد احتفظتُ لك بالإصبعية».

فأجبر ليام نفسه على قول: «لا أشعر بالجوع».

«كما تشاء»، قالت الجدة وعادت بانتباهها إلى كوك.

عاد ليام إلى طاولته وقرأ طلب انتسابه مرةً أخرى. ربما كان هذا السطر تعسفيًا جدًا، وذاك مبالغًا في القسوة. ربما بمقدوره أن يخبر الرفيق آنغ أنه أسقط طلب انتسابه بلا قصد في الجدول المجاور لمنزله ويطلب منه واحدًا جديدًا.

ارتفع صوت جدته الرنّان من المطبخ: «هل أنت أصم؟ قلتُ المزيد من الخل! المزيد!»

أكانَ عليها توبيخ كوك، وهو رجل يزيد بياض شعره على سواده، وكأنه طفل رذيل؟ إذا لم يضرب ليام العدو بالمطرقة الآن، فمن يعرف أي جرائم قد تستمر جدته في ارتكابها. سوّى طلبه بين صفحات كتاب تمارين؛ كي لا يتجعّد في حقيبته، وأغمض عينيه وراح يتخيل نفسه بين زملائه أعضاء رابطة الشباب في العيد الوطنيّ. سيسيرون أزواجًا في موكب، مرورًا بمركز المدينة مصطفين من أقصرهم إلى الأطول، يلوحون براياتهم الحمر عاليًا في الجو ويغنون «مارس شهر المتطوعين»، وسكان البلدة مصطفون على جانبي الطريق يبتسمون لهم بفخار وتأثُر، ودبابيسهم الذهبية تلمع على صدورهم تحت ضوء الشمس. كان وبينغ بينغ بنفس الطول تقريبًا، لذا ثمة فرصة جيدة في أن يُجمعا في زوج.

3

في هذه الأيام، نادرًا ما كانت بي كيم تُضطر إلى الخروج من الفيلا، لكن كان على أحد ما أن يفتّش في ممتلكات هيوا، ويجمع كل الأشياء التي قد ترغب بناتها بها قبل أن يتخلص الخدم منها جميعًا.

لمعظم الصباح، حبست بي كيم دموعها بينما كانت تفصل مجوهرات هيوا القيّمة عن حليها الرخيصة اللافتة للنظر. في الحقيقة، كان غضبها يفوق حدّ البكاء، وقد دفعها السُخط الخالص المتأجج إلى ضرب صورة اللعين المصاب بجنون العظمة الذي جعل هيوا تعاني، بل الذي جعلهم كلهم يعانون، بالمطرقة.

قبل أربع سنوات، كان الحزب قد استولى على آخر المعامل، وتحوّل زوجها ليب من رئيس إلى بوّاب في غضون أسابيع. ماتَ بُعيد ذلك إثر نوبة قلبية، ولم يرجع أيٌّ من أبناء بي كيم من المهجر، لا لخوفٍ فيهم من أن يعلَقوا فحسب، بل من أن يُجبروا على دفع ثمن جرائم أبيهم المزعومة. فأقفلت غرفتها على نفسها ورفضت استقبال أي زوار، وبخاصة هيوا.

والآن، ندمتْ بالطبع على تلك الأشهر التي قضتها مستاءة من أقرب صديقاتها، لكن لم يكن أحد ليلومها آنذاك، فقد كان توماس زوج هيوا واحدًا من المحظوظين، عُيّن في «معمل عرضٍ» كان الحزب يتجوّل بالزوار الغربيين فيه ليريهم التعاون المتناغم الذي ازدهر بين الرأسماليين والشيوعيين. نعم، فرضوا عليه ضرائب مجحفة هددت بإفلاسه، ونعم، زرعوا أمينًا من الحزب في المكتب المجاور، ما صغّر توماس بالضرورة إلى رئيس رمزيّ، لكن على الأقل لم يحتقره عمّاله ولم يذِقوه المهانة. في الغالب الأعمّ، تمسّك توماس وهيوا بحياتهما القديمة، إضافةً إلى إقامة قلةٍ من المآدب المترفة للحزب، وقد كرهتهما بي كيم لذلك.

مع مرور الوقت، رأت كم كان محظوظًا زوجها ليب لوفاته آنذاك، فمبكرًا في ذلك العام، قرر الحزب أن توماس لم يعُد مفيدًا له وانقلب عليه، واقتدى موظفو توماس بالحزب. رجال شيبٌ عملوا في المعمل منذ أن استبدلوا بشورتاتهم سراويلًا طويلة سجنوا توماس في مكتبه الخاص، وفي كلّ ظهيرة لأسبوعين متتاليين، رافقت بي كيمُ هيوا إلى المعمل في شيامن حاملتين عُلبًا من الحساء والمعكرونة ومخبوزات الفاصولياء الحمراء القشارية التي أحبها توماس، ودائمًا ما كان الحارس المعتذر يردّهما من حيث جاءتا.

في آخر مرة ظهرتا عند البوابة، لم ينظر الحارس في عيني هيوا، فقبضتْ على ساعد الشاب مفتول العضلات حتى ابيضّت براجمها: «ماذا أصاب توماس؟» فراح يحدق إلى حذائه وهو يتكلّم: «لقد فارقَنا الرئيس هذا الصباح». ارتطم كيس هيوا بالأرض، وانهالت على البوابة تلطم القضبان الفولاذية وتنتحب، واضطرت بي كيم إلى استدعاء سائق التريشو ليساعدها في جرّ صديقتها بعيدًا.

في الأشهر التي أعقبت وفاة توماس، ألغت هيوا مواعيد وجبات غدائهما نصف الأسبوعية، وعندما ظهرت بي كيم في منزلها من دون موعد بحجة أنها أرادت منحها مجموعة شعرية اعتقدَتْ أنها ستُعجبها، وجدت الخدم محتشدين حول كومة من أثواب هيوا المفضلة، وهمس أحدهم أن المدام قد أقسمتْ ألا تلبس ألوانًا زاهية، وأسلمتْ نفسها إلى خزانةِ أرملةٍ ملؤها ملابس باللون البيج الشاحب إلى آخر عمرها. كانت تصل رسائلُ من بنات هيوا في أمريكا إلى الفيلا الماسية يتوسلن فيها إلى بي كيم أن توافيهن بأخبار أمهن، وقد نصحَتهنّ بمنح هيوا الوقت، فبرغم كل شيء، كان ذلك ما احتاجته بي كيم بعدما خسرت ليب، ولا حاجة للقول إنها لم تتوقع أن تبتلع هيوا تلك الجرعة القاتلة من الأقراص المنومة على الإطلاق.

قالت بي كيم بصوت عالٍ في الغرفة الخالية: «كان بوسعك أن تأتي وتعيشي معي، كنّا لنصير على ما يرام معًا».

طوَت شالات هيوا وأغطية أذنيها المصنوعة من فرو المنك في حقيبة سفر صغيرة بُغية إرسالها إلى البنات الأمريكيات، ومررت أصابعها على الرفوف الجرداء إلا من كيس قديم من قراضة القماش. رمَت الكيس في كومة المُهملات لينقّب فيه الخدم، وبينما كان الكيس يسافر في الجو، انسلّت منه قطعة مربعة من الحرير المزهّر، فحملت القطعة الزرقاء والصفراء الصغيرة قبالة الضوء، ومررت الحرير الممتاز على خدها متنشقةً رائحته العفنة.

لم يكن قد مضى شهر على زواج بي كيم وقتما أمرتها حماتها المستبدّة برتق حفنة من الأثواب، على الرغم من وفرة الخادمات القادرات على إنجاز المهمة، فعزمتْ على إثبات نفسها وعملتْ طيلة الليل على ضوء الشموع، لتكتشف في الصباح أنها قد ثقبت إصبعها

بالإبرة ونزفت على صِدار الثوب المفضّل للمرأة العجوز. هرعت بي كيم إلى هيوا مذعورة، واثقةً من أن العجوز ستنفذ تهديدها بإرجاعها إلى والديها يرافقها الخزي، لكن هيوا كانت خياطة موهوبة، وتمكنت من العثور على بكرةٍ من نفس الحرير المزهّر الأزرق والأصفر، وشرعت وبي كيم بحياكة ثوب كامل جديد معًا. في المرة التالية التي طلبت فيها العجوز من خادمةٍ أن تجلب لها الثوب، كانت النسخة معلقة في خزانتها، وعندما لبسته وانفتحت عرواته، راحت تنوح لأن وزنها قد زاد.

ألقتْ بي كيم قطعة القماش في كيس القراضة ومسحت عينيها بمنديلها، فما الذي سيعتقده خدم هيوا إذا ما رأوها على هذي الحال؟

كانت بي كيم تستقرّ لتحظى بقيلولةٍ قبل العشاء حينما سمعت طرقةً على الباب الأمامي، وكان اجتماع جمعية سكان كنّتها قد استغرق وقتًا طويلًا مجددًا، لذا كان عليها إجابة الطارق.

كان الطفلان قد فتحا الباب، وراحت امرأتان متشحتان بالزي الرسمي الباهت للكادر، والمؤلّف من سُترة وبنطال رماديين داكنيْن تنظران إلى الداخل. تعرّفت بي كيم إلى كلتيهما، كانت طويلة القامة بينهما، صاحبة الوجه المستطيل وأسنان الحصان الضخمة، تعيش في صف المنازل الأصغر حجمًا بعدَ شارعَين، والقصيرة البدينة متزوجة من مقامر لا يصلح لشيء، ترعرَع مع أبناء بي كيم. كان من المفترض أن المرأتين تعلمان جيدًا بوجود سوك كون في اجتماعها، لذا ربما خططتا لتجنبها، وربما جاءتا آملتين بترهيب امرأة عجوز بينما هي وحيدةٌ في المنزل.

قال ليام: «لقد أخبرتُهما أن أمي ليست في المنزل».

دفعت سيماء الصبي الكالحةِ ببي كيم إلى إرخاء قبضتها على عكازها، فرغم كونه صغيرًا لا يكاد يبلغ الثانية عشرة، لكنه حاول جاهدًا

أن يجسّد دوره بصفته رجل المنزل. ابتسمَتْ له وقالت: «لكن الخالتين الرفيقتين تعرفان ذلك مسبقًا».

تظاهرت عضوتا الكادر بعدم السمع.

كشّرت صاحبة الوجه الحصانيّ عن أسنانها مفرطة الحجم: «إننا آسفتان على اقتحام المنزل بهذه الطريقة يا سيدة أونغ».

«أجل، نرجو أن تعذري تطفّلنا يا سيدة أونغ»، قالت البدينة.

فعبستْ بي كيم لتوضح ثِـقَل زيارتهما: «لا مشكلة البتّة».

لم يعرف أحد بشأن الصورة المحطمة سوى سوك كون، فما الذي جاء بهاتين المرأتين إذًا؟ أكانت موي تتجسس عليهم؟ كان للخادمة هالة ماكرة لجنّية ثعلبية؛ ولم تثق بي كيم بها قط.

انتظَرت أن تعلّق عضوتا الكادر على الطول الذي بلغه الأطفال، أو عن آخر تقارير جريدة *بيبلز ديلي* حول حملة «فلتتفتّح مئة زهرة»، فدائمًا ما كانت التحقيقات تبدأ بمحادثة قصيرة، كما لو أن أعضاء الكادر قد عرّجوا للدردشة فحسب.

لكن هذه المرة، نكّست حصانيّة الوجه رأسها وقالت: «هذا محرجٌ بعض الشيء، لكن أيمكننا التكلّم على انفراد؟» وحدجت بي كيم بنظرة ذات مغزى.

إذًا هذا ما في الأمر. لقد خانتها موي. أجبرت بي كيم نفسها على تمالك هدوئها: «بالطبع. سنحظى بقدر أكبر من الخصوصية في المكتب».

سحبتْ الباب المنزلق وتقدّمتْ العضوتيْن إلى الغرفة دون أن تُلقيَ أي نظرة على الصورة الجديدة السليمة المعلّقة في مركز الجدار. اتخذت كل من المرأتين مقعدًا إلى الطاولة ذات السطح الرخامي، ونظرت

صاحبة وجه الحصان إلى ليام وسان سان اللذيْن كانا يتسكعان عند الباب: «من الأفضل ألا نتكلم بحضور الأطفال».

أرخَت بي كيم نفسها بأناة في كرسيها الهزاز، وأجفلَت عند تفرقع عظام كاحليها: «سان سان، لديك درس بيانو في الغد أليس كذلك؟ ألا يجب أن تتمرّني؟»

كان إحباط حفيدتها واضحًا، لكنها تثاقلت في مشيتها مبتعدةً بلا اعتراض، واستدار ليام ليتبعها، فقالت بي كيم: «يمكنك البقاء يا حفيدي».

ارتفع حاجبا ليام، وعبستْ عضوتا الكادر وهما تنظران الواحدةُ إلى الأخرى، فأشارت له بي كيم ليجلس في الكرسي الأقرب إليها، وأوضحت قائلة: «إنني امرأة عجوز ضعُف سمعها قليلًا، لذا أحتاج إلى وجوده هنا».

راح الصبي يحدق في حجره، آبيًا مواجهة ابتسامة بي كيم. مؤخرًا، كانت قد شاهدته يتمعّن في الحملات الدعائية في الجرائد، وسمعته عن غير قصد يقتبس كلام الرئيس في حديثه مع أخته؛ لذا سيكون من صالحه أن يرى حزبه الحبيب يقوم بعمله.

قالت العضوة البدينة: «جيد جدًا. لسنا نرغب بإهدار المزيد من وقتك عبثًا، لذا اسمحي لي بأن أكلمك بصراحة؛ لقد أُبلغَ عن سلوك يمينيٍّ في عائلتك، ومعنا أوامر بتفتيش منزلك».

كانت عبارة «سلوك يمينيّ» عبارةً جامعةً تشمل كل شيء من ارتداء كنزة ذات لونٍ زاهٍ أكثر مما ينبغي، وحتى كتابة مقالة نقدية بحق الحزب، لكن نشف ريق بي كيم في فمها رغم ذلك، ونقّطت حبات من العرق جبهة حفيدها، فأسِفَت لحاله. كان حساسًا وقلقًا للغاية، وربما لم

يكن عليها أن تبقيَه، فاتّخذت نبرةً مرِحة كرمَى له: «لقد تكبَّدتِ عناء كل هذا الطريق، لذا أرجوك، خذي راحتك في البحث».

ذهبت المرأتان مباشرةً إلى خزانة الكتب. كانت كل كتب سوك كون الإنجليزية وتسجيلاتها الموسيقية الكلاسيكية قد خُزنت في العلّيّة منذ وقت طويل تحسبًا لهذا الاحتمال بالضبط، ووجدتا رغم ذلك عددًا كبيرًا من العناوين المشبوهة: سلسلة غموضٍ استمتعت بها كنّتها، والخرافات المصوّرة التي قرأتها هي وسوك كون لأولادهما، وحتى بضع ترجمات لأعمال أدباء روسٍ، والتي كان بوسع بي كيم أن تقسم أن الحزب سامحٌ بها.

بينما تكوّمت الكتب على الأرض، خشيت بي كيم أن يكون صمت عضوتي الكادر بخصوص الصورة المحطمة يعني أنها قد فقدت فرصتها في الدفاع عن نفسها، وأن الحزب قد أخذ بجريمتها المزعومة على أنها حقيقة وحوّل اهتمامه إلى جمع أدلة إضافية. قبل أيام، كانت وسوك كون قد اختلقتا أفضل عذرٍ قدرتا عليه، وهو أنها وبسبب هيجانها إزاء ضعف ولاء صديقتها القديمة للحزب وانتحارها الجبان، حملت بي كيم مطرقة لتضرب صورة لهيوا، ونتيجةً لحالتها العاطفية العنيفة، أفلتت المطرقة من قبضة بي كيم وكسّرت زجاج صورة الرئيس.

فقالت بي كيم مندفعةً حينها: «أيتها الرفيقات، أخشى أن ثمة سوء فهم...»

التفتت المرأتان إليها، كما فعل ليام الذي رفع نظره للمرة الأولى، فشعرت بي كيم أنها ربما تتخبط في الطريق الخاطئ. ماذا لو كانتا لا تعرفان شيئًا عن الصورة؟ ماذا لو كان هذا مجرد تفتيش روتيني آخر، وإن كان يُجرى على أيدي أعضاء كادر متقدي الحماسة؟

فقالت السمينة: «أكملي».

اعتصرت بي كيم يديها: «كنتُ أتساءل... أي نوع من السلوكيات اليمينية؟»

فتبادلت عضوتا الكادر نظرةً وقالت حصانيّة الوجه: «أخشى أننا لسنا مخوّلتين بالكلام في ذلك».

عرفت بي كيم أن هذا كان أسوأ ردّ ممكن، ولا بدّ أن حفيدها قد عرف ذلك أيضًا، فقد بدأت شفته السفلى بالارتعاش.

قالت بي كيم: «أيًّا كان ما فعلناه، فإننا بكل خشوعٍ نطلب فرصة التوبة، وإننا، على سبيل المثال، سنكون شاكرين إذا ما حظينا بفرصةٍ لإظهار امتناننا للحزب عبر استثمار كل التحويلات الأجنبية الواردة من أبنائي في سندات حكومية».

ضحكت المرأتان ضحكة خافتة هذه المرة.

فنظرت بي كيم مباشرةً في عينيْ السمينة: «لا شكّ أنكِ تعرفين ابني الأكبر هونغ تشاي جيدًا، ذلك أنه كان رفيق لعب زوجك في طفولته».

توقفت المرأتان عن الضحك.

قالت صاحبة وجه الحصان: «لسنا إلا عضوتي كادر من رتبة دنيا».

وأضافت السمينة: «وهذه المسائل من مستوًى رفيع جدًّا على أمثالنا».

شعرت بي كيم بقفا عنقها يتشنج. لا يمكن للعائلة أن تعيش هكذا، وثمة أفراد في منزلهم ينقلبون عليهم. لو أنها لم تأوِ موي حال بلوغها، لربما ماتت الفتاة جوعًا، أو بيعت لبيت بغاء، فهكذا تكافؤها؟ شكرًا للسماء أن سوك كون قد أرسلت رسالة أخرى إلى هونغ كونغ. سيجد تشاي وسيلةً لإنقاذهم.

بعد أقل من نصف ساعة من وصولهما، كانت عضوتا الكادر واقفتين بجوار الباب الأمامي تحملان صندوقين كبيرين.

قالت شبيهة الحصان بطريقة اعتذارية إلى حد ما: «هذا كل ما نستطيع أخذه اليوم».

لامتلاء أذرعهما؛ كافحت الاثنتان لتفتحا الباب، ورفع ليام يده ليساعدهما، لكن نظرةً حادةً من بي كيم جعلته يُعيد التفكير في الأمر.

وحالما صارت والصبيّ وحدهما، غضّن وجهه كأنه موشك على البكاء، فهزت رأسها وأشارت إليه أن يقترب: «فليكن هذا درس لك يا حفيدي، لا تثق بأحد إلا بعائلتك

4

ما إن سمعت سان سان صفقة الباب الأمامي حتى رفعت أصابعها عن لوحة المفاتيح. كان بين غرفة الموسيقى والمكتب حائط مشترك، وقضت الساعة الأخيرة تعزف إبداعات باخ بأقصى ما استطاعت من الهدوء بينما تحاول استراق السمع، وبقدر ما استطاعت سماعه؛ كان ثمة القليل من الكلام، ثم قضت المفتشتان معظم الوقت تنتزعان الكتب عن الرفوف.

كانت تتحرق شوقًا للذهاب إلى ليام، لكن بدافع الشعور بالذنب، بقيت عيناها على النوتة الموسيقية، فدائمًا ما كانت الخالة روز تعرف وقتما لا تتمرّن سان سان بما فيه الكفاية، وكانت تكره إحباط معلمتها التي غالبًا ما كانت تخبر والدتها أنها تتمتع بموهبة جمة وانضباط غير كافٍ، وكانت هذه حقيقة، فأكثر ما كانت سان سان تعشقه هو استخلاص ألحان بهيّة من البيانو دون مراعاة الإيقاع والحركية والنطق الموسيقي، ولم تكن تحترم الموازين والأصوات التتابعية والتآلفات والتناغمات.

قلبت الصفحات عائدة إلى بداية النوتة، لكن أصوات التمتمة بين الجدة وليام كانت مغريةً أكثر مما يمكنها تحمله، فانتظرت حتى ذهب أخوها إلى غرفته، ثم طرقت الباب ودفعته.

فاجأها أن رأته مستلقيًا في سريره وقد رفع الأغطية حتى ذقنه. ألقى نظرة واحدة عليها ثم شدّ اللحاف بقوةٍ ليغطيَ رأسه: «ارحلي».

راحت سان سان تجذب اللحاف: «ما الذي أرادته هاتان الخالتان؟»

- ارحلي.

- أيّ كتبٍ أخذتا؟

- قلتُ لك 'ارحلي'.

فحدّقت إلى الكُتلة التي كان عليها جسده، وإلى خصل الشعر الواقفة منتصبةً مثل عيدان البخور، وقالت: «لم أخبر أحدًا».

فأخفض ليام اللحاف حتى أظهر عينيه: «أعلم».

«إذًا من فعل ذلك؟»

اعتدل ليام في جلسته: «ربما لم يكن الأمر بسبب ذلك، فقد جرى تفتيشنا مرات قبلًا».

فثبتت سان سان نظرتها في عينيْ أخيها: «لم تكن مثل هذه المرة».

راح ينقُبُ حافة اللحاف المهترئة: «لم تذكُرا الصورةَ حتى».

فكرت سان سان في ذلك، أيمكن أنّ توقيت التفتيش كان عرضيًّا تمامًا؟

قال ليام: «لم تأخذا إلا كتب ماما الروسية. قد يكون الأمر حملةً جديدةً على الأدب الأجنبي، أو شيئًا من هذا القبيل».

فُتح الباب الأمامي، وعادت الأم.

فقالت سان سان: «من الأفضل أن نخبرها»

«دعي ذلك لجدتنا».

قالت سان سان: «لا»، ثم أخفضت صوتها: «علينا أن نخبرها بما فعلته جدتنا».

أبعد ليام الأغطية برجليه: «هي تعرف بالفعل، ألم تريْ الصورة الجديدة؟ لم تكن الجدة لتستطيع تدبير ذلك وحدها».

افترضت سان سان أنه كان محقًّا، وسرّها أنها لم تعد مضطرةً إلى إخفاء أسرار عن أمها.

توجه ليام إلى طاولته: «عليّ القيام بفرضي المنزلي الآن».

لم يعد لدى سان سان المزيد من الأسئلة، لكنها لم ترغب بمنحه سببًا ليجعلها تغادر، فقالت: «لن أزعجك»، وتناولت كتاب القصص المصورة الموجود على منضدته. كان عنوانه *الفتاة ذات الشعر الأبيض*.

«امسحي أنفك، لا أريد أن يملأ مخاطُكِ الصفحات».

وكالعادة، كان منديلها قد اختفى من جيبها، فمسحت أنفها بكُمها، ثم عاينت الغلاف الرديء للكتاب، وكان الحبر الأسود يبقّع تحت أصابعها بالفعل. كانت البطلة تتمتع بالوجه الجميل لعذراء شابة لكن مع خصلات شعرِ عجوز شمطاء.

في غضون ذلك، عبّر أخوها عن انزعاجه عبر فتح وإغلاق مختلِف الدفاتر بصخبٍ، والطقطقة بدروج المكتب والتصرف كما لو أن الأمر برمّته كان خطأها.

قالت أخيرًا: «ليام، أنت لم تفعل ذلك، صحيح؟»

وقف بكامل طوله واستدار إليها بسرعة، فتراجعت سان سان خائفةً مستعدةً لانفجار.

طرقت موي الباب ونادت من الخارج: «وقت العشاء».

لم يردّ أي منهما عليها.

تكلم ليام بصوت عالٍ متمهّل كما لو كانت سان سان بلهاء: «لقد قلتُ للتوّ إن التفتيش لم يكن بسبب ذلك، وأقسم، إذا ما سألتِ مرةً أخرى،...» وتلاشى صوته.

فأطبقت شفتيها بإحكام. لو أنه أجاب سؤالها ببساطة ما كانت لتستمر بالسؤال.

غادر ليام الغرفة مهتاجًا إلى غرفة السفرة، وأخذت تتهادى خلفه وهي أعقل من أن تتوقع أن يكون البالغون أكثر استجابة.

في البداية، أراح منظر الأم والجدة الجالستين إلى الطاولة بالَ سان سان، لكنها لاحظت بعدئذٍ جبهتيهما المتغضنتين وفميهما المنكمشين، فلم تمدّ يدها لملء صحنها رغم أن كوك قد حضّر طبق *البوبايا* المفضل لديها.

سأل أخوها: «ما المشكلة؟»

كانت الظلال تحت عينيْ الأم مثل آثار كدمة، وقالت بصوت مُضنًى: «ثمة خبر سيء أيها الأولاد. لقد وصلت رسالة من أبيكم، وهو مريض مرضًا شديدًا».

خُضّت معدة سان سان، وشعرت بطعم الحموضة في مؤخر حلقها. لم تكن قد رأت والدها منذ زمن طويل، لكن ظروفًا حُمْرًا من المال كانت تصل احتفالًا بكل عام ينقضي، مصحوبةً بصور شخصية ذات صبغة بنية داكنة لتتذكره عبرها. أظهرت آخرُ صورة وجهَ والدها عريض الفك أسفل شعر لامع مسرّح إلى الخلف، وشفتاه الرقيقتان ممتدتان إلى

نصف ابتسامة خبير. كيف يمكن لمصيبة أن تَدهَى رجلًا وسيمًا جليلًا مثله؟

قالت الأم: «علينا الذهاب إلى هونغ كونغ حالًا، فالطبيب يخشى ألّا يكون أمامه الكثير من الوقت»، وتدحرجت دمعةٌ منفردةٌ على خدها، جعلت عينيْ سان سان تدمعان.

سقط ليام إلى الأمام مستندًا على مرفقيه، وكاد أن يقلب صحنه الخالي. تلاشى غضب سان سان تجاهه، وشعرت بالأسف لأخيها الذي يتذكر عن أبيها أكثر بكثير مما تتذكر. بين الحين والآخر، كانت تتسلق سرير ليام وتتوسل إليه أن يعيد سرد قصةِ آخِر زيارة لأبيهما إلى الفيلا قبل ست سنوات، والهدايا السحرية التي جلبها من المستعمرة: لآلئ مياه عذبة بحجم البلية لأمهما، وأُزُرٌ حريريةٌ بديعةٌ مزركشةٌ للجدة، ومجموعة قطار كهربائي وسيارات فوريست غرين لليام. قال أخوها بصوت ملؤه الجلال: «كلما اعتقدنا أن بابا قد أنهى هداياه، كان ينادي الخدم كي يجلبوا الحقيبة التالية». من أجل سان سان، كان الأب قد اشترى دمية طفلة رضيعة بخديْن ورديَّيْن وجدائل ذهبية وعينين زرقاوين زرقةً صافية كصحون الأرز الخزفية خاصةِ الأم. صُنعت الدمية يدويًا في ألمانيا، لذا اقترح ليام اسم «هانسل». فقدت هانسل معظم رونقها وحصّةً لا بأس بها من شعرها، لكنها ظلت ترافق سان سان في سريرها كل ليلة.

خرج صوت ليام الآن خشنًا ورقيقًا مثل زمارة: «أي صنف من الأمراض؟».

قالت الأم: «الطبيب لا يعرف. لا أحد يعرف».

وأضافت الجدة: «لقد فقد كامل قوة ساقيه، ولم يغادر سريره منذ أيام».

قالت الأم إنها ستتوجه في الصباح الباكر إلى مكتب الأمن لتطلب أربعة تصاريح خروج.

في رأسها، حوّلت سان سان صورة أبيها المنبسطة الشاحبة إلى رجل حقيقي، شخصٍ يُمكنه أن يجرفها إلى حضنه ويفرك وجنتها بذقنه غير الحليقة، ومهما حاولت؛ لم تتمكن من تخيُّله راقدًا عاجزًا في سرير. لم ترغب بالتفكير في أبيها في منزله بهونغ كونغ، ذلك أنه لو كان ثمة مَحظية بجواره، كانت تعرف أنه من الممكن وجود أولاد آخرين أيضًا، ورغم ذلك؛ كانت هذه المرة الأولى التي تكون ممتنةً فيها لأن والدها لم يكن وحيدًا في المستعمرة، وإن كانت أعقل من أن تنطق هذه الفكرة بصوت عالٍ.

5

فارَ فائرُ سوك كون على نار يُذكيها الأرق والإرهاق، وراحت تسحق الوسادة بقبضتها مرارًا وتكرارًا، ملتذّة بشعور الراحة الذي يمنحه انتشار الألم في ساعدها. كانت خطة الهروب قيد الإعداد منذ أشهر، والآن خرّبت حماتُها كل عملهم الشاقّ بتصرف طائش واحد، وعندما أخبرتها بي كيم في وقت سابق عن زيارة عضوتيْ الكادر، استدعَت سوك كون كل قطرة من ضبط النفس حتى أمسكت لسانها.

تناولَت مرةً أخرى رسالة زوجها – كما لو أنها لم تحفظ كل كلمة عن ظهر قلب – في ظرفها قشديّ اللون والورقة الموافقة له، السميكين والليّنين على نحو مترف.

قالت الرسالة: *زوجتي الحبيبة*، وكانت التحيّة، على رسميّتها البحتة، كافية لجعل العضلات في أعماق بطنها تتقلّص. *أسرعي في جلب أمي والأولاد، فرغبتي الوحيدة هي رؤية أوجه أفراد عائلتي مرة أخيرة.* وثمة خطاب من الطبيب كُووك مرفق مع الرسالة، فقرأتْهُ مجددًا. زار هذا الطبيب المدعوّ كُووك المريض، زوجها، في الثامن من مايو من عام 1957، وكان المريض ضعيفًا أشدّ ما يكون ومشلول الأطراف السفلية،

وكان عاجزًا عن إبقاء الطعام في معدته فاضطروا إلى تغذيته وريديًا. حتى اللحظة، كان سبب الأعراض مجهولًا، ولم يبدُ التشخيص جيدًا.

رغمِ معرفة سوك كون أن الأمر برمّته محض حيلة، هاجَت الكلمات داخلها بقوتها الخاصة، وراحت تجلد أفكارها حتى أصابتها بنوبة جنون، فنظرًا إلى هذا التحقيق الأخير، لم يبدُ تشخيص هروبهم جيدًا أيضًا. كيف يمكن لحماتها أن تكون هوجاء إلى هذا الحد؟ لولا روز العزيزة، لما تمكنت سوك كون من إيجاد صورة بديلة بهذه السرعة والسِرية. كانت روز عازفة البيانو الأكثر موهبة في فصل الكونسرفاتوار خاصتهن، وعقب تخرجهن، افتتحت روز مدرسة بيانو في الوقت الذي محقت فيه سوك كون وبقية زميلاتها أيَّ طموحات احترافية باقية، واعتنقن أدوارهن الجديدة بصفتهن زوجات وأمهات، ولم تكد المدرسة تثبت نفسها باعتبارها واحدةً من أرفع مدارس الجزيرة مستوى، حتى تزوجت من لي تشين كونغ، وهو طبيب محترم صار الآن يعالج أرفع مسؤولي الحزب رتبةً. بطريقة ما، تمكن تشين كونغ من تدبير إيصال الصورة الجديدة إلى الفيلا سرًا، لكن حتى هو لم يكن قادرًا على استصدار تصاريح الخروج الضرورية، ومن أجل هذه التصاريح، كان على سوك كون أن تجرب حظها مع الجماعة الشنيعة العجّاجة في مكتب الأمن.

في هذه الأيام، حتى ركوب العبّارة لعبور القناة التي تمتد خمسمئة متر إلى شيامن يحتاج إلى إذنٍ خاصٍ، ومهما كان الطقس وفي أيِّ ساعة كانت، ثمة طابور يلتف حول جانب مكتب الأمن، كما في هذا الصباح الكئيب الرطب المثقل برائحة العفونة والمطر الوشيك.

لا أحد كان غريبًا في هذا المكان، فقد وقف مدير البنك وزوجته في مقدمة الصف، وتساءلت سوك كون عن الساعة المبكرة التي وصلا فيها

حتى حصدا هذه البقعة الثمينة، وكان خلفهما معاون ناظر المدرسة الثانوية، الذي غرق أصغر أبنائه في خليج فلوريشينغ بيوتي، وخلفه الأرملة التي تعيش في قصر سي أند سكاي المترف، الذي كان أول منزل في الجزيرة يُركب مرحاضًا دافقًا أرسله أولادها المشغوفون بها من مانيلا. تظاهرت سوك كون بأنها لم تلحظ أيًّا منهم، إذ لم يكن الوقت مناسبًا للدردشة، فما الذي من الممكن أن يقوله بعضهم لبعض؟ «لم أتخيل رؤيتك هنا! أتخطط للفرار أيضًا؟ إنني أحاول الهرب إلى هونغ كونغ، وأنت؟»

قبل أكثر من عقد، حينما كان هذا القصر الإدواردي البهيّ المغطّى باللبلاب، القنصلية البريطانية لا مكتب الأمن، كان زوجها قد دُعي لشرب الشاي مع السفير بذاته، وأخذ سوك كون التي كانت عروسًا جديدةً معه. ما زال الفستان العاجي الطويل حتى الكاحل الذي حاكته، متدليًا في مؤخرة دولابها منتظرًا أن ترثه سان سان. كان الفستان بسيطًا وخفيفًا، على نقيض ما شعرت به يومها بعد أن حثها تشاي على الحديث باللغة الإنجليزية التي كانت قد تعلمتها من المبشرات الأمريكيات، وعُرضت مثل طائر مغرّد في قفص. في الأحوال الطبيعية، أحبّت سوك كون شكل هذه الكلمات الأجنبية ووقعها، وحلمت أن يتعلم أولادها الإنجليزية، فيحظى ثلاثتهم بلغة سِرية فيما بينهم، لكن في هذه الأيام، كان الطلاب المتفوقون يتعلمون الروسية، وكان أي شخص يتحدث الإنجليزية أكثر تعقلًا من أن يتبجّح بها.

لم يوجه معاون الناظر شكواه لشخص بعينه أن الطابور بالكاد تزحزح، وأومأت عدة رؤوس موافقةً، لكن لم يكمل أيّهم المحادثة. ليمرّ الوقت سريعًا، درست سوك كون الخارجين القلائل من أبواب القصر الثقيلة، وكانوا رجالًا ونساءً شاحبين يرتدون ملابس داكنة محافظة

كملابسها، ووجوههم مكفهرّة مثل السماء. ساورها القلق من أن يكون المدير في مزاج مقتّرٍ، حتى رغم إدراكها أنه كلما قلّ عدد التصاريح التي منحها حتى الآن كانت فرصها أفضل.

تأرجح الباب عندها لينفتح ويُظهر رجلًا طويل القامة في بذلة ويسترن أنيقة، وعلى عكس الخارجين قبله، كانت سحنته مشرقةً وسلوكه مبتهجًا. لقد كان تشين كونغ.

رفعت رؤيةُ صديقٍ من روح سوك كون المعنوية، فرفعت يدها وصاحت مُفزعةً الطبيب، وراح كل الواقفين في الصف يحدقون.

انحنى تشين كونغ بعض الشيء، وكان أسلوبه رسميًا على نحو مفاجئ: «سيدة أونغ، كيف حالك؟»

فجارَتْ سوك كون لهجته: «إنني على خير ما يرام يا دكتور لي، ما الذي جاء بك إلى هنا في هذا الصباح؟»

فقال: «لاشيء إلا معاينة بعض مرضاي».

أدركت سوك كون أنه ربما التقى المديرَ نفسه.

ابتعد تشين كونغ تدريجيًا عنها: «إنني مضطر إلى الذهاب حقًا. سأحرص على إخبار زوجتي بأنني قابلتك».

فقالت بسرعة: «نعم، أرجو أن تُوصل تحياتي إلى روز». تمنّت لو وَجدت طريقةً لتشكره على الصورة الجديدة، لكنه كان قد انطلق يمشي بنشاط في الزقاق.

كدّرها أسلوبه الجاف. أكانت عائلتها في ورطة عويصة إلى درجة أن الطبيب لم يحتمل أن يُرَى يتجاذب أطراف الحديث معها؟ راحت تدقق في الأوجه التي صارت مشيحةً بنظرها لزملائها الساعين خلف تصريح. كانت مُوقنة أن آداب الطابور المعلومة تنصّ على أن ينشغل

كل شخص بنفسه، لكن ربما كان بقيتهم يتهرّبون منها ببساطة، فهل انتشرَت الأنباء حول مشاكل عائلتها في البلدة بالفعل؟

وكزها شخص ما لتتقدم، فقد جاء دورها.

تعثَّرت وهي تصعد الدرج الرخاميّ المهترئ، وحيّت الشاب الضجِر الذي يحرس الباب واتّبعت توجيهاته. لم يتمتّع الجزء الداخلي لمكتب الأمن بأيٍّ من الجاذبية المتداعية لمظهره الخارجي، فقد كانت الجدران التي سوّدها الهِباب بالصبغة الرمادية السمجة نفسِها، للأرضيات الخرسانية الوسخة والزي الرسمي للكادر، وحتى الجوّ المحقون بدخان مئة سيجارة تُنفث كلها معًا، كان رماديًا.

في هذا العالم القذر البائس، كانت الصورة النيّرة المشرقة التي استقبلت سوك كون عقب دخولها مكتب المدير مصدر لطخة اللون اليتيمة، كما لو أنها جاءت لتقابل الرئيس بنفسه.

من مسافة قريبة، كان مدير مكتب الأمن أقصر مما توقّعت، وله وجه مدوّر يكاد يكون مرحًا أترعها أملًا. كانت قد سمعَت أن الرفيق كوه هذا، قد نُقل مؤخرًا من كوانزو، وعلى ما يبدو فقد امتنع عن مآلفة السكان المحليين، مفضِّلًا قضاء وقت فراغه في تسلية الزوار المهمين الذين جاؤوا على متن العبّارة من شيامن.

حيّت سوك كون المديرَ بتحية الصباح وجلست على الكرسي الخشبي الصلب، وحينما أجابها بإيماءة قصيرة، سألته عمّا إذا كان قد بدأ يعتاد على وتيرة الحياة البطيئة في الجزيرة.

بحث الرفيق كوه عن إضبارتها وراح يقلّب صفحاتها.

«أذهب حيث يحتاجني الحزب. رغباتي وعاداتي الشخصية غير مهمة».

أخفضت سوك كون رأسها ارتباكًا.

«أخبريني لمَ أنتِ هنا».

مرّرت سوك كون رسالةَ تشاي عبر الطاولة: «لأجل زوجي؛ إنه يُحتضر، في هونغ كونغ، وعلينا الذهاب إلى جواره».

كانت أصابع الرفيق كوه بدينة كالنقانق، وبراجمه مغطاة بشعر أسود غليظ. فتح الظرف بخشونة ممزقًا الغطاء، ومرّ على الرسالة وخطاب الطبيب مرورًا سطحيًا قبل أن يرجع إلى الإضبارة: «كُتب هنا أن عائلتك رهن التحقيق حاليًا».

قالت سوك كون: «كانت حادثةً بريئة»، وبدأت بالتفسير الذي كانت وبي كيم قد حضرتاه، «فحماتي، أوه، كم هي خرقاء في هذا السنّ المتقدّم! كانت تسدد المطرقة إلى صورةٍ لـــ...»

فقاطعها الرفيق كوه: «تستغرق تصاريح الخروج شهرًا على الأقل لمعالجتها، وربما ستة أسابيع».

لوّت سوك كون قسمات وجهها مُعربةً عن بالغ الأسى: «قد يفارقنا زوجي في غضون أيام»، وحدقّت إلى بقعة في المكتب حتى دمعت عيناها، «لا بدّ من وجود استثناء يمكنك منحه، أليس كذلك؟»

عبس المدير، ورسم حاجباه حرفَ (V) في منتصف جبهته: «إن الحزب في غاية الأسف لمتاعبك، لكن استصدار أربعة تصاريح خروج أمر مستحيل ببساطة».

فرَمَت نفسها على الطاولة وقبضت على يديْ المدير الرطبتيْن، فانكمش متراجعًا متفاجئًا.

«إن زوجي ليرغب برؤية أولاده قبل أن يرحل، ولا شك أن بوسعك إيجاد ما يحملك على مساعدتنا في قلبك».

ثم حدثت المعجزة، فقد لانَ الوجه المدوّر للمدير مثل قطعة عجينة نيئة، وأقسمت سوك كون أنها التقطت بصيص لُطف في تلك العينين الخرزيّتيْن:

«قد يكون الحصول على تصريحَيْن ممكنًا».

فسوَّت جلستها: «وما نفعُ ذلك؟»

نفخ المدير صدره: «سأقول هذا مرةً واحدةً وأخيرةً، إن أربعة تصاريح أمرٌ لا نقاش فيه، فأنا على مشارف النسبة الشهرية المحددة، وما زلنا في...»، ونظر إلى الرزنامة على مكتبه، «الحادي والعشرين من مايو فقط».

شرعت سوك كون تقول بأكثر نبرة تنمُّ عن انكسار قلبها: «اعذرني»،

فقاطع حديثها: «أنتِ تهدرين وقتي. ارجعي عندما تتخذين قرارك»، وأغلق إضبارتها ثم ألقاها فوق كومة شاهقة، فانزلقت ووقعت على الأرض الوسخة وتناثرت محتوياتها في شكل مروحيٍّ أنيق، فقطّب المدير حاجبيْه ناظرًا إلى الأوراق ثم إلى سوك كون.

بطريقةٍ ما، جرّت ساقاها وزنَ جسدها الثقيل خروجًا من مكتب الأمن، مرورًا بالطابور الذي لا ينتهي، حتى بلغت الشارع. مباشرةً خلف بوابات مدرسة البنات الميثودية، والتي أُعيدت تسميتها إلى مدرسة دراغون هيد تيمنًا بشارعها، أمسكت فتاتان حبلًا ثخينًا من المطاط المَجدول على ارتفاع أكتافهما، في حين بدأت ثالثةٌ بالجري وقفزت فوق الحبل قفزةً مقصّيةً برشاقة مذهلة. خفضت سوك كون رأسها وتابعت سيرها، وفي الحدائق المورقة المكسوة بنبات الجهنمية خاصةِ المصحةِ المفتوحة أمام أعضاء الكادر من رفيعي المستوى فقط، كان ثمة ممرضة تدفع رجلًا محترمًا مسنًّا في كرسي متحرك وتثرثر بصوت

عالٍ مُهلل، لكن سوك كون رأت وجه الرجل العجوز شاحبًا مثل ورقة، ويُرجح أن الممرضة كانت تكلّم نفسها.

كان ذراعا سوك كون يتدليان ساكنيْن على جنبيْها أمام الفيلا، وبالكاد تمكّنت من رفعهما لتفتح البوابة الثقيلة. كانت حماتها تعشق التفاخر بأن بوابة الفيلا الماسية أضخم بوابات الجزيرة وأكثرها بهرجةً، وذلك أمرٌ لا يستهان به في منطقة تعجّ بالقصور الباذخة التي بناها الصينيون المهاجرون مِن مَن جمعوا ثروات هائلة في جنوب شرق آسيا. في الحقيقة، كانت ترى سوك كون البوابة تافهة في ترفها ومزيجها الوقح بين الأنماط العمرانية الغربية والشرقية، إذ توّجت قنطرةٌ مزينة برسومات أشعة الشمس على طراز الفن الزخرفي الأبوابَ السامقة المصنوعة من الحديد المطاوع، والتي اصطفّ على جانبيها دزينةٌ من نقوش طيور كناري، تحمل عملات معدنية في مناقيرها يُفترض أنها تمنح البركات لأربعة أجيال من عائلة أونغ. والآن أكثر من أي وقت مضى، بدت طيور الكناري هذه تسخر من سوك كون بينما تمرحُ في رغد عيشها اللانهائي.

عند بسطة الدرجة الأمامية، قرفصت الزوجات اللاتي استملكن الطابق الأول من الفيلا في دائرة، ورحن يفركنَ طُشوتًا من المغسولات بينما يُرشش أطفالهم أنصافُ العراة بعضهم بفائض الماء، وعند رؤيتهن سوك كون، توقفت النسوة عن الكلام وحدّقن بلا خجل يتحدّيْنها أن تُؤَنبهنّ، مثلما فعلت في أول مرة استوليْن على البسطة، فصعدت الدرج بخطوات متثاقلة.

في الصباح التالي، دَلفَت سوك كون إلى مكتب الأمن ممسكةً بعلبة وردية من المخبوزات الفرنسية دسّت في زاويتها ظرفًا سخيًا من المال، وكانت قد اتّفقت وبي كيم أن ليس لديهما ما يخسرانه.

قدّمتْ علبة المخبوزات إلى المدير بكلتا يديْها، ففتح الرفيق كوه الغطاء، وانتزع الظرف ثم رماه على الطاولة مشمئزًّا وهمس بعنف: «أتحاولين إيقاع كليْنا في ورطة؟»

سُمع من الطرف الآخر للجدار الرقيق طقطقة آلة كاتبة، ووبّخت سوك كون نفسها لإصغائها إلى نصيحة حماتها. أيمكنها إقناع المدير بمنحها التصريحيْن اللذيْن عرضهما في البداية حتى؟ ربما يمكن أن يرحل ليام وبي كيم أولًا، وتنتظر هي وسان سان صدور تصريحين آخَريْن، لكن حماتها كانت ضعيفة جدًّا، ولم يعُد بوسعها المشي دون عكاز، فكيف عساها تقطع والصبيّ كل الطريق إلى هونغ كونغ؟

في إبّان ذلك، كان المدير المتجهّم يقلّب أوراق إضبارة سوك كون. ألقى نظرةً باتجاه الظرف، الذي كان يرقد نادمًا بجوار مرفقها، وأغلق الإضبارة: «ستُسرِّين لمعرفة أن صديقي وطبيبي الدكتور لي تشين كونغ، قد حثّني على إعادة النظر في قضيتك».

شهَقت سوك كون، وملأ امتنانُها لتشين كونغ – ولروز، التي كانت تعرف أنها لا بدّ ضغَطَتْ على زوجها ليتصرّف – كيانَها بأكمله، وشعرت أنها قد تعلو مرتفعةً في الهواء.

«لقد تمكنتُ من تحصيل تصريح ثالث لك».

فهبطت روحها عائدةً إلى كوكب الأرض، وكانت مستعدة لأن تركع على ركبتيها وتتوسل إليه، لكن المدير رفع يده وقال: «هذا أفضل ما بوسعي فعله».

فانهمرت الكلمات من فمها: «شكرًا لك أيها الرفيق، أوه، شكرًا لك»، ولم يكن الوقت مناسبًا لتقلق حول الطريقة التي ستخبر بي كيم بها بأن عليها البقاء هنا، مؤقتًا فقط بالطبع.

ارتسمَت ابتسامة غريبة على وجه الرفيق كوه: «هذا جيد. أيًّا من أطفالك ستأخذين؟»

فانحلّت العضلات في جسم سوك كون بوصةً بوصة: «ماذا تقصد؟»

«حسنًا يا سيدة أونغ، لا يمكنك أخذ كليْهما».

ارتفعت صرخة حتى حلقِها لكنها تمكنت من كبحها: «إن والدهم يُحتضر».

تلوّى الوجه العجينيّ للمدير ليرسم ابتسامة متكلفة: «وماذا عن حماتك؟ ألا تهتمّ لرؤية ابنها المحتضر؟»

فكّرت سوك كون بسرعة: «حماتي امرأة عجوز وضعيفة، وأنت تعرف كيف يكون حالها نظرًا لجيلها وأقدام اللوتس خاصتهن. هي نادرًا ما تغادر المنزل حتى».

كانت عينا الرفيق كوه مُعتمتيْن: «على الأرجح أن الأطفال أصغر من أن يعرفوا والدهم حقًّا بكل الأحوال، ألم يمضِ على سفره وقت طويل؟»

رصّت جبهتها على طاولة المكتب الحديدية الباردة بشيء من التذلّل، وقالت عاجزة عن حبس دموعها: «أرجوك، إنها رغبة زوجي الأخيرة».

«لستُ أملك وقتًا أهدره على هذا صدقًا يا سيدة أونغ، ولا شكّ أنك رأيت الطابور في الخارج».

رفعت سوك كون نفسها على مرفقيها ونظرت في عيني المدير.

فنقر على درج مكتبه: «التصاريح ههنا، وإن كنتِ لا تريدينها فسيريدها غيرك».

«قُل لي ما الذي عليّ فعله لأحصل على واحد رابع».

فقال: «هذا مستحيل»، ثم حَبَت أصابعه الشبيهة بالنقانق عبر الطاولة حتى لامست ظرف المال.

راقبت سوك كون المدير وهو يدسّ الظرف في جيبه الصدريّ، وأصدرت الآلة الكاتبة طنينًا في الغرفة الملاصقة.

قالت: «فهمت».

فربّت على جيبه: «ومع ذلك، فإن للأمور طريقتها في التغيّر سريعًا هنا، لمَ لا ترسلين مساعدًا الأسبوع المقبل؟»

حدّقت سوك كون في أعماق عينيْ المدير الخرزيّتيْن، محاولةً تبيُّن إذا ما كان ثمة أي شذرة منه يمكن الوثوق بها، وحسبَت كمّ المال الباقي في الخزنة وقالت: «سأفعل».

فقال مصفقًا بيديْه: «هذا جيد. يمكنك المغادرة مع اثنين من أفراد عائلتك فورًا، ولكم أن تبقوا في هونغ كونغ مدةً تصل إلى أربعة عشر يومًا، علمًا أن المدة القياسية هي سبعة أيام، لكن لأن الطبيب لي صديقٌ طيبٌ، فقد منحتُك بعض الوقت الإضافي».

تمتَمت تلقائيًا: «شكرًا جزيلًا». لم تكن واثقةً بموي، التي كانت بي كيم مقتنعة بأنها وشَت بها، لذا سيكون على كوك العودة من أجل التصريح الرابع.

نشر الرفيق كوه ثلاثة تصاريح على مكتبه. كتب على الأول اسم سوك كون، واسم بي كيم على الثاني، وعندما وصل إلى الثالث، انتظر مُعدًّا قلمه، وقال: «إذًا؟» كان من الواضح أنه مستمتع بذلك.

ارتعشت أصابع سوك كون لا إراديًا، وكم اشتهت أن تلطمَ الرجل على أنفه بَصليّ الشكل مباشرةً، فحشرت يديها أسفل تنّورتها، وألقى المدير نظرة خاطفة على الساعة المعلقة على الجدار. كانت تكّات عقرب الثواني تقصف في أذنيها، ولم تتمكن من التفكير في خضمّ هذا الصخب.

«ماذا قررتِ يا سيدة أونغ؟»

فلملمَت شَتات نفسها: «أيها الرفيق، أتوسّل إليك، لا تجعلني أفعل هذا».

رمى قلمه على المكتب، فأحدث طنينًا وسقط على الأرض.

«أونغ وي ليام»، سمعت نفسها تنطق اسم ابنها الكامل وعرفت أن الأمر لا يمكن أن يكون بخلاف ذلك البتّة.

انحنَت لتستعيد قلم المدير، وكتبَ الأحرف بخطّ مزخرف، فدسّت التصاريح في محفظتها وراحت تترنّح متجهةً نحو الباب، ولمدة بدت أزليّةً، تخبّطت مُحاوِلةً تدوير مقبض الباب، فقد كانت راحتاها زلقتَيْن متعرقتَيْن ولم يسعْها إحكامُ قبضتها عليه. هل حبسها المدير في الداخل بطريقة ما؟

قال: «سيدة أونغ»،

فالتفتَتْ لتجد الرفيق كوه قد فتح علبة المخبوزات وأخذ يقضم فطيرةَ لوز.

وقال بفم ملآن: «لقد نسيت قولَ إني آمل أن يخرج زوجكِ من محنته معافًى».

فقالت مختنقةً: «شكرًا لك»، ثم استعادت صوتها، «سيعود مساعدي في الأسبوع المقبل من أجل تصريح ابنتي».

«سنبذل قصارى جهدنا».

جفّفت راحتيها بتنورتها وجذبت الباب بعنف حتى انفتح.

كيف يمكن لامرِئٍ أن يُخبر ابنته بأن العائلة بأكملها سترحل وتتركها؟ جاء وقت العشاء ولم تكن سوك كون قد خرجت بأجوبة، وكان الشيء الوحيد الذي أمكنها وحماتها التفكير فيه هو إيصال الأنباء على

أكثر نحو عمليٍّ ممكن، كما لو كان بوسعهما هدهدة سان سان حتى تفشل في ملاحظة ما كان موشكًا على الحدوث.

أعلنت سوك كون وهي تتخذ مجلسها إلى الطاولة: «لقد منحوني ثلاثة تصاريح، سيذهب ليام والجدة وأنا أولًا، وسان سان ستبقى مع كوك وموي، لعدة أيام فقط، حتى يصدرَ تصريحُها».

تباطأ مَضْغ الفتاة، وأنزلت عودَي طعامها إلى صحن الأرز.

فسارعت سوك كون إلى ملء الصمت: «سنغادر على متن أول عَبَّارة في الصباح كي نلحق بالقطار في شيامن».

تدخلت بي كيم مساندةً إياها: «هل سمعت ذلك يا ليام؟ احرص على إنهاء حزم أمتعتك الليلة».

حدقت الفتاة في صحنها.

فتابعت سوك كون الكلام بذاك الصوت المتصلِّب البشوش نفسِه.

«ستعرّج الخالة روز كل يوم؛ لذا لا تفكري حتى بالتملّص من تمرين البيانو، وعندما تصلين، ستعزفين مقطوعاتك الجديدة لأبيك، وسيُعجَب بها للغاية».

قالت بي كيم: «آه نعم، فقد أحبَّ أبوكِ الموسيقى الكلاسيكية مذ كان صبيًا صغيرًا».

لم ينمَّ وجه سان سان عن شيء: «كم يومًا؟»

قالت سوك كون: «واحدًا أو اثنين، أربعة على الأكثر».

فثبتت سان سان نظرها في عينيْها، وقرأت شيئًا يشبه التحدي في نظرة ابنتها الثابتة. إن كانت الفتاة ترفض أن تُسترضى، ألم يكن بوسعها إذًا أن تنشج وتزعق على الأقل مثل بقية بنات جيلها؟

قالت سوك كون: «ستمرّ دون أن تشعرين بها. كوك قادر على طبخ كل أطعمتك المفضلة». كلماتٌ تافهةٌ لا يمكنها أن تُرضي إلا طفلًا أصغر وأكثر سذاجة.

قالت بي كيم: «يا لها من فكرة مدهشة! سجلي يا فتاة كل ما ترغبين بأكله، كي تعرف موي ماذا تشتري من السوق».

عضّت سان سان على شفتها: «لا يهمني حقًّا».

حدجت سوك كون حماتها بنظرة إحباط سريعة.

فسألت بي كيم: «ماذا عن *البوبايا*؟ أو *الكيام بينغ*؟»

فقال ليام: «أعطها تصريحي، سأبقى أنا».

تسارعت نبضات قلب سوك كون: «لقد خُصّصت التصريحات لأصحابها بالفعل».

دائمًا ما كان صوت ليام الغلاميّ يرتفع بحدةٍ عندما يكون منفعلًا: «لكن إن كان على أحد ما السفر وحيدًا، أفلا يجب أن يكون أنا؟»

صفعتْ سوك كون الطاولة بيدها: «لا يمكنني مناقشة هذا الآن، فلديّ ما يكفي لأقلق بشأنه بالفعل».

نظر ليام شزرًا ثم أدار وجهه، وندمت سوك كون على نبرتها.

سألت سان سان: «أتأذنون لي بالقيام؟»

فانحنت بي كيم عليها: «أتشعرين بالتوعُّك؟ هل ثمة حُمّى؟» وضغطت بظهر يدها على جبهة الفتاة.

فأومأت سوك كون لحماتها بأن تتركها: «خذي راحتك».

دوّى وقع خطوات ابنتها في الردهة، ثم صُفق باب غرفة نوم سان سان، وكان الصخب عنيفًا مثل أي تعبير عن الاستنكار، وفي منتصف

الطاولة، تجمّد غشاءٌ دهنيٌّ فوق الصلصة البُنيّة في طبق لحم الخنزير المطهو ببطء.

قال ليام: «أتأذنون لي أيضًا؟»

رمَت سوك كون منديلها: «افعل ما تريد، عليّ أن أعطيَ الخدم توجيهاتهم»، ووقفت ثم ذهبت إلى المطبخ.

حاولت بي كيم أن تعوّض عن قسوة سوك كون، وقالت للصبي: «إن والدك يحتاج إليك بجواره».

فقال: «أعرف ذلك، لكنني قلقٌ بشأن سان سان».

من خلف باب المطبخ، وقفت سوك كون تراقب حماتها وهي تملّس خصلة الشعر المنتصبة في مؤخر رأس ابنها. كان الصبي قد نما عدة سنتيمترات في الأشهر الأخيرة، لكنه ما يزال صغير الحجم بالنسبة إلى سنّه.

قالت بي كيم: «سيرافق كوكُ سان سانَ طوال الطريق حتى الحدود، ولن تكون وحدها إلا في المسافة الأخيرة فقط، ثم سنلاقيها في هونغ كونغ»، وأطلقت ضحكة متصنّعة، «تحلَّ ببعض الإيمان بأختك».

التفتَت سوك كون لتجد كوك وموي ينتظرانها بجوار الفرن، وقال كوك بجدية: «لا تقلقي بشأن الآنسة الصغيرة، سنعتني بها خير اعتناء في غيابك».

كان عليه أن يعود إلى مكتب الأمن خلال يومين ليحاول مجددًا، فأعطته سوك كون ظرفًا موجهًا للمدير، وقد ضمّنته بملغ ماليٍّ أكبرَ من سابقه، يصحبه وعدٌ بأن ترسل ضعف ذلك المبلغ إلى كوك بمجرد أن تصير سان سان بأمان بين ذراعيها.

مسحت موي الدموع عن عينيها، وإن كان مفترضًا أن الجميع يعتقد أن العائلة لن تغيب أكثر من أسبوعين، وقالت وهي تبحث عن أنفاسها: «سيتعافى سيدي، أعرف أنه سيفعل».

حاولت سوك كون تذكُّر ما إذا كانت موي قد قابلَت زوجها أكثر من مرة، وشكرتهما على تمنياتهما الطيبة وعادت إلى غرفتها لتنهيَ حَزم أمتعتها حريصةً على ترك عدة أغراض ثمينة معروضةً على نحو بارز: مزهرية كرستالية من أقحوان كان قد بدأ يذبل، وزجاجات عطر عليها لصاقات فرنسية صفراء.

ذهبت بعد أن أتمّت عملها إلى غرفة ابنتها.

كان الضوء مضاءً، لكن سان سان كانت مستلقيةً فوق الأغطية وثمة مخدّة على وجهها، ودميتها الحبيبة ممدّدة على السجادة.

التقطَت سوك كون الدمية ومسحت على شعرها المتلبّد الأشقر الشحيح: «ماذا أصاب هانسل؟»

أبقت سان سان وجهها مغطًى: «إنني أكبرُ من أن ألعب بالدُّمَى».

وضعت سوك كون الدميةَ على المنضدة: «أتشعرين ببعض التحسّن؟»

«لا».

جلست سوك كون بجوار ابنتها، التي لم تُفسح لها مجالًا على السرير، وعندما رفعت المخدّة عن وجه سان سان، وضعت الفتاة ساعدها على عينيها.

قالت سوك كون: «لن يطول الأمر أكثر من بضعة أيام».

«لقد قلتِ ذلك بالفعل»، وتقلبّت الفتاة في سريرها لتواجه الحائط.

راحت تدلّك ظهر ابنتها، وتتلكأ أصابعها على العقد الضامرة لعمودها الفقري: «سأشتاق إليك يا سان سان».

فأجابت الفتاة بصوت حاقد: «لكنها بضعة أيام فقط».

متى صار أولادها حقودين ولئيمين لهذه الدرجة؟

«حسنًا إذًا». نهضت سوك كون على قدميْها، ورجفَ كتفا ابنتها رجفةً في منتهى الخفّة، فرقّقت نبرتها: «أترغبين في أن أطفئ الأنوار؟»

«لا يهمني».

جذبت سوك كون سلسلة المصباح، وتغْتَمَت ابنتها في الظلمة:

«ماما».

فحبست سوك كون أنفاسها: «نعم؟»

«ماذا لو تُوفيَ بابا قبل أن أصل إلى هناك؟»

فطارت سوك كون إلى السرير وطوّقت سان سان بذراعيها: «سينتظرك، أُقسم أنه سيفعل».

في البداية، بقي جسم الصغيرة النحيل مشدودًا، لكن عندما شدّت سوك كون عناقها، ذابت سان سان بين ذراعيها، وتدفّقت الدموع من عينيها سريعةً وصامتةً لتُغرق عنق سوك كون وصدرها. في تلك اللحظة، توهّمت سوك كون أنها وابنتها قادرتان على البقاء متشابكتيْن هكذا، وأنها لن تُضطر إلى فضّ العناق أبدًا.

6

لو لم يكن الدرَج مبللًا وزلِـقًا نتيجة رشّة مطر وجيزة هطلت قبل الفجر، لما سلّمت بي كيم أمرها وأخذت بذراع موي. كانت المِحفّات[1] منتظرةً، والأمتعة مكوّمة في عربة يدوية، وأثناء عبورهم البوّابة، رفعت بي كيم نظرها إلى طيور الكناري حاملةِ العُملات، وطلبت منها أن تُبارك عائلتها مرةً أخيرة. أربعة عقود كانت قد قضتها في هذه الفيلا، والآن ترحل تاركةً كل شيء خلفها: الأثاث العتيق النفيس الذي توارثته عائلتُها لأجيال، والذهب واليَشم الذي لم يعُد بوسعها لبسه فوق المجوهرات التي كانت تلبسها بالفعل من دون أن تثير الشكوك، وأزرار الأكمام البيوترية خاصةِ ليب، التي كانت ترقد مستكينةً في صندوق مخمليٍّ مهترئ على منضدتها، وبالطبع، الفتاة.

وهناك، كانت واقفةً أعلى الدرج ما تزال مرتديةً ثوب نومها ورصينةً مثل حارس. حتى عندما كانت رضيعةً؛ نادرًا ما كانت سان سان تبكي؛ كما لو أنها فهمت منذ ولادتها أن لا طائل من منافسة أخيها الأكثر تطلبًا، ولم تتذكر بي كيم أنها سمعت سان سان تجاهر برأيها إلا مرةً. في إحدى

(1) المحفّة: هودج لا قُبّة له، أو سرير له ذراعان من كلّ ناحية، ليسهل حمله.

الأمسيات قبل سنة أو اثنتيْن، أخرجت بي كيم آخر حصة من البيض المسلوق جيدًا من شوربة التوفو ووضعتها في صحن ليام، ما دفع سان سان إلى السؤال: «لمَ لا أحصل على آخر بيضة أبدًا؟»، فاستدارت بي كيم متفاجئةً، وحتى تلك اللحظة، لم تكن قد لاحظت تمامًا ما كانت تفعله، فأجابت بلُطف: «لأن أخاك أكبرُ منك ويأكل أكثر منك»، ففحصتها سان سان لبرهة ثم همسَت ووجها في صحنها: «لا أحب البيض على أي حال».

نادتها بي كيم: «تعالي يا فتاة».

اقتربت سان سان منها، وأوشكت قُطيرة مُخاط أن تقطر من أنفها، فقدمت لها بي كيم منديلها، فنَفَّت الفتاة في القماشة ورفعت نظرها مرتابةً.

قالت بي كيم: «احتفظي به أيتها اليقطينة السخيفة»، وأحاطت وجهَ سان سان بيديْها ولم تعرف ماذا تقول. قرصت خديْ الفتاة برفقٍ لتُخفي انزعاجها، ومدت يدها تحت كمها لتخلع بصعوبة إسوارة ذهبية رفيعة مُخرّمة من معصمها، وراحت تعبس وتكشّر مع تضيُّقها على يدها الممتلئة. أزلقَت الإسوارة صعودًا على ذراع سان سان النحيلة، فوصلت حتى المرفق تقريبًا: «هكذا ستفكرين في جدتك أثناء فِراقنا».

نظرت الفتاة إلى إسوارتها بريبةٍ: «شكرًا لك».

أومأت بي كيم إلى موي: «ساعديني في أمر المحفّة».

لاح حفيدها بجوار الأمتعة، وشعره النديّ ملتصق بجبهته. كانت أكمام سترته الخفيفة تخدش عظام رسغه، وضاق صدر بي كيم جَراء الحنوّ الجيّاش الذي أحسّته إزاء الصبي. كانت لتمنَح عشرة أضعاف ما منحَت سان سان كرمى له.

هبطت سوك كون الدرج مسرعةً وركعَت أمام سان سان. أرادت بي كيم من كَنتها أن تبقى قويةً، لكن سوك كون شدّت رأس الفتاة إلى صدرها شدةً طويلة، وعندما افترقتا أخيرًا، رمشَت سان سان كأنما تشعر بالدوار.

تدبّرت سوك كون إظهار ابتسامة وقالت: «أراكِ قريبًا يا ابنتي»، ودمعَت عيناها لكنها لم تبكِ.

جاء ليام وأحاط سان سان بذراعه ثم همس شيئًا في أذنها رسمَ ابتسامةً عريضةً على وجهها. رغبت بي كيم في أن تجترف كليهما وتُسرع مجتازةً التلة، ذلك أن العقل لم يقبل عجزهم عن أخذ الفتاة معهم، وحدّقت إلى العربة اليدوية الممتلئة بالأمتعة متسائلةً لمَ لم يخطُر لها أن تحاول على الأقل تخبئة حفيدتها في واحدة من هاته الحقائب، ثم أغلقت عينيها وقبضت على جمجمتها منتظرةً من لحظة الجنون أن تمر.

في غضون ذلك، ركبت سوك كون وليام المحفّة الثانية، وكانا على وشك الانطلاق حينما سمعا جلجلة خطواتٍ على الحصى، ثم دار رجل وامرأة حول الزاوية وركضا ناحيتهما.

قالت روز بنفَس منقطع: «إننا آسفان لتأخرنا»، وأومأت لبي كيم محيّيةً إياها.

فقفزت سوك كون من المحفّة وعانقت صديقتها.

وقال تشين كونغ وهو يمسح تعرّق جبهته بمنديله: «أردنا أن نودعكم».

فصافحت سوك كون تشين كونغ وشكرته على كل ما فعله.

فحصت بي كيم نوافذ الطابقين الأولَيْن من الفيلا بحثًا عن جيران متلصصين، لكن كان من الصعب الرؤية في ضوء الفجر الخافت، ومن ستر الله، كان مفترضًا أن العائلة لن تغيب إلا أسبوعين.

قالت روز وهي تمسح عينيها: «كفاكِ سخفًا، كان أمرًا بسيطًا».

وأضاف تشين كونغ بصوت خفيض: «لا نطلب منكم إلا أن تتذكرونا لاحقًا، حينما تصيرون في موضع يسمح لكم بمساعدتنا».

ألقت بي كيم نظرةَ فزَع. لم يكن سمعها حادًّا مثل سابق عهدها، ولا بدّ أنها سمعت خطأً، فقد كان تشين كونغ الطبيب الهامُّ وعضو الحزب شيوعيًّا حتى النخاع، ولم يكن لديه سبب يدفعه إلى المغادرة.

لكن لم يترك وجه كنّتها المشدوه مجالًا للشك، وتلعثمت سوك كون قائلةً: «أي شيء تحتاجانه، أي شيء على الإطلاق».

قالت روز وهي تمشي باتجاه الفتاة: «لا تقلقي بشأن سان سان».

أعطت سان سان معلمةَ البيانو يدَها، وراحت تلك الأفكار المخبولة تهبط على رأس بي كيم مجددًا؛ لو كانت البنتُ رضيعةً لألقمتها خمر الأرز وحشرتها تحت ملابسها. ثم نادَت: «حسنًا إذًا، يجب ألّا تفوتنا العَبّارة».

وغادروا أخيرًا.

انحسرت بوابات الحديد المطاوع الطويلة – الأحسنُ في كل جزيرة درَم ويف، وراحت روز وتشين يُلوحان، وكوك وموي يصرخان: «فلتحمِكم السماء».

إلّا سان سان، وقفت تشاهد بصمتٍ مثل شبحٍ في ثوب نومها المنتفخ، وقد شق التعبير المُدرك على وجه الفتاة قلبَ بي كيم؛ فأطلقَت أنّة. وقف حامل المحفّة الأمامي قليلًا، مستدرجًا الشتائم من شريكه في الخلف.

«أتحتاجين إلى العودة، مدام؟»

تباطأت المحفّة الثانية أمامهما.

ونادت سوك كون: «أنسيتِ شيئًا ما يا أمي؟»

فهزت بي كيم رأسها: «تابعوا طريقكم، لا يجدر بنا تفويت القارب»، وظلّت مثبتةً نظرها إلى الأمام بقيةَ الطريق.

حطّت محفّتها بجوار أرصفة العبّارات مُحدثةً صوت خبطة، وعندما رفعت عينيها، رأت بي كيم أن السماء في هذا الصباح الأخير لها على جزيرة درَم ويف كانت جامدةً وشاحبةً وكئيبةً، وبطريقة أو بأخرَى، أنهكَ الكِبَر السماءَ أيضًا على مر السنين من غير أن تلحظ ذلك.

في مرفأ شيامن، أرسلا ليام ليوقف عربتي تريشو كي تُقِلّاهم وأمتعتَهم إلى محطة القطار، وبعد ثمانِ ساعاتٍ من ركوبهم مقصورة القِطار ذاتِ المقاعد الوثيرة، وصلوا إلى قرية غونغباي التي بدا أن علامتها الفارقة الوحيدة هي مصلحة جماركٍ بدائية، تفصل البر الرئيسي عن شبه جزيرة ماكاو، ورسَم الحدودَ جدولٌ كان طينًا أكثر منه ماءً. بحثت بي كيم سدًى عن جسر قبل أن تخلُص إلى أنها ستُضطر إلى الدوْس عبرَ الوحل الأصفر على قدميها المربوطتيْن الموجوعتيْن بالفعل.

لم تتمكن من السخط طويلًا، فقد نبح حارسٌ لئيمُ المنظرِ، له وجه أحمر وعنق غليظ، عبر مكبر الصوت بأن يصطفّ كلّهم رتلًا ويُظهروا تصاريح خروجهم، ومشى حارسان أصغر سنًا على طول الصف في اتجاهيْن متعاكسيْن. ذُعرت بي كيم عندما انتُزعت الوثيقة الواهية منها، فماذا يمنعهم من تمزيق تصاريح عائلتها مِزَقًا، أو مِن رميها في الجدول، أو ادعاء أنهم لم يسلّموها في المقام الأول؟ فلمست ذراع

حفيدها محتارةً في ما إذا كانت تطلب منه الطمأنة أم تحاول طمأنته، فرفع مرفقه كي تنساب يدها عبره.

قريبًا من نهاية الصف، خاطب واحد من الحارسيْن الشابيْن رجلًا يرتدي بذلة ويسترن.

حذّر الصبي الرجلَ الأكبر سنًّا بكثير: «لا تكذب عليّ».

توسّل الرجل قائلًا: «إنها الحقيقة».

رفع الصبي تصريحَ الخروج في الجو ومزقه إلى نصفين، فشهقت بي كيم وليام معًا، وضيّقت قبضتها على ذراعه، ثم راح طفلٌ يبكي وحاولت أمه جاهدةً إسكاته.

فاندفع الرجل ينطق كلماته بقوة وانفعال: «لا يمكنك فعل هذا! لديّ إذن بالمغادرة. أحضر لي مديرَك».

فجاء الرجل لئيمُ المنظر بفشخة واحدة، وسحق نصفيْ تصريح الخروج خاصةِ الرجل بيده، ثم رمى كرة الورق على الأرض. حمل الحارسان الشابان الرجلَ من تحت ذراعيه وأخذاه إلى مصلحة الجمارك بين مشيٍ وجرّ.

رغم تشبّث بي كيم بحفيدها، لم تجرؤ على النظر إليه أو إلى سوك كون، وبدلًا عن ذلك أخذت تفحص التطريز المتشابك على حذائها المنمنم، وكم بدا مضحكًا بالمقارنة مع حذاء ليام القماشي المتين المغطى بالأوساخ، كحذاء دمية يحاول أن يبدو حقيقيًّا، وعلى بُعد عدة خطوات، أنَّ الطفلُ لكنه لم يبكِ.

بعد أن جُرت أمتعتهما ليَجري تفتيشُها، أمرهم كبير الحراس بتسليم أموالهم، فأمسكت كنّتها محفظتها مفتوحة بكل طاعة، وتوتّرت بي كيم عندما رأت منظر رزمة الأوراق النقدية السميكة. أخرج الحارس الرزمة

وراح يعدّ ما فيها، متوقفًا بين الحين والآخر ليُنقّل نظره بين سوك كون وليام وبي كيم، فجذبت كمها حتى أصابعها ليغطي خواتمها، وفحصت بعينيها حفيدها وكنتها باحثةً عن أشياء قد تلفت انتباه الحارس. بدت عظام رسغي حفيدها البارزة من سترته صغيرة الحجم عزلاء وهشةً للغاية. حينما انتهى الحارس من العدّ، جزعت بي كيم مما قد يقوله، لكن كل ما فعله كان إعطاء النقود لواحد من الحراس الأصغر والانتقال إلى التالي في الصف.

مر المزيد من الوقت، وحتى رغم اتكائها على عكازها وعلى ذراع ليام، شعرت بي كيم بألم مُمضٍّ في فخذيْها وسمانتيْها، وعند كل نقلة وزن كانت تشعر بألم حارق ينطلق من ساقيْها نزولًا إلى قدميْها. وأخيرًا أُعيدت تصاريحهم إليهم، وجُرّ زوجٌ آخَر مُألف من شاب وشابة بعيدًا، فاقترب ليام وفتح فمه لكن بي كيم حذرته بعينيْها ليظل صامتًا.

رفع كبير الحراس مكبر الصوت إلى فمه: «لقد سُمح لجميعكم بمغادرة الصين، فاستلموا أمتعتكم وارحلوا».

تعالى أزيزُ زفرة بي كيم في الهواء، وحضنت حفيدها بإحكام وهمست: «كِدنا نصل».

أخذت سوك كون وليام كلٌّ بإحدى ذراعيْ بي كيم وساعَداها على نزول الضفة المنحدرة وعبور الجدول. وفي كل خطوة زلِـقة تخطوها، كان الوحل يمتص حذائها مهددًا بابتلاعه كله. تدافع بعض المسافرين ذوي الأبدان الأكثر صحةً متجاوزينهم ومبعثرين التراب في كل مكان. وعند أسوار المدينة، خرّت بي كيم على الأحجار الناعمة السوداء لتنتظر بينما تجلب كَنتها وحفيدها الأمتعة، وفي كل مرة كانوا يمرّون بجانب الحرس كانت تحبس أنفاسها وتصلّي.

دخلوا أخيرًا عبر بوابات المدينة، وهالَ بي كيم أن لاقتهم نقطةُ تفتيش أخرَى، لكن الحارس البرتغالي هذه المرة ختمَ تصاريحهم ببساطة وأشار إليهم أن ينتظروا المحطة الأخيرة من رحلتهم.

داخل غرفة الانتظار النظيفة الصغيرة ذات النوافذ المطلة على المياه، فسّرت بي كيم لليام أن كل ما تبقى هو أن يجري نقلُهم إلى هونغ كونغ في عنبر سفينة سياحية.

وحينما بدا الصبي مصدومًا أسرعت بي كيم وأضافت: « الكل يفعل الأمر نفسَه»، ولوّحت بيدها لمسافرين آخرين في الغرفة، «حتى أعضاء الكادر رفيعي المستوى. أرأيت كم كان استصدار تصاريح خروجنا شاقًّا على أمك؟ إن الحصول على تصريح دخول إلى هونغ كونغ أصعب بعشر مرات».

«وماذا لو أمسكوا بنا؟»

فقالت: «هذه ليست الصين. إنهم يريدون مساعدتنا في هونغ كونغ لا اعتقالنا»، وأشارت إلى رفٍّ قريب مليء بالمجلات والصحف اللامعة والملونة وحثت حفيدها أن يأخذ واحدة «انظر! تتمتع الصحافة بحُرية نشرِ كل ما ترغب فيه».

سار حفيدها إلى الرفّ وعاين صحيفةً اسمها *نا سينغ تاو ديلي*، فالتفتت بي كيم إلى كَنتها: «سيكون من الجيد له أن يرى كيف يعيش الناس خارج صيننا».

لم تُجب سوك كون، وراحت تحدق من النافذة محيطةً نفسها بذراعيْها.

فقالت بي كيم بحذر، لأن الاعتراف بما كان في الحقيقة يدور في خلد كنّتها سيُطلق وابلًا من الأفكار في خلدها هي: «لن يطول الأمر إلا قليلًا بعدُ».

قالت سوك كون محدقةً في اللاشيء: «كانت هذه غلطةً، عليّ العودة».

حلّت بي كيم واحدًا من الذراعيْن المعقوديْن على صدر سوك كون وثبتتها على مسند كرسيها: «لا يمكنك ذلك».

فالتفّت سوك كون لتواجه بي كيم: «لا بدّ أن يسمحوا لي بالعودة عبر الحدود، فلا توجد قاعدة تحظر العبور بالاتجاه المعاكس».

«أنصتي إليّ يا كَنّتي، إن تصريح سان سان سيصدر، وإن لم يفعل، فإن تشاي يعرف ما عليه فعله»، وهي كلمات كانت قد رددتها في سرها على طول هذه الرحلة التي استغرقت نهارًا.

- لقد رُدّ كل هؤلاء الناس بلا تعليل.

- لن يحدث هذا لسان سان.

فارتفع صوت سوك كون: «أنّى لك أن تكوني متأكدةً إلى هذه الدرجة؟»

ونظر ليام من فوق صحيفته.

فقالت بي كيم بنبرة مُسكّنة: «اهدئي، اهدئي. لقد فعلناها، أليس كذلك؟ وكذا ستفعل هي».

«لكن ماذا لو أخذها أولئك الحرس الأنذال؟»

قذفت بي كيم يديها في السماء تبرُّمًا، ما الذي تريده سوك كون منها؟ بالطبع لم يكن ثمة شيء مضمون، فقد لا تحصل الفتاة على تصريحها أبدًا، وقد تنجح بعبور الطريق كله حتى هنا فقط ليجري ردّها من أجل تفصيل ما، أو لأن الحارس في مزاج سيء، وقد تمرض

الفتاة غدًا، فالناس يموتون إثر مختلف أنواع الحوادث الغريبة، وقد ماتت أُختها إثر حادث كهذا وكانت لم تتجاوز السادسة. تحرّقت بي كيم أيضًا إلى البكاء والعويل وإطلاق ما يُحبطها، لكنها لم تفعل ذلك، صحيح؟ لا، كانت مركزة على إيصالهم إلى بر الأمان.

أثقلت نظرة سوك كون الدامعةُ كاهلَ بي كيم، تستحلفها أمورًا لا حق لها في طلبها، ولا حق لبي كيم في منحها.

7

كان من المفترض بالسفينة أن ترسوَ قبل ساعتين، وراح تشاي يذرع محيط قاعة الوصول المزدحمة وهو يشعِل السيجارة من جذوة سابقتها، ويخطو من فوق المشرَّدين النائمين، متجاهلًا الباعة المنادِين بكعكات اللحم المطهوة على البخار، والفول السوداني المُقشّر، وصفائح الحبّار المجفف على الأسياخ الخشبية. شعَر في الحرّ اللزج لآخر الظهيرة أن سترة بذلته الكتانيّة قشديّة اللون خانقةٌ مثل ضمادات. وفوق رأسه، كان ثمة صف من المراوح السقفية تدور ببطيئةٍ إلى درجة أمكنه معها رؤية الطبقة السميكة من الغبار التي غلفت كل ريشة، فخلع قبعة الفيدورا القشّيّة خاصته وراح يُهوّي وجهه، لكن ذلك لم يخفف عنه إلا قليلًا.

دخلت شابتان – بدا أنهما أُختان – وأسرعتا متجاوزتيْن الصالةَ ممسكةً الواحدة بيَدِ الأخرَى. كانتا مرتديتيْن فستانيْ شيونغسام[1] أنيقيْن مضبوطيْن، واحد بلون الدرّاق الناضج، والآخر باللون الأخضر الباهت لذاك اللوز المُحلّى الذي كانت لولو تشتهيه مؤخرًا، فأطال تشاي

(1) الشيونغسام هو الرداء التقليدي الصيني

نظرته إلى المرأتين، مقدرًا ابتهاجهما الصرف في هذا اليوم مجحفِ الحرارة. كانت الأثواب المشابهة قد حُظرت في الصين الجديدة، وكان قد رأى صورًا في الجريدة لسيدات المدينة يلبسن مثل أعضاء الكادر أزياءً داكنةً لا شكل لها، وشعورهنّ مقصوصة بصرامة، فأمِل ألا تكون سوك كون قد قصت شعرها، ثم أنّب نفسه فورًا لسماحه لفكرة سطحية كهذه أن تدخل ذهنه. قد مرّت ست سنوات منذ آخر مرة رأى فيها أمه وزوجته والأولاد، ست سنوات طويلة تراكم فيها ذنبه، قطرة خفيّة خلف قطرة خفيّة، إلى أن جاء أحد الأيام، ولم يكن منذ وقت طويل، ونظر إلى الماء الآخذ بالارتفاع تحته واكتشف أنه كان على وشك الغرق.

قبل ثماني سنوات، وقتما طرح تشاي موضوع انتقال العائلة إلى هونغ كونغ للمرة الأولى، رفض والده رفضًا قاطعًا، إذ كان قد أنفق كامل حياته في سبيل مَعامله، ولم يكن ليسلمها ببساطة إلى الشيوعيين. أحسّ تشاي بأن سوك كون تختلف معه، لكنها لم تكن لتواجهَ حماها أبدًا، لذا لم يَزِد تشاي، إلى جانب أن والده كان يقول حقًّا، فقد كان من المبكر جدًّا معرفة ما يخطط له الحزب الحاكم الجديد؛ فعاد تشاي إلى هونغ كونغ واشترى المنزل بسرعة كي تحظى لولو بمساحة للترفيه. بعد سنتين، طبق الشيوعيون قيودًا متشددةً جدًّا، وأغلقوا الحدود بالضرورة، وبعد ذلك بسنتين توفي والده.

هاج الناس وماجوا في الطرف الآخر من قاعة الوصول؛ إذ اقتربت سفينةٌ سياحيةٌ نيّرةٌ ومهيبةٌ، كواحد من الفنادق الجديدة المطلّة على المرفأ، فتخلّف تشاي تاركًا موجة الحشود تجتازه، وجعل يحسدُ كل رجل وامرأة، فاغر العينين صادق الملامح، من مَن كانوا بلا شكٍ يقابلون مسافرًا شرعيًّا لا لاجئًا يسكن أسفل الرصيف.

أنزلت السفينة سُلّمها، وبدأ المسافرون الحقيقيون يتدفقون خارجًا مبتهجين ومرتاحين. بحث تشاي في وجوههم عن المختلفين بينهم، عن أولئك الذين بدوا معذَّبين ومُنهكين. كان ابنه في الثالثة عشرة تقريبًا، وابنته في التاسعة، وآخر الصور التي يملكها لهما كانا يبلغان فيها عدة أشهر. تساءل عما إذا كان ابنه، صغير الحجم بالنسبة إلى عمره؟ قد نما حتى صار بطول أمه على الأقل. وإذا ما كانت ملامح ابنته الذكورية – العينان الضيقتان والفك بارز العظام، التي قيل إنها ورثتها من خالته المتوفاة – قد رقّت بفعل البلوغ. بالكاد عرِف هذين الطفلين؛ فطوال هذه السنوات، كان غياب سان سان وليام ألمًا مستمرًا تافهًا في خاصرته، شيئًا بقي غير ملحوظ لفترات طويلة من الزمن، لكنه أحدث ذبحات من القلق والندم حينما دُل عليه.

على بُعد بضع خطوات، رفع رجلٌ غلامًا عاليًا في الجو وانفجر الغلام يبكي، وتعانق زوجان غربيان عناقًا عنيفًا إلى درجة أن تشاي أشاح بنظره. كانت لولو لتقول مطلقة ضحكةً مجلجلة شبيهة بصوت الجرس: «يا لك من متعصّب!». في الأسابيع الماضية، وبصرف النظر عن بضعة اهتياجات صغيرة ومفهومة، كانت مراعيةً وسخية، وساعدته في التحضير لوصول عائلته، وكان قد تعهّد لها مجددًا في الليلة السابقة أثناء التصاق واحدهما بالآخر في السرير، قائلًا: «لا شيء سيتغير يا عزيزتي».

خفّ دفق المسافرين وخفّ معه الحشد في قاعة الوصول. ثمة أمور كثيرة كان من الممكن أن تسير على غير ما يرام، فمن الممكن أن تصاريحهم قد سُرقت، أو فاتهم القارب، أو القِطار، أو العبَّارة، أو أرجعهم حرس الحدود، أو أسوأ من ذلك؛ أن يكونوا قد سجنوهم لجنايةٍ ما مجهولةٍ. يا لها من غلطة تعرّضت لها خطته المُغامرة! لعن تشاي نفسه لتأخره في التصرّف أكثر مما يجب، أم لعلّه قد تعجّل أكثر مما يجب؟

في السنوات التي تلَت وفاة والده، تزايد مزاج الحزب جنوحًا وتطرفًا أكثر فأكثر، ليبلغ أوجَه في تعذيب العم توماس، رفيق عمر والده، الذي أفضى إلى وفاته، فقوّى هذا، مقرونًا بالضغوط التي كانت عائلة أونغ تواجهها، والتي لم يكن بوسع سوك كون تفصيلها في رسالتها، من عزم تشاي على إخراج عائلته من الحدود بأي ثمن، لكن ماذا لو كان قد أخطأ في الحساب؟ ماذا لو كان قد اختار اللحظة الخاطئة للتصرّف؟

نقره شخص ما على كتفه، فالتفت تشاي ليجد فردًا من الطاقم ممسكًا بأحدث صورة له كان قد أرسلها لعائلته.

رفع الرجل الصورة قبالة وجه تشاي: «سيد أونغ؟»

تبعَ الرجلَ إلى الجانب البعيد من القاعة، حيث انكمش ثلاثيٌّ بملابسَ مجعدةٍ مبقعةٍ بالطين في الركن مع أمتعتهم.

قال تشاي بصوت متهدج: «ماما».

وعانق أمه، تواقًا إلى إطالة اللحظة قبل أن يُضطر إلى مواجهة زوجته وابنه. تبدّل لوحا كتفِ أمه بين ذراعيه، فقد بلغ الضعف بها أكثر مما يتذكر، وضغط بشفتيه على إكليل شعرها الآخذ بالنقص، متنشقًا الرائحة المسكيّة لفروة رأسها، وشعر بشكوكه تتلاشى.

قالت أمه: «انزع قبعتك بنيّ، ودعني أرى وجهك. يا إلهي، لقد نحُلت».

فقال تشاي ممررًا يده في شعره: «إنها نتيجة الإجهاد. الإجهاد والتقدم في السن».

بقيَت زوجته واقفةً في الخلف متمسّكة بالصبي، الذي لم يبلغ طوله بعدُ إلا أنفها.

لا بدّ أن تشاي قد تخيل هذا اللقاء مئة مرة على الأقل. ستكون زوجته مستحييةً في البداية، وستحمرّ وجنتاها وتخفض رأسها لتخفي ابتسامتها، مثلما فعلت قبل أربع عشرة سنة، حينما رأته ينتظر بجوار بوابة الكونسرفاتوار في ظهيرة لافحة تشبه هذه إلى حد بعيد.

لكن الطقس كان الثابت الوحيد، إذ لم يرَ أي أثر لطالبة المدرسة البهيجة رقيقة الصوت معسولة اللسان، في المرأة الواقفة بعيدًا عن متناول ذراعه. كانت جبهتها ذابلةً وشفتاها مشدودتيْن في ابتسامة تكاد تكون كشرةً، وتدلّى شعرها الذي كان لامعًا في الماضي في جناحين كثيفين بجوار ذقنها، وأراد أن يحضنها، لا بدافع الرغبة، بل بدافع الإشفاق.

في النهاية، بقيت ذراعاه على جانبيْه، وقال: «زوجتي!».

- زوجي!

- آملُ أن الرحلة لم تكن شاقةً جدًا.

- كانت جيدة.

طلبت الزوجة من الصبي أن يسلّم على والده، لكن ليام وقف في مكانه فاغر الفم.

فسأل تشاي وهو يربّت على ظهر الفتى: «ألا تتذكرني؟»

ابتعد الصبي عنه بحذر، وعيناه معلقتان على أمه.

فأخفى تشاي ارتباكه بسؤاله: «وأين الصغيرة؟»

ظل ليام يحدق إلى سوك كون: «لقد قلتِ إنه كان مريضًا إلى حدٍّ يمنعه من الخروج من السرير».

إذًا لم يخبرا الصبي. كان تشاي ليفعل المثل، وسأل مرةً أخرى: «أين الصغيرة؟»، لكن الزوجة والأم كانتا محملقتيْن بالصبي.

قالت سوك كون: «كان هذا الحل الوحيد أمامنا لنغادر يا بني».

وقالت بي كيم: «لقد رأيت ما حدث أثناء التفتيش. كذبنا لنُبقيك آمنًا».

سأل تشاي: «أين ابنتي؟»

فالتفتَ ثلاثتهم فجأةً، وظهرت لمعة ذُعرٍ في عينيْ الزوجة: «لقد أجبرونا على تركها هناك».

فرفع تشاي صوته كما لو كانت المشكلة أن الزوجة أساءت سمع السؤال: «ما الذي تتحدثين عنه؟ أين هي؟»

- لبضعة أيام فقط.

- من أجبركم على تركها؟

فقالت أمه: «إنه أمر مؤقت، فسيصدر تصريحها الأسبوعَ القادم».

وقالت سوك كون: «لقد حاولت كل شيء. لم يسمحوا لنا بإحضارها».

راحت بي كيم تُسهب بالحديث عن انتحار هيوا، واللوحة المهشّمة، والمفتشتيْن الحاقدتيْن، وقاطعتها سوك كون لتصف مدير مكتب الأمن الحقير، فخفق صدغا تشاي وانتزع ربطة عنقه بانفعال. كان هذا الاهتياج ليقتلهم كلهم.

قالت أمه: «لقد تجسست خادمتنا علينا وأبلغت السلطات، أيمكنك تخيّل شيء كهذا؟»

ضغط تشاي بأصابعه على صدغيه. سان سان ذات التسعة أعوام، وحيدة في الفيلا مع زوجين من الخدم اللذيْن تبيّن أنهما خائنان؟! لم يكن ذلك مفهومًا ولا معقولًا: «كيف تعرفان أن تصريحها سيصدر؟»

فخمَد وجه زوجته، وكاد تشاي يتمنى لو أنه لم يسأل.

فرددت والدته مثلما تردد المانترا: «لم يكن أمامنا خيار. كان ذلك التصرّف الصحيح الذي وجب فعله».

وقال الصبي: «أردت البقاء هناك. لمَ لم تتركاني أبقى؟»

راحت قبضات بالغة الصغر تخبط على الجدران الداخلية لجمجمة تشاي: «ماذا قال مدير مكتب الأمن؟»

فتكلم ثلاثتهم في آنٍ معًا.

«لقد وعدنا تقريبًا بالتصريح».

«إنه من أصدقاء تشين كونغ المقربين».

«كان عليَّ البقاء بدلًا عن سان سان».

«كل أعضاء الكادر فاسدون، ولن يرفض الرشوة».

لم يتمكن تشاي من التفكير بطريقة منطقية وواضحة، وكان عليه إخراجهم من هذه الصالة القائظة، فأشار لحمّال كي يتدبّر أمر الأمتعة وقال: «فلنذهب، ليس هذا المكان المناسب لنقاش الأمر». وانطلق وأسرعت عائلته خلفه وصارت أصواتهم غمغمة.

أمام الميناء، بدا صخب المدينة وكأنه يعاقبهم.

ساعد أمه على الركوب في المقعد الأمامي للسيارة، بينما استقر ليام وسوك كون في الخلف، ثم أولج المفتاح في المشغّل وضبط مكيّف الهواء على أقصى طاقته.

قالت أمه بصوت ثابت: «يا لها من سيارة جميلة يا تشاي!».

أيدتها سوك كون: «أأعجبتك سيارة أبيك يا بني؟»

كان الصبي صامتًا في البداية، ثم قال: «لم تُبلغ موي عن جدتي. أنا فعلتُ ذلك».

أوّل ما جذب انتباه تشاي كان صوت ليام الرقيق. ما زال صوت ابنه يبدو كصوت فتاة.

شهقت زوجته شهقةً حادةً: «ماذا تقول؟ لا، لن أصدق هذا».

وقالت أمه: «من أخبرتَ؟ كيف أمكنك فعلُ شيءٍ كهذا؟».

وعندئذٍ فقط استوعب تشاي اعتراف ابنه، وعدّل مرآة الرؤية الخلفية حتى التقطت نظرةَ الصبي الوقحة. من كان هذا الغريب الجالس في مقعد سيارته الخلفي؟ وأين تعلّم شرًا كهذا؟ أم أنه كان فطريًا بطريقة ما؟

قال ليام: «كان عليّ ذلك»، وتَلَا هامسًا: «أيًا كان من يقف إلى جانب الإمبريالية والإقطاعية والرأسمالية البيروقراطية هو...»

انحرف تشاي إلى جانب الطريق وداس على المكابح، فخبط الصبيّ بشدةٍ بمؤخر كرسي تشاي، ما أفقده القدرة على التنفّس، والتفّ تشاي لينظر في وجه ابنه مباشرةً: «إياك أن أسمعك تقتبس كلام ذاك النغل مرةً أخرَى. أنت أصغر وأغبى من أن تفهم أي شيء».

ارتعشت شفة الصبي السفلى، وأغمض عينيْه معتصرًا جفنيْه بشدة.

شعر تشاي أن زوجته وأمه يحثانه بصمتٍ على متابعة الكلام، على قول شيء مطمئنٍ ومحدود، فأعاد يديْه إلى المقود ورفع قدمه عن المكابح.

عند إشارة المرور، انتبه إلى وجهيْ زوجته وابنه الشاحبيْن في المرآة الخلفية، وكانت أمه بجواره شابكة يديها وكأنها عازمة على اعتصار كل قطرة حياة منها. كان طيف ابنته؛ تلك الحزمة الصغيرة المرحة مسطحة الوجه التي نادرًا ما بكت، تلك الطفلة متقدة الذكاء التي لم تُغفل عيناها اليقظتان شيئًا، يحوم حولهم جميعًا. وعندما انقلب ضوء الإشارة، انطلق مسرعًا، ومذعورًا مما قد فع

8

أخيرًا، وبعد أربع ساعاتٍ كاملة من وقوف سان سان وكوك في الطابور أمام مكتب الأمن، انزلق الباب منفتحًا، فوقفت سان سان على رؤوس أصابعها لتحظى برؤيةٍ أفضلَ لعضوة الكادر التي كانت حاملةً ملصقًا طويلًا ملفوفًا ودلوًا من الغراء، وارتفعت الأصوات على طول الطابور وعرضه:

«أرجوك أيتها الرفيقة، متى سيبدأ المدير بالمقابلات؟»

«أيتها الرفيقة، إنني أنتظر منذ السادسة صباحًا».

صاحت سان سان: «ونحن أيضًا».

«هذا لا شيء يُذكر؛ فنحن ننتظر منذ الرابعة!»

أدارت عضوة الكادر ظهرها لهم، ومدّت خطوطًا طويلة من الغراء على الباب وألصقت الملصق. اندفعت سان سان لترى من كثب، لكنها كانت أقصر من أن ترى من بين البالغين، فسألت وهي تجذب كُمّ كوك: «ماذا يقول؟ كم سيطول انتظارنا بعد؟»

تحركت شفتا كوك بينما راحت عيناه تمسح الملصق. كانت سان سان قد لاحظت مسبقًا تدنّي مهارات القراءة لديه، فشقت طريقها دافعةً الناس حتى صارت في مقدمة الحشد.

لن تُصدر تصاريح خروج من الآن وحتى نهاية شهر يونيو. سيفتح مكتب الأمن أبوابه للطلبات مجددًا في الأول من يوليو، 1957.

كانوا ما يزالون في نهاية شهر مايو، وقد لا يصمد والدها كل تلك المدة. لا شكّ أن مكتب الأمن سيمنحها استثناءً إذا ما أمكنها شرح كل شيء فقط، فشقّت طريقها عودة إلى كوك.

حكّ رأسه: «سنسأل أمك عما يجب فعله».

رغبتْ في صفعه حتى يصحوَ: «لا نملك الوقت لهذا».

وقع هرج ومرج في جانب القصر، وهرع رجل قصير جسيم ذو وجه عجينيٍّ وعينيْن خرزيّتيْن يحيط به حارسان مسرعًا إلى سيارة تنتظره.

فصاح عدةٌ وهم يجرون وراءه: «أيها الرفيق كوه»

«إن زوجتي مريضة!»

«أخي يُحتضر!»

«إنني أنتظر منذ شهور، عليك مساعدتي!»

لم تنضمَّ سان سان إليهم، فقد أدركت أن لا استثناء سيُمنح لها.

لوّح الحراس بهراواتهم ليبعدوا المطاردين، وانزلق الرجل الجسيم في السيارة التي انطلقت من فورها.

قال كوك: «ستعرف أمك ما الذي يجب فعله»، وكان كل ما فيه؛ من نظرته القلِقة المتنقّلة إلى وقفته المحدَودبة، يدل على عجزه.

تحوّل إحباط سان سان إلى احتقار، فكيف وسِع أمها أن تتركها مع رجل متلعثم عديم النفع كهذا؟ وكيف يمكن أن يُنتظر منه تحمّل مسؤولية أي شيء؟ إن كانت ستحصل على أيّ فرصة للوصول إلى هونغ كونغ في الوقت المناسب لرؤية والدها؛ فعليها أن تتدبّر ذلك بنفسها.

في اليوم التالي، وقبل قرع الجرس الأخير تمامًا، مسحت المعلمة لو أصابعها الملوّثة بالطبشور بمنديلها وأعلنت قائلةً: «لقد تلقيتم أيها الطلاب فرصةً ذهبيةً لشكر الفلاحين الذين ضحوا بالكثير من أجل بلادنا».

عرفت سان سان ما كان مُحدقًا، فغاصت في مقعدها.

«نحتاج في عطلة نهاية الأسبوع إلى متطوعين للمساعدة في مزرعة شاي في آنكسي».

آخِر مرة تطوعت سان سان وزملاؤها للمساعدة في معمل أقمشة في المدينة، قضوا ساعات يغسلون الأراضي وينظفون المراحيض، وظلّت سان سان أيامًا بعدها تفرك جلدها لتتخلص من رائحة المبيّض اللاذعة.

قالت المعلمة لو، واضعةً يدًا على قلبها كما لو أن العاطفة قد تغلبت عليها: «يا لكم من محظوظين! لتتمكنوا من رد جميل الناس الذين يُشكلون العمود الفقري لهذه الأمة العظيمة».

رفع زملاء سان سان أيديهم واحدًا تلو الآخر، وكتبت المعلمة لو أسماءهم على السبورة. جلست سان سان ساكنةً مثل تمثال، يحدوها أمل يائس في أن تسهو المعلمة لو عنها، وسرعان ما بقيت هي وستينكي[1]، مشاغب الصف الذي كان يعاني أيضًا من مشكلة غازات البطن، الوحيديْن اللذيْن لم يتطوعا بعد.

---

(1) ستينكي: كريه الرائحة، أو النتن.

سألت المعلمة لو: «هل من أحدٍ آخَر؟»

ركلت ليتل ريد[1]، رفيقة مقعد سان سان وأعز صديقاتها، إياها من تحت مقعدهما المشترك، فنكّست سان سان رأسها ورفعت يدها، وبعد ثانية استسلم ستينكي أيضًا.

صفّقت المعلمة لو بيديها: «مئة بالمئة نسبة المشاركة التطوعية مجددًا، وكما يقول قائدنا العظيم: يجب على التعليم والعمل المنتج أن يسيرا جنبًا إلى جنب. أراكم جميعًا غدًا في تمام الساعة الخامسة صباحًا».

صفعت سان سان ركبةَ ليتل ريد تحت مقعدهما صفعةً أقوى مما كانت تنتوي.

طَرفت ليتل ريد برموشها وتمتمت: «إن كان عليّ أن أعاني، فعليك ذلك أيضًا»، ولم تتمالك سان سان نفسها من الابتسام أمام ذلك.

في الصباح التالي، صعدت سان سان وزملاؤها على متن العبّارة إلى شيامن، حيث استقلوا الحافلة التي ستأخذهم إلى آنكسي. كانت الحافلة حارةً وصاخبةً وتفوح فيها أبخرة الديزل النتنة، لكن سان سان وجدت راحة غريبة في كل هذه الأجساد المتراصّة حولها، ذلك أنها لم تكن قد نامت كما يجب خلال الأيام الثلاث التي تلت رحيل عائلتها، والآن أسندت رأسها إلى النافذة وغطّت في النوم على الفور.

استيقظت لتجد يدها في يد ليتل ريد التي كانت تشخر بنعومة، وخارج نافذتها، كان الطريق المُسفلت العريض العاجّ بالدراجات الهوائية المتمايلة، والدراجات ثلاثية العجلات المطلقةِ زماميرَها، قد تقهقر أمام ممرٍّ جبليٍّ متعرج وفلاحين يمتطون الحمير، وعوضًا عن

(1) ليتل ريد: الحمراء الصغيرة.

الأبنية غير المكتملة المحتجبة بالسقالات، كان ثمة حقولٌ وارفةٌ تحزّ جانب التلّ المنحدر انحدارًا لطيفًا، وكل ذلك مستورٌ بستارة شاسعة من الضباب. أترعها هذا المشهد الغريب الجميل بالأمل، وعندما استفاقت ليتل ريد متثائبةً، قالت سان سان: «لن يكون الأمر سيئًا كالمرة الماضية، سترين».

رحّب بالطلاب رجلٌ عجوزٌ ذو وجه خشن وأظافر مُسوّدة بدت وكأنها مغطّاةٌ بطبقة من الدماء، لكنه فسّر أنها مُبقّعة بفعل الشاي. قادهم عبر تربة كثيفة تكاد تكون سوداءَ، مرورًا بفلاحين مُنكبّين على شجيرات الشاي مثل مشهد خارج من ملصق دعائي. ابتسم واحد من الفلاحين لسان سان ابتسامةً عريضةً كشفت عن فمٍ مُفزِعٍ ممتلئٍ بالأسنان المشوّهة البُنّية التي لا تشبه الابتسامات البراقة الناصعة لفلاحِي الملصق في شيء.

توقفوا عند عنبر بسيط أمامه بضعة حمير هزيلة متكاسلة.

قال العجوز: «والآن أيها الطلاب، ستكون مهمتكم نقل روث الحمير لتسميد الشجيرات».

التفتت سان سان إلى ليتل ريد حانقةً، لكن منظر ذقن صديقتها المرتعش أسكتها، فهمست: «لا تحزني»، ثم منحت ليتل ريد لُقيمةَ معرفةٍ لم تكن تعرفُ أنها تحوزها: «إن روث الحمير أقل نتانة من روث البشر بكثير».

فضحكت ليتل ريد تحت دموعها وشاركتها سان سان الضحك، ما جعل المعلمة لو تحدجهما بنظرة صارمة.

أخذهم العجوز إلى حفرة عميقة عند الجزء الجانبي من البناء، لكن رائحة الصُّنَّة داهمت وجوههم مباشرةً، فتحوّلت سان سان إلى التنفس

عبر فمها، وكانت ليتل ريد لطيفةً بما يكفي لألّا تشير إلى خطئها السابق. طُلب منهم أن يصطفوا ليتسلّموا قائمات عِتالة مثبّت على طرفيْ كل منها دلو. سحجت قائمة سان سان كتفيْها على الفور، وخلال بضع خطوات، شعرت بتقرحات تصيب جلدها، وحاولت تعديل القائمة لكنها لم تنجح إلا في دلق نصف دلو من الروث على جانب بنطالها. أصابتها اللزوجة الرطبة بالإعياء، وظلت تتنفس من فمها؛ لكن الصَّنَّة غطّت لسانها والجزء الداخلي من حلقها حتى كادت تشعر بطعمها، فوضعت دلويْها يائسة.

تجاوزها زملاؤها يسيرون بمشقة أقلّ منها بكثير، وحتى ليتل ريد كانت تسبقها بعدة خطوات، فاستجمعت سان سان طاقتها ورفعت القائمةَ على كتفيْها مجددًا، حريصةً على ألا تبعثر محتويات الدلويْن. شعرت آنذاك بعطسة هائلة تُراودها ووضعت دلويها بسرعة، فقد كانت تعجز عن التوقف حالما تبدأ بالعطاس. صارت عيناها تحكانها وتدمعان، فاستنجدت بكامل قوة إرادتها حتى لا تفركهما بيديْها القذرتيْن، وسحبت منديل جدتها من جيبها بإصبعين ونفّت فيه، ثم راحت تحدّق إلى القماشة الملوثة بالتراب وتشعر بتأنيب الضمير.

كانت المعلمة لو قادمة باتجاهها واضعة يديها على وركيها.

فشرحت لها سان سان، مرددةً العبارة التي كانت أمها تستخدمها: «إنه جهازي المناعي. أُصاب بالزكام طوال الوقت».

«لقد صار زملاؤك في دورتهم الثانية بالفعل»، رفعت المعلمة لو القائمة مجددًا على كتفي سان سان وذهبت لتتابع ستينكي الذي كان متخلفًا في المؤخرة أيضًا.

رغم الألم الذي امتدّ من عنقها وكتفيها حتى أسفل ظهرها، تمكنت سان سان بطريقة ما من الوصول إلى صف الشجيرات، وأفرغت ما بقي في دلويها ثم عادت إلى الحفرة لتبدأ من جديد.

استمر أنفها بالسيلان على امتداد كل الجولات، وكانت تُضطر إلى التوقف كل بضع خطوات لتنفّ في منديل جدتها، لكنها صارت تدفع نفسها إلى الأمام بتخيُّل والدها ممددًا على فراش الموت عاجزًا عن الحركة أو تناول الطعام، فكيف لها أن تتذمر بينما يعاني تلك المعاناة؟ وضعت دلويها وعطست ثلاث مرات.

ظهرت المعلمة لو بجوارها وقالت بنبرة لطيفة على نحو مفاجئ: «لقد شارف وقت الغداء، اذهبي واستريحي قليلًا»، وأشارت إلى قاعة الطعام الجماعية حيث سيتناولون وجبة الظهيرة.

مشَت سان سان مجهدةً في الاتجاه الذي أشارت إليه المعلمة، وكافحت لإخفاء غبطتها، فبحلول ذلك الوقت كانت الشمس قد حشدت حرارةً تكفي لتُحرق عبر الضباب، وكانت سان سان حرّانةً.

في قاعة الطعام، أعطتها شابة لها خطوط عميقة متفرّعة من زاويتي عينيها، كوبًا معدنيًا من الماء، فشربته بشراهة ثم عادت إلى الخارج ووجدت لنفسها بقعة ظليلة تحت شجرة أكاسيا.

مرّ من جانبها رجلان قصيران بدينان يدفعان عربة فيها دستة مرتفعة من ألواح التحميل الممتلئة بأوراق الشاي.

وسأل أحدهما، مشيرًا إلى واحدة من شاحنتيْن مركونتيْن على بُعد عدة أمتار: «تلك؟»

فقال الثاني: «نعم، الذاهبة إلى هونغ كونغ».

بسطت سان سان ظهرها على جذع الشجرة وراحت تنصت إلى الرجلين منتظرةً أن يسهبا في الكلام، لكنهما لم يفعلا إلا النخر والإشارة بينما كانا ينقلان ألواح التحميل إلى سرير الشاحنة. رأت أن أمر تأجيل تصاريح الخروج كان ساريًا على البشر فقط، بينما كانت البضائع تعبر الحدود بحُرية، فتخيّلت متجر شاي فاخر في هونغ كونغ، ترتفع فيه علب من الأوراق اللاذعة حتى السقف، ثم تدخل أمها وتشير إلى علبة تضم الأوراق ذاتها التي عملت سان سان على تسميدها، وتعود إلى جوار سرير أبيها حاملةً ذاك الشاي المخمّر الشذيّ، وتنفخ عليه بلينٍ قبل أن تميل الكأس على شفتيه الشاحبتيْن المُقشّبتَين، وكلاهما غافل عن السلسلة التي تعود بهما إلى ابنتهما الغائبة.

عرفت سان سان أن عليها التصرف، وعندما دفع الرجلان بالعربة الفارغة بعيدًا، تأكدت أنها وحدها ثم تسلقت إلى سرير الشاحنة، لكن الألواح كانت مرصوصةً بإحكام شديد لم يُبقِ مكانًا للاختباء، فقفزت من سرير الشاحنة ودخلت مسرعةً عبر باب الراكب إلى المقصورة، حيث انطوَت على نفسها في المساحة الواقعة تحت لوحة القيادة.

عاد رجل آخر ليحصي الألواح ويتأكد من كونها مكدّسة كما يجب، لكنها كانت قد توارت عن الأنظار. لاحقًا – وعلى أمل ألا يكون لاحقًا أكثر مما ينبغي – عندما يدخل السائق الشاحنة، سيتعين على سان سان أن تقنعه بأخذها معه. صلّت كي يصل سريعًا قبل أن يلاحظ أي شخص غيابها، وكانت ستقول بهدوء لكن بحزم: «أرجوك، اسمعني فقط، إن أبي يُحتضر في هونغ كونغ، واضُطرت عائلتي إلى الرحيل من دوني. والدي رجل ثري وسيمنحك مكافأة مجزية إن أوصلتني إليه».

راح زملاؤها ينادونها من بعيد، فانكمشت على نفسها بإحكام فوق أرضية الشاحنة. ميّزت صوت ليتل ريد من بين الأصوات الهاتفة

وتمنت لو أمكنها إخبارها عن خُطتها لتُجنِّبها القلق، وفكّرت سان سان بكل الآخرين الذين سيقلقون: كوك وموي، والخالة روز. سيكون عليها الكتابة إليهم بمجرد وصولها إلى هونغ كونغ، وربما يكون لدى السائق ورقة وقلم فيمكنها كتابة الرسالة في طريقها إلى هناك وإعطاؤه إياها ليرسلها بالبريد وقتما يرجع إلى آنكسي. ترى ألديهم خدمة بريد في الريف؟

تعالَت الصيحات المنادية باسمها، وسال أنفها مجددًا، فمسحت منخريها بطرف منديلها، وعصفت نفخة ريح عبر النافذة المفتوحة، فشعرت بجوفها يتقلص ثم اندفعت العطسة منها: «آتشو! آتشو! آتشو!».

تأرجح باب الراكب منفتحًا، وارتطم رأس سان سان بلوحة القيادة وهي تجلس: «آتشو!».

صاح أحدهم: «إنها هنا، لقد وجدتها. ها هيَ الشقيّة الصغيرة».

جرّ زوج من الأيدي المتصلبة سان سان خارج الشاحنة، وعندما لمست قدماها التراب، تلوّت ساقاها وتشبثت بالذراع الغريب.

كانت الذراع لامرأة قصيرة قوية ممتلئة الجسم لها وجه عريض مسطح: «أيتها الدودة الكسولة، أيتها الفتاة الرذيلة، الجميع يبحث عنك، وقد أعيى القلق معلمتك».

التفّت سان سان لتواجه عيني المرأة وتوسّلت إليها: «اسمعيني فقط أرجوك»، لكن معلمتها كانت تركض قادمةً بالفعل.

انهمرت قطرات من العرق على وجه المعلمة لو، وانحنَت إلى الأمام متكئة براحتيها على ركبتيها، وعندما التقطت أنفاسها أمسكت سان سان من ياقة قميصها وجرتها إلى الحافلة.

قالت سان سان: «إنني آسفة يا آنسة، لقد شعرت بالإعياء والإجهاد إلى درجة أني لم أرِد إلا الاستراحة لبعض الوقت»؛ فآخر ما كانت ترغب فيه هو كشف دافعها الحقيقي.

قالت المعلمة لو: «انتظري هنا»، وقالت لسائق الباص: «لا تدعها تغيب عن ناظريك».

أشعل السائق سيجارة ورفع صوت الراديو الصغير خاصته، وبقي متجاهلًا سان سان إلا ليسألها: «لم عساكِ تفعلين شيئًا غبيًا كهذا؟»

جعل الزجاج الأمامي المتسخ للباص السماء الصافية تبدو بلون الضباب.

قالت سان سان: «لأنني غبية كما أظن».

بعد مدة قصيرة، ترائل زملاؤها للصعود إلى الحافلة، وصاروا يضحكون على سان سان ويهزأون بها بوجوههم، كلهم إلا ليتل ريد، التي بقيت تنظر إلى الأمام مباشرة ومشت متجاوزةً إياها.

صعدت المعلمة لو أخيرًا وجلست بجوار سان سان، ثم قرصت ذراعها وقالت بصوت عالٍ بما يكفي ليسمع كل من في الحافلة: «أيتها البيضة المتعفنة! إنك في مأزق أكبر من قدرتك على التخيُّل حتى».

ضحك زملاء سان سان ضحكة مكتومة، ونكسَت هي رأسها.

قالت المعلمة لو: «إنك وقحة حقًا! تتملصين من العمل بينما نُقعت أقمصة بقية زملائك بالعرق!».

أدركت سان سان أنها نجحت في إقناع معلمتها بأن الكسل كان جريمتها الوحيدة: «آسفة يا آنسة. لقد فهمت كيف تسببت أنانيتي بالمعاناة لأصدقائي، أعدك بأن أصلح سلوكي السيء»، ولم تجرؤ على اختلاس نظرة لتُقيِّم استجابة معلمتها.

9

في كل صباح، كانت سوك كون تُبدل لباس نومها وتهرع إلى الطابق السفلي لتنظر في صندوق البريد، على الرغم من معرفتها أن الوقت ما زال مبكرًا على وصول رسالة من الفيلا الماسية.

أقنعت نفسها بأن المدير سيفي بوعده، لكنها قضت أيامها تذرع جزيرة هونغ كونغ وأجزاء من كولون بحثًا عن أي شخصٍ قد يكون قادرًا على تحسين فرصة سان سان في عبور الحدود سالمةً، من باب الاحتياط فقط. وصلت في تمام الساعة التاسعة إلى مكاتب المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين في شارع الملكة فيكتوريا، وحينما أعلنت موظفة الاستقبال اللامبالية مجددًا أنه لا توجد مواعيد متاحة، اتخذت سوك كون مجلسًا على الكنبة المتكتّلة المواجهة لمكتب الاستقبال تمامًا في حال أُلغي موعد ما، وبعد الظهر، خاضت في الشوارع النتنة الفوضوية لتزور المراكز المجتمعية التي كانت تظهر في كافة أرجاء المستعمرة لتلبيَ احتياجات الوافدين الجدد من المهاجرين واللاجئين، وعند المساء، كتبت إلى ابنتها رسالةً مرِحة جذلة تصف فيها شقتهم في الطابق السابع في البناء المهيب الأطول من أي بناء على

جزيرة درَم ويف، والأسدال الورديّة الشفافة والسرير المقبب في غرفة سان سان الجديدة، والبيانو الصغير من طراز برودوود الذي لن يمسّه أحد حتى تصل، وكانت تختم كل رسالة بوعد أن بابا سيصمد حتى تصير سان سان بجواره.

لم يتكلل أي من جهود سوك كون لابتكار خطة بديلة بالنجاح، فلم تتمكن من لقاء المفوض السامي للأمم المتحدة ولا حتى موظفًا أقل مرتبة، وأُهملت المناشدات المكتوبة التي تركتها عند مكتب الاستقبال، هذا إن أزعجت الفتاة نفسها بتمريرها حتى بدلًا عن قذفها إلى سلة المهملات بعد أن تدير سوك كون ظهرها. في آخر زيارة لها إلى مركزٍ مجتمعيٍّ في الجانب القصيّ من البلدة، تحدثت سوك كون مع رجلٍ غاضب كان قد سبحَ لست ساعات من غواندونغ إلى هونغ كونغ، متفاديًا بطريقة ما الحراس الذين يحرسون ساحل كولون الصخري وكلابهم الوحشية، لكن تلك المعلومة لم تكن نافعةً لسوك كون، فمهما كانت سان سان سباحة قوية، لن تتمكن بأي حال من إنجاز مأثرة كهذه.

ثم في اليوم العاشر، وصلت رسالة من كوك أخيرًا، كتب فيها بخربشته الطفولية المرتعشة: *لا تصاريح خروج حتى يوليو*، وكانت رسالة مُلحّة إلى حد أنه لم يهدر وقتًا في البحث عن كاتب رسائل محترف.

لأول مرة منذ أن وطئت قدمُها المستعمرة، وجدت سوك كون نفسها في حالة خسارة تامة ومطلقة، فاندفعت عبر الردهة إلى غرفتها تلافيًا لأسئلة حماتها وابنها الحتمية. ستنتهي صلاحية تصريح خروجها خلال أربعة أيام، وسيؤكد الحزب ما كان أعضاء كادره يشتبهون به حتمًا لكنهم لم يجاهروا به قط، وهو أن عائلة أونغ قد غادرت من دون رجعة. في أربعة أيام، وبصرف النظر عن الكذبات التي ستدرجها سوك كون في ظرفٍ آخرَ مُرسَلٍ إلى الفيلا الماسية، ستقترب ابنتها الذكية خطوة

من الحقيقة، وأسوأ ما في الأمر أن الرفيق كوه سيوَبِّخ على سوء حكمه، وستهوي فرص سان سان بالحصول على تصريح، إلى الصفر.

أطلقت بي كيم سلسلة من السعلات في الغرفة المجاورة، وتناولت سوك كون محفظتها وقبعتها القشيّة وغادرت الشقة، منتوية فعل أي شي من شأنه تأخير إعطائهم الرسالة، أي شيء لتأجيل المحادثة التي تلي ذلك مع ابنها حول ضرورة الصبر ورباطة الجأش.

أخفضت سوك كون حافة قبعتها في الشارع واحتارت إلى أين تذهب، وعندما اقتربت من متجر المؤن في نهاية المربع السكني، أبطأت سيرها ودلفت إليه. أبقَت مروحة كهربائية صاخبة موضوعة على طاولة البيع المتجرَ باردًا نسبيًا، وملأت منخريها الرائحة العفنة للخوخ الحامض المجفف في شُوال ضخم من الخيش على الأرضية الإسمنتية.

بعد أن حيّت المالكةَ الجالسة خلف طاولة البيع، اكتشفت سوك كون صناديق حلوى متراصفة على الجدار الخلفي: سكاكر بنكهة الفواكه مغلفة بسولوفان ملوّن، وشوكولاتة الحليب المصنوعة على شكل عملات ذهبية، فتخيلت ابنتها تمزّق غلاف صندوق وتزعق ابتهاجًا بينما تنهمر الحلويات على حجرها، وملأت كيسين ورقيين ثم أخذتهما إلى طاولة البيع.

قالت المالكة: «كم كبير من الحلويات! أتقيمين حفلةً؟»، فأظهرت سوك كون شبه ابتسامة وأعطتها المال. سيكون الصندوق الذي سترسله إلى سان سان طافحًا بالحلويات، لذا سيبقى وفرة منها حتى بعد أن يصادر الرقباء حصتهم. ثم رأت ابنتها تنبش في الصندوق بحثًا عن الرسالة التي تتضمن أخبارًا عن تأخر العائلة الغامض. رأت ابنتها تشهق وكبرياؤها يمنعها من البكاء، فسرى الاشمئزاز عبرها وتقززت من نفسها. كيف أمكنها إهانة ابنتها بحيلة رخيصة وواضحة كهذه؟

كيف تجرؤ حتى على التفكير في اقتراح أن بعض الحلويات يمكن أن تعوّض ما اقترفت؟

عندما حملت سوك كون طفلتها للمرة الأولى بين ذراعيها، قبّلت وجنتها الحريرية الشفيفة وقطعت وعدًا صامتًا: في منزلها على الأقل، ستتلقى ابنتها وابنها المعاملة نفسها، بصرف النظر عما يمنحه العالم الخارجي لاحقًا أو يحجبه، ومع ذلك، بينما أخذت سان سان بالنمو، تآكلت سوك كون قلقًا حول شكلها الأبطح، ولم يسعها منع نفسها من ذلك ببساطة. قيل إن ابنتها تشبه أخت بي كيم الراحلة – التي لم تُفسَّر وفاتُها تفسيرًا وافيًا قط – في حين ضاعت بشرة سوك كون البهيّة وعيناها المستديرتيْن سدًى على ابنها، وبدأت بالتساؤل عما إذا كانت تُقيد ابنتها بفشلها في تحضيرها للحياة بعيدًا عن المنزل. في عمر العاشرة، توقف ليام عن حضور دروس البيانو، وأعلنت سان سان ذات الأعوام السبعة، التي كان مسموحًا لها حتى ذاك الوقت بفعل كل ما يفعله أخوها، أنها ستتوقف أيضًا، لكن ابنتها كان تتمتع بموهبة حقيقية، وعندما منعتها سوك كون من التخلي عن دروس البيانو، ركلت مزهرية ملؤها أغصان الصفصاف الهرّي وأوقعتها، وواجهت سوك كون من دون رحمة، وفي موجة غضب قالت لها سوك كون: «لستِ على أقل قدر من الجمال، لذا أملك الوحيد هو تحصيل مهارات أخرَى والدعاء كي يتزوجك شخص ما»، فركضت ابنتها والدموع تنهمر من عينيها، وغطت سوك كون فمها بيديها مذعورةً من القباحة التي تدفقت منها، قباحة ظلّت تتقيّح في أعمق وأحلك بواطنها، على الرغم من نواياها الطيبة.

توقفت قليلًا على الرصيف في الخارج، وقد تركتها مشاعرها في حالة من الغثيان. أعليها رمي الحلويات أم إعطاؤها للمتشرد الذي رأته عدة مرات راقدًا في مداخل البيوت؟

نادى صاحب كشك الصحف في الركن: «كيف حالك يا سيدة أونغ؟»

فالتفتتْ على مضض: «بخير، شكرًا لك سيد تشيونغ، كيف حالك أنت؟»

«ليس سيئًا، ليس سيئًا».

كان ثمة صحيفة مصغرة منبسطة أمام العجوز، وجذب العنوان الرئيسي في أعلى الصفحة انتباه سوك كون: «رجل أعمال يفر بمساعدة مسيحيين متخفّين»، فاقتربت خطوة وسألت: «ألديك واحدة أخرى من هذه؟»

أشار إلى رف قريب منه عليه ست نسخ، فحشرت سوك كون نسخة تحت إبطها ودفعت بعملة له، وبعد لحظة من التفكير، وضعت الأكياس الورقية على طاولة البيع وقالت: «هذه لأحفادك»، وحثت خطواتها في الشارع متجاهلةً احتجاجات العجوز المهذبة.

راحت تقلب الصحيفة بسرعة وتوتّر أمام البناء بحثًا عن العنوان الرئيسي. وفقًا للمقال، فقد عمل مسيحيون متخفون متمركزون في بقاع مختلفة على امتداد البر الرئيسي على نحو وثيق مع كنائس هونغ كونغ على إخراج رجل الأعمال الشانغهايانيّ هذا من الحدود. استغرقت الرحلة المفجعة قرابة الشهر، وحينما وصل رجل الأعمال أخيرًا إلى عتبة باب عائلته في هونغ كونغ، كان مُجرّحًا وضعيفًا إلى درجة أنهم ظنوه متسوّلًا.

قبل يوم واحد فقط، أي قبل وصول رسالة كوك، كانت سوك كون لتتجاهل المقال، أما الآن فقد سيطر عليها يأسها، وأخذت تبحث في النص عن اسم أو تفصيل لتتمسّك به، لكن رجل الأعمال كان معتزمًا حماية هويات كل الذين ساعدوه على البر الرئيسي.

عند نهاية المقال تقريبًا، رأت سوك كون اقتباسًا لكلام أبٍ اسمه ليونغ من كاتدرائية القديس يوحنا في المنطقة المركزية لهونغ كونغ، ورغم أنه لم يعلق على انخراط كنيسته في مهمات إنقاذ مثل هذه، قال: «من واجبنا باعتبارنا أتباعًا للمسيح أن نغيث المظلومين بأيٍّ طريقة نقدر عليها».

استدارت سوك كون إلى الاتجاه الآخر ولوّحت لسيارة أجرة تتأرجح عبر الشارع.

بعد دقائق، وقفت على الأراضي المسالمة الظليلة للكنيسة الإنجليزية القوطية البسيطة على نحو أنيق، وبالكاد أمكنها التصديق أن جنون وسط المدينة كان يبعد خطوات فقط.

في الداخل، كان صحن الكنيسة عالي السقفِ خاليًا، وهو أمر متوقع في يوم اثنين. وفي الأعلى، كانت النوافذ المزججة بزجاج ملوّن تتلألأ مثل مجوهرات ثمينة، ببهرجةٍ تتفوق بمراحل على تلك التي تزيّن الكنيسة الصغيرة في مدرسة سوك كون الثانوية التبشيرية. تجاوزت صفوفًا من المقاعد الفارغة، متسائلةً أين عساها تجد هذا الأب المدعو ليونغ.

توقفت فجأة مع دنوّها من المذبح، إذ كان ثمة امرأة ضئيلة الحجم راكعة على ركبتيها ومنطوية على نفسها في مقعد من الصف الثاني، وكان رأسها المُطأطأ محجوبًا بقبعة هائلة عريضة الحافة.

تراجعت سوك كون بهدوء، لكن المرأة استدارت وفتحت عينًا واحدة: «أيمكنني مساعدتك؟»

فشرحت لها سوك كون بلغة كانتونية متكلّفةٍ سبب مجيئها.

فقالت المرأة: «لا يعمل القساوسة في أيام الاثنين أبدًا. سيتعيّن عليكِ القدوم غدًا».

هبطت معنويات سوك كون إلى الأرض. لم تكُن قد صلَّت منذ الثانوية، وحتى آنذاك، بدت الآيات التي كانوا يرتلونها جماعةً في الكنيسة الصباحية لعبةً تشبه الأناشيد الغنائية التي ملأ صداها ساحات اللعب. ومع ذلك، رفعت رأسها وأرسلت دعواها إلى السماوات: *أرجوك، أرجوك، أرجوك*، ومنعتها آمالها ورغباتها الجمّة من الإسهاب.

وجّهت المرأةُ سوك كون إلى مكتب الكنيسة، حيث يمكن للسكرتيرة مساعدتها، فقدمت سوك كون نفسها إلى شابة ترتدي نظارة طبية من طراز عين القطة، والتي تصفّحت مجلدًا ضخمًا جلديّ الغلاف قبل أن تُعلن أنها ستضطر إلى العودة في نهاية الأسبوع.

أولًا مكتب المفوض السامي للأمم المتحدة، والآن هذا، فقالت: «أرجوكِ، لا يمكنني الانتظار كل هذه المدة».

قالت الشابة، التي بدت متأسفةً بحقٍ على عكس موظفة استقبال المفوضية: «إنني آسفة يا سيدتي، فالأب ليونغ مشغول أشد الانشغال».

تأرجح الباب الذي دخلت منه سوك كون قبل لحظات وفُتح ليدخل رجل طويل مُهندَم.

عدّلت الشابة نظارتها وقالت: «أوه، هذا أنت!».

لم تُقابل سوك كون من القساوسة إلا أولئك القادمين من زمن آخرَ بأغطيةِ رؤوسهم وأثوابهم المضحكة، لكن هذا الرجل بدا أقرب إلى محاسبٍ أو معلمٍ بسترته وبنطاله الضيق.

قال: «أعدكِ بأنني سأبقى بعيدًا لأربع وعشرين ساعة على الأقل في يوم من هذه الأيام».

أفلحَت صلاة سوك كون بطريقة ما، فبدأت الكلام، شاعرة بالأسى على لغتها الكانتونية السيئة: «آسفة على تطفّلي يا أبتي. أحتاج إلى المساعدة حقًّا، بصدق! وقد رأيتك في الصحيفة».

ذابت الابتسامة عن وجه القس.

وقالت الشابة: «لقد أخبرتها أن أقرب موعد في نهاية الأسبوع».

فقال القس: «لا بأس بذلك. لمَ لا نتكلم في مكتبي سيدة...؟» ونظر إلى سوك كون نظرة استفهام.

«اسم زوجي أونغ».

«تعالي معي سيدة أونغ»، وأدخلها إلى غرفة أنيقة، مبطنة بالكتب من الأرض إلى السقف، وعندما خلع قبعته رأت أن شعره القصير فضيٌّ على الرغم من وجهه الناعم نعومة صبيانيّة.

فقالت سوك كون: «ابنتي في البر الرئيسي، عليّ أن أنقذها».

أراحها أن القسّ صار يتكلم الصينية المندرينية: «في أي جزء من البر الرئيسي؟»

«في جزيرة درَم ويف قبالة ساحل شيامن، وإن وقتي يكاد ينفد». خرجت قصة سوك كون متدفقة من فمها، وبينما سردت تفاصيل مِحنة سان سان، وصل القس بين رؤوس أصابعه وراح ينصت لها دون أن يقاطعها أو يستعجلها على الإطلاق.

ومع ذلك، شكّت سوك كون أنه يحكم عليها، فهو إنسان رغم كل شيء: «أقسم المدير أن الأمر سيستغرق بضعة أيام فقط، لم أكن لأغادر مطلقًا لولا ذلك».

قرّب الأب ليونغ أصابعه الموصولة من شفتيه: «وتقولين إنها في التاسعة فقط!»، ولم يبدُ متفائلًا.

«لكنها ذكية وناضجة جدًّا بالنسبة إلى سِنها».

فقال: «من دون شك، لكنها عملية عالية الخطورة، ولم ننقذ طفلًا وحيدًا من قبل».

«لكنكم أنقذتم آخرين».

فأومأ القس إيماءة لا تكاد تُلحظ.

قالت سوك كون: «عليك أن تساعدني. ليس لديّ غيرك ألجأ إليه».

رفع القس راحتيه وأشار لها أن تبقى هادئة: «لستُ أستبعد الأمر».

كافحت سوك كون رغبتها بإلقاء نفسها عند قدميه امتنانًا: «أخبرني بما يتعيّن علينا فعله».

شرح الأب ليونغ الخطة: ستوفّر سوك كون مبلغًا من المال يستخدمه معارفه في البر الرئيسي ليدفعوا لسائق شاحنة يعبر الحدود بانتظام مالئًا سرير شاحنته بالخضار والجذور الطبية والمنسوجات وأنواع الشاي، أي بضائع جسيمة يمكنها تخبئة جسد بشري.

قال القس: «سأكون في غاية الوضوح: لا توجد أيُّ ضمانات، وإذا ما اكتُشفت ابنتكِ...» ولم يتابع كلامه.

فحدقت سوك كون إليه، راغبةً في نفس الوقت أن يهمل الفكرة ويواصل الكلام.

«إذا ما اكتُشفت ابنتك سيكون العقاب قاسيًا».

فقالت سوك كون: «أدرك ذلك»، رغم معرفتها أنها ستفقد صوابها إن سمحت لنفسها بدراسة المخاطر المحتملة التي تنتظر سان سان.

التقت عيناه بعينيها: «لقد خضتُ هذه الرحلة عشرة مرات على الأقل، ويمكنني أن أقول لك إنها لو كانت ابنتي، فلستُ متأكدًا أنني كنتُ لأمضي في هذا».

اندلع حنق سوك كون من داخلها، فما أسهلَ أن يقول هذا وأطفاله آمنون في المنزل، وقصفت قائلة: «أقدّر صراحتك».

ابتسم لها ابتسامةً حزينةً، وندمتْ على احتدامها، فأخذت نفَسًا عميقًا لتهدئ من روعها وسألته من باب الدردشة: «وكم طفلًا لديك؟»

فقال ببساطة: «ولا طفلًا؛ إذ لم يكن بوسع زوجتي - زوجتي الراحلة - الإنجاب».

تحسّرت سوك كون على السؤال وتمنّت لو تتراجع عنه، لكن لم يبدُ أن القس قد أخذه عليها. تناول مفكّرته وكتبَ شيئًا عليها، ثم مزّق الورقة وطواها من منتصفها وأعطاها لسوك كون: «كل المبلغ يذهب للمُهرّبين، ولا تضع الكنيسة شيئًا في جيبها. تكلمي في الأمر مع زوجك».

متجاهلة تهذيبها، فردَت سوك كون الورقة، ونشف ريقها عند مرأى صف الأرقام الطويل. أجرَت الحسابات محولة دولارات هونغ كونغ إلى اليوان، لكن المبلغ ظل فلكيًا، فأعادت طيَّ الورقة، جارّةً إبهامها على الثنية، ووضعتها في حقيبتها: «سأجيبك بحلول الغد».

«فقط اطلبي من سكرتيرتي أن تُعلمني بقدومك»، وتغضن الجلد حول عينيه حين ابتسم.

تساءلت عن شعور زوجة الأب ليونغ الراحلة حول مخاطرته بحياته في مهمات تَجاوز الحدود هذه. أتراهما أنقذا أناسًا معًا؟ أكان شيئًا تولاه بعد وفاتها ليملأ الخواء في قلبه؟

قالت: «لا يسعني شكرك كفايةً يا أبتي».

«وستكونين في الصلاة يوم الأحد؟»

وجدت سوك كون نفسها تومئ برأسها، عاجزةً عن رفض طلب الرجل الذي كان أملها الوحيد.

10

دنا سائقه من المدخل الدائري للمبنى الشُقَقي، وأرسل تشاي نظره من نافذة مقعد الراكب. كان تصميمه القائم على أسس طراز الفنون الجميلة المُرمم بإتقان شديد بقوسه الشامخ وبابه المحاط بالأعمدة يذكّر بمدخل جامعة مهمة أو بناء حكومي.

عندما وصلت عائلته منذ أسبوع ونصف، كانوا محترسين احتراسًا مفهومًا، ذلك أن أثرياء الجزيرة لم يعيشوا في أبنية سكنية شاهقة، وبالمقارنة مع عمارة الفيلا الماسية المبهرجة – المبالغ بها في رأيه – لا بدّ أن هذا البناء بدا بسيطًا جدًا، وقاسيًا جدًّا، وباردًا جدًّا.

مدّت والدته عنقها لترى كامل طول المبنى وسألت: «كم طابقًا لنا؟»

فأجاب تشاي كابحًا انزعاجه: «واحد فقط يا أمي. سيكون أصغر من الفيلا، لكنكم ستحظون بمتّسع من المساحة رغم ذلك».

رأى بطرفِ عينه وجه زوجته يشحُب، وتمنى لو أنه جاوب على السؤال ببساطة.

عندما دخلوا البهو الفسيح المكسو بالألواح الخشبية، وتوقفوا قليلًا أمام صفٍّ سامقٍ من زنابق مراقب النجوم المُضاءة مثل منحوتة بضوء

الثريا المتلألئة، رأى إعجابهم باديًا كما يجب. لن يعرفوا أبدًا كم هم مدينون للولو، فهي من استخدمت معارف قريبها لتؤمّن شقة في هذا الحيّ الاستثنائي، وهي من انتقى الأثاث وعيّن طاقم موظّفي المنزل.

وكيف كان يعبّر لها عن امتنانه؟ بالاستئذان بالغياب عن الالتزامات الاجتماعية والعودة متأخرًا إلى المنزل. كان معها كل الحق بالاستياء عندما هاتفها قبل ساعة ليخبرها بأنه لن يتمكن من ملاقاتها في مطعم باريجان غريل رغم كل شيء.

صاحت لولو عبر الهاتف: «خذ راحتك وأهملني، يمكنني تحمّل ذلك، لكن ماذا حين تجيء ماريغولد؟ أستُهملها لصالح أطفالك *الحقيقيين*؟»، كانت لولو مقتنعة أنها حامل ببنت، وكانت قد اختبرت بقية الأسماء الإنجليزية الأسطورية مثل غويندولين وإيزابيلا واستبعدتها بالفعل.

بمَ كان بوسعه أن يرد على هذا؟ كان منتويًا استيفاء واجباته بحق كل أطفاله، لكن تلك لم تكن الإجابة التي تنشدها لولو، فقال: «أنتِ والطفلة كل شيء بالنسبة إليّ، وبمجرد أن تستقر عائلتي، أعدكِ أن يعود كل شيء إلى حاله الطبيعي». لم تكن سوك كون قد منحته سببًا لإصرارها على بقائه لتناول العشاء في الشقة ذاك المساء، لكنها نادرًا ما طلبت منه أي شيء، ولم يقدر على الرفض.

«اذهب، سنكون أنا وماري على خير ما يرام بمفردنا».

كان قادرًا على رؤيتها تلوح بسيجارتها، وذيلها الطويل من الرماد يتدلى ببالغ الخطورة فوق بطنها الناتئ.

فتذرّع قائلًا: «غدًا سنذهب أينما تريدين». لكن لولو كانت قد أغلقت الخط.

في المصعد، وحيدًا لأول مرة منذ بداية اليوم، انهار تشاي على الجدار المبطن بالمخمل الفاخر وأغمض عينيه. آلمه جسده في أماكن لم يكن يعرف أن الألم فيها ممكن: جذور شعره، ومحجري عينيه، ومفاصل فكه. لم تكن لولو الوحيدة المستاءة منه، فقد كان هناك أولد وو، نائب المدير العام الأكبر في المعمل واليد اليمنى سابقًا لأبيه، الذي هدده بهدوء بالاستقالة إذا ما استمر تشاي بمقاومة تسريحات العمال وغيرها من معايير خفض التكاليف، والسيد تام، صاحب العقار الجشع غير العقلاني الذي كان تشاي قد استأجر منه شقته نفسها، ومُرابو مونغ كوك القساة الذين يحكمون الشوارع القاتلة المظلمة التي لم يكن تشاي ليحلم بتجاوزها قبل بضعة أشهر، لكنه الآن يتنقل فيها بسهولة. وأخيرًا كانت عائلته، الذين كانت نظرتهم الاتهامية الجماعية تخترق ظهره في كل مرة غادر فيها الشقة إلى المنزل. كانت كل هذه الجوانب تطلب المزيد والمزيد، إلا ابنته، التي ربما لم تكن تعرف أن ذلك من حقها. لكن طاقته كانت قد نضبت عن آخرها ولم يبقَ لديه ما يقدّمه.

بدلًا عن إدخال مفتاحه في القفل، رفع قبضته وطرق الباب، ففتحته الخادمة وداهمه عبق الثوم الحارّ والزنجبيل. بدّل بحذائه الجلدي المتكلّف نعالًا ناعمة، وقبل أن يسعه الاسترخاء وتذوّق وسائل الراحة البسيطة هذه، برزت زوجته أمامه.

فقال تشاي تلقائيًا: «لم يردّ على الرسالة بعد». كان قد كتب رسالة إلى زميل عملٍ، يُشاع أنه الأخ غير الشقيق لعضو كادرٍ عالي الرتبة في شنغهاي قد يكون له نفوذ على مكتب أمن الجزيرة.

لم تتنهّد زوجته ولم تتوقف عن النظر إليه: «شكرًا لك لتخصيص بعض الوقت لنا هذا المساء».

ها هي مجددًا تشير إلى مثالبه، لكن حينما مدت يدها له حاملةً قدح الويسكي، كانت ابتسامتها دافئة. تلاقت رؤوس أصابعهما، فنتَر يده خلفًا ناثرًا بضع قطرات على الأرض: «يا لي من أخرق!».

أهملت سوك كون هفوته بتلويحة من يدها ونادت الخادمة لتجلب خِرقة.

وقالت متقدمة الطريق إلى غرفة السفرة: «تعال، الطعام جاهز».

تجرّع تشاي رشفة طويلة من مشروبه، وانساب الإكسير المعسول المدخن على لسانه متجاوزًا حلقومه.

سألت سوك كون: «ألن تأتي يا تشاي؟ لقد جعلت الطباخ يعدّ كل أطباقك المفضلة».

راح يحدّق إلى جسد زوجته الذي ما زال رشيقًا بدهشة وامتنان. كان تناول وجبة هادئة مطبوخة في المنزل ما يحتاج إليه بالضبط، ولم تكن أعصابه لتتحمل الجو المحموم مُفرط التعطّر لمطعم باريجان غريل، ولا الدردشة مزيّفة التنافسيّة مع رجال كان يحتقرهم وزوجاتهم المستهترات الثرثارات سرًّا.

انتظره ابنه وأمه حول طاولةٍ مُثقلة بأكثر ما اشتاق إليه تشاي من أطباق الوطن: حساء الشمّام الشتوي، وأومليت المحار المقلي، وسمك هامور مدخنٍ مع بصل أخضر، وفطائر الأرز الشمعيّ المربّلة بلحم الخنزير المفروم، وانتصب في منتصف الطاولة تمامًا الطبق الرئيس: أغصان خيزران أرضية واقفة في كومة من الهلام الصافي المهتز. كيف حصلت سوك كون على هذه المكونات؟ سال لُعابه تطلُّعًا إلى هلام الخلّ البارد الحريري، و«أغصان الخيزران» المالحة الشهيّة التي كانت في الواقع ديدان وحل فوجيان البحريّة الثمينة.

فقال: «يا لها من مأدبة! أننتظر ضيوفًا؟»

قالت أمه: «أنت فقط، ضيف الشرف».

فابتسم بحنان لها وحتى لابنه المكتئب. أشارت سوك كون للخادمة أن تملأ كأس تشاي، وأزهرَ امتنانه لزوجته حتى صار حُنوًّا عميقًا وحلوًا، عاطفةً محزونةً إلى حد ما. استحضرَ أمسيةً منذ سنوات عديدة خلت، حينما جاءت إليه، باستحياء، لا يكسوها إلا قميصٌ تحتيٌّ أبيض شفافٌ عَرِف أنها حاكته خصيصًا لأجل زيارته المنزل. كان قد أخبر لولو أنه لم تعُد علاقة جسدية تربطه بزوجته، لكن هناك، في وهج المصباح الخافت، أثاره التشابه بين سوك كون وشانغوان يونتشو في فيلمها الشهير *ليالي شنغهاي*. ففعلا ذلك مرةً، ثم مجددًا في منتصف الليل، عندما أيقظته بيدها، رغم معرفتها أن عليه اللحاق بأول عَبَّارة مغادرة للجزيرة، وعند الفجر، غادر من دون أن يوقظها بعد أن وضع فردة حذاءٍ على القميص الأبيض ومزق قماشته الهشّة. لم يكن يعرف أنه لن يرجع أبدًا.

استقرّت الحرارة في مؤخر عنقه، فحجب اضطرابه بالتلويح بعيدان الطعام وقول: «كلوا بينما ما يزال ساخنًا».

اغترف من الحساء وصبّ في زبدية أمه ثم ملأ صحنه. لم يكن قادرًا على تذكر آخر مرة تلذذ فيها بهذه النكهات، فلولو ترى الطعام الفوجياني ثقيلًا وجلفًا أكثر مما ينبغي.

لم يلاحظ إلا بعدما أنهى صحنه أن بقية العائلة كانوا يأكلون ما قلّ من طعامهم من دون شهية، فبالكاد تذوقت أمه الحساء، وأزالت سوك كون العظام الدقيقة من قطعة السمك خاصتِها ومررتها إلى ليام.

فسأل تشاي: «ألا يوافق الطعام ذوقكم؟ هل قضيت في الغربة وقتًا أطول من أن أتذكر كيف يُفترض أن يكون طعم الطعام الفوجياني؟»

فحص ابنه صحنه الذي ما يزال ممتلئًا.

وقالت أمه: «كلما تقدّمت في العمر قلّت قدرتي على الأكل»، لكنها كانت تنظر إلى سوك كون شزرًا.

فقالت زوجته: «أظن أنني لا أتمتع بشهية كبيرة أيضًا»، وابتسمت من دون عينيْها.

زحف التوتر إليه مجددًا: «أثمة خطبٌ ما؟»

فوقفت زوجته فجأة: «في الحقيقة، ثمة أمر أريد أن أخبرك به، ولا أدري لمَ فكرتُ بتأجيله»، وغادرت الغرفة.

فشعر تشاي بنفسه مخدوعًا: «أمي، ألهذا علاقة بالصغيرة؟»

فحملت أمه مسؤولية الخبر: «لا تصاريحَ حتى يوليو».

تلمّس قدحه. كان يوليو بعد أكثر من شهر، ولا يسعهم الانتظار كل تلك المدة.

عادت سوك كون: «ثمة أمرُ تأجيلٍ لتصاريح الخروج، لكنني ربما وجدت حلًّا»، وفتحت نسخة الصحيفة المصغرة أمامه.

فنحّى الصحيفة جانبًا: «ما هذا؟ من الأفضل أن يبدأ أحد ما بالشرح».

سوّت سوك كون الصحيفة وأشارت إلى عنوان رئيس. كانت تخبره عن قسٌ ما لجأت إليه وأقنعها بدفع المال لبضعة بلطجية ليهرّبوا ابنتهما عبر الحدود في مؤخر شاحنة.

راقب شفتيْها المتشققتيْن تتحركان وتنبثق من بينهما تلك العبارات السخيفة. لم يفهم كيف يمكن لأي شخص أن يكون بهذه السذاجة.

حشرت زوجته ورقةً مطويةً في يده وقالت: « كل المبلغ يذهب للمُهرّبين، ولا تضع الكنيسة شيئًا في جيبها».

فرَد تشاي الورقة واستوعب صف الأرقام غير المعقول. كانت ثلاثة أزواج من العيون تحدق إليه: «هل فقدتِ صوابك يا زوجتي؟ أعليّ إيداعُك في مصحة؟»

تجعّد وجه سوك كون كما تجعّدت الورقة في راحته، ورمى الكرة الورقية على الأرض: «ائتمان مهربين على ابنتنا؟ تخبئتها في مؤخر شاحنة لساعات؟ وربما لأيام؟»

«تشاي، أخشى أنه لا توجد طريقة أخرى».

التفت تشاي إلى أمه، فلا شكّ أن عقلها ما يزال في رأسها، ولا شكّ أنها ستتفق معه.

فقالت أمه: «لا أعرف ما يجب فعله. لقد قلّبت الأمر ألف مرة في رأسي. ما علينا أن نفعل برأيك؟»

استقرّ نظره على ابنه، الذي غار في كرسيه.

وقال ملوّحًا بإصبعه في وجه الصبي: «أنت، أنت سبب وقوعنا في هذا المأزق في المقام الأول».

فاضت عينا الصبي بالدموع. كان في الثالثة عشرة تقريبًا وما يزال يتصرف مثل طفل. ربما كانت ملامح ليام شبيهة بملامح سوك كون، لكن كان تشاي يعرف أنه قد ورث طبعه الحساس منه: «لا تبكِ».

مدت بي كيم يدها لتهدّئ الصبي، لكن نظرة تشاي جعلتها تتراجع، والتفت إلى زوجته عازمًا على تفهيمها: «مخططك غير وارد أبدًا، فليس لدينا أدنى فكرة عن هوية هؤلاء البلطجية. ماذا لو ذُعروا وسلموها؟»، كافح ليُبقي نبرته مدروسة، «أتعرفين ما يحدث لمَن يُقبض عليهم وهم يحاولون الفرار؟ أتعتقدين بحق أن أولئك الوحوش سيصفحون عنها لصغر سنها؟»

نفَرَت العروق في عنق الزوجة كجذور شجرة، لكن صوتها كان أعلى من الهمس بقليل: «وإن لم نفعل شيئًا، ماذا سيحدث لها؟ الطفلة المهجورة للخونة الرأسماليين. سيجعلون منها عبرة، ويعاملونها معاملة أسوأ من الكلب الضال»، ورصّت وجهها في يديها.

لمست أمه كتف سوك كون: «تشاي على حق، دعينا لا نتهوّر».

فأبعدت سوك كون نفسها: «على عكس ما قد تعتقدينه يا أمي، لكن ابنك إنسان وغير معصومٍ مثل بقيتنا. اسأليه لمَ لم يُرسل في طلبنا قبلًا؟ لمَ لم ينقلنا إلى هونغ كونغ قبل إغلاق الحدود؟»

فصفق تشاي الطاولة بيده ووقف: «أجل، لو كنتُ عرّافًا فقط، لتلافَت عائلتنا كل البليّة، لكنني للأسف مجرد رجل أعمال»، وركل الكرة الورقية بكل بأسه فارتدّت بوداعة عن الجدار: «قد يتحتم على سان سان الانتظار حتى يوليو، لكنها ستعبر الحدود بسلامة مثلما فعل ثلاثتكم».

انثنى عنق زوجته على صدرها كما لو كانت تحاول الانكماش على نفسها، ومررت أمه المنديل بين أصابعها مثل السُبحة، وبكى ابنه بصمت فوق صحنه.

انقبضت يدا تشاي إلى قبضتيْن: «قلتُ لك لا تبكِ»، وبحث عن شيء ما ليقذفه ثم جرف قدحه نصف الممتلئ عن الطاولة. أصابت قُطيرات كهرمانيّة اللون وجهه مع تهشّم الزجاج على الرخام، فمسح جبهته بكُفّة قميصه: «أحضروا أحدًا لينظّف هذه الفوضى»، ومشى واسع الخطى خارجًا من الباب ولم ينتظر أن تجلب الخادمة قبعته.

داخل المصعد، لاقى ظهره الحائط ناعم البطانة، وأغلق عينيه أمام وهج الضوء وأمام السلسلة المدوّخة من الأرقام التي لن يُفكّر شخص عاقل بدفعها.

11

يومًا بعد يوم، كانت سان سان تجلس في غرفتها الخاوية، تكدح في كتابة مقال النقد الذاتي خاصتِها، وطوال أسبوع، كانت قد أتمّت خمس مسودات مختلفة – بصفحات تكفي لتغطي حائطًا – لكن في كل مرة عاين الرفيق آنغ ما كتبت، كان يرفض عملها.

كان يقول ممزِّقًا صفحاتها إلى نصفين وهي تحبس دموعها: «بالكاد تبدين آسفة، تذللي أمام الحزب واعترفي بالمدى الكامل لآثامك».

تاقت لتسأل: *كيف أفعل ذلك؟ ما معناه؟ أخبرني ما أكتب وسأفعلها.* لم يسعها فهم سبب حديث أخيها عن هذا الرجل البارد القاسي بذاك القدر من الإعجاب.

بدأت من جديد، وراحت تنتقد خلفيتها العائلية بلغة أعنف من ذي قبل.

إن تنشئتي البرجوازية مثل شيطان يقبض على زمام جسدي وعقلي، ويأمرني بالاستسلام لطبيعتي الأنانية الكسولة.

فكّرت بقصة جدتها عن بنت جيرانهم التي تلبّسها الشيطان. أكان منذ بضعة أسابيع فقط أن خشيت حقًا أن يكون دم عائلتها الملوث قد

دفع جدتها إلى تحطيم صورة الرئيس؟ نظرت إلى الوجه المشرق أعلى السبورة، وملأها البغض تجاه ذاتها الأصغر قليلًا والأكثر سذاجة بكثير. من كان الطرف المنحرف بحقٍ هنا؟ هي، التي لم ترغب إلا برؤية أبيها مرة أخيرة قبل أن يموت، أم الموظفون الذين رفضوا سماعها؟ لو ناولها أحد ما مطرقة الآن، من يعرف أنها لن تنفّس عن غضبها بالطريقة الوحيدة المتاحة لها؟

انقصف رأس قلمها، وكانت قد شوّهت ورقتها بغمامة سوداء سميكة، فأخرجت هذه الأفكار من رأسها بينما قلبت دفتر تمارينها إلى صفحة جديدة، فهي لن تخرج من هذا السجن البتّة أبدًا إذا ما سمحت بشواغل كهذه.

وأنا ممتنةٌ امتنانًا عميقًا للحزب ولقائدنا العظيم لإظهار ضلال سُبُلي واضحًا أمامي. الرئيس ماو هو طارد الأرواح الشريرة الذي حررني من الشيطان وأعادني إلى النور.

قال الرفيق آنغ: «أنتِ لم تقلصي عملكِ فحسب، بل عاظمتِ كمَّ العمل على البقية كلهم»، واقترح أن تفتتح مقالها بفقرة حول كيف استغلّت، وهي سليلة أجيال من مُلاك الأراضي، عمل طبقة الفلاحين مرةً أخرَى، مخلّدة النظام ذاته الذي كدح الحزب في سبيل تدميره.

بقدر ما أمكن سان سان معرفته، كان الوحيدون الذين تأثروا بتصرفاتها هم زملاؤها في الصف: الأطفال، الذين إن لم يكونوا من الرأسماليين أو الصناعيين، فهم من أعضاء الكادر النافذين. ومع ذلك، بدأت من جديد وراحت تكتب حتى تشنجت يدها وآلمها عنقها ولم يعُد للكلمات معنى.

كانت الشمس على مشارف الغروب عندما سُمح لها بالذهاب إلى المنزل، وكانت مرهَقة إلى حد لم يسعها معه إلا ابتلاع بضع لقمات

من العشاء قبل الانسحاب إلى غرفتها. مستلقيةً في سريرها، قرأت آخر رسالات أمها – التي أفادت أن والدها، رغم ضعفه، ما يزال صامدًا – ثم أخذها النوم. في وقت ما من الليل، أيقظتها الخالة روز التي كانت تسترق النظر عبر مدخل الباب، وتمكنت من رفع رأسها الثقيل ثقلًا غير معقول والتعرف على معلمة البيانو خاصتها قبل أن تهوي عائدةً إلى سُباتها.

بعد ظهر يوم الأحد، في غرفة الصف الخاوية مجددًا، كانت سان سان تفكر فيما إذا كان ذكر مرض والدها في مقالها سيستدرّ بعض التعاطف من الرفيق آنغ، أم أنه سيجلب اتهامات بأنها تختلق أعذارًا لسلوكها، وإذا ما قررت ذكر المرض، أنَّى لها أن تصف حال أبيها المتداعي بينما كانت أمها على هذا القدر من الغموض؟ لمَ لم تقل أمها إلا القليل؟ أكان ذلك لأنها لم تُرد أن تُقلق سان سان؟ أم لأنها قد أرسلت الرسالة قبل أن تعرف بثغرة مكتب الأمن وكانت تأمل تزويد سان سان بالتفاصيل شخصيًا؟

وصلت رسالة أمها في اليوم السابق، لكن تاريخها يرجع أسبوعًا قبل ذلك. قعقع قلم سان سان الرصاص على الأرض، وأدركت أن لا فكرة لديها عما إذا كان والدها حيًا أم ميتًا، فربما تغيرت حالة أبيها خلال الوقت الذي استغرقته الرسالة حتى وصلت إلى الجزيرة وتجاوزت الرقباء وبلغت الفيلا، ولا تعرف سان سان إلا أنه ربما تعافى بأعجوبة، أو تُوفي بالفعل.

استقر نظرها على الرزنامة المثبتة على الحائط. بطريقة ما، من دون أن تنتبه، كانت نهاية مايو قد مرّت، وحلّ يونيو، فمشت مقتربةً من الرزنامة لتتأكد من أنها قد قرأت التاريخ الصحيح. أيُعقل أن عائلتها ملزمةٌ بالعودة بعد ثلاثة أيام حقًا؟ عرفت سان سان أنها لن تطأ هونغ

كونغ أبدًا، ولن تودع والدها، ولن تنام أسفل الأسدال الوردية الشفافة لسريرها المقبّب، ولن تمرر أصابعها على المفاتيح العاجية الملساء لبيانو برودوود الصغير خاصتها، أبدًا. برز في رأسها السؤال عن سبب تكديس عائلتها رفاهيات مثل هذه لرحلة قصيرة جدًا، وسرعان ما تلاشى، وحل محله معرفة أن لا شيء من ذلك يهُم، إذ لم يعُد عليها حمل مسؤولية إيصال نفسها إلى هونغ كونغ على عاتقها، ومن هنا فصاعدًا، كل ما عليها فعله هو انتظار عودة عائلتها.

التقطت قلمها الرصاص وعادت إلى جلستها، وأرخَت العُقد والتشابكات التي كانت تخنق دماغها، قبضتها على الفور، فمزقت الصفحات التي كتبتها بالفعل وبدأت من جديد مرةً أخرَى، عازمةً على انتقاد نفسها بلا رحمة إلى حد لن يترك للرفيق آنغ خيارًا إلا قبول مقالها.

وبالفعل، بعد أن قرأ الصفحات العشرةَ التي دَلَقتها في أقلّ من ثلاث ساعات، أومأ الرفيق آنغ برأسه إيماءة متيبّسة: «في الغد، ستنضمين إلى زملائك في الصف».

كانت مُنهكة لدرجة لم تسمح لها بالبهجة.

في الصباح التالي، تجاوزت طريق ترانكيل سيز قفزًا وانعطفت عند منزل ليتل ريد حتى لا تُضطر إلى دخول الصف وحدها، لكن حينما قرعت الجرس، أخبرتها الخادمة أن ليتل ريد قد غادرت منذ ساعة.

وصلت سان سان قبل قرع الجرس الأول بدقائق لتجد زملاءها جالسين بالفعل، وما كان مُقلقًا أكثر هو مرأى الرفيق آنغ واقفًا عند السبورة وذراعاه مطويتان على صدره في حين جلست المعلمة لو بخنوع في مؤخرة الصف.

قال الرفيق آنغ بصوت مدوٍّ: « سان سان أونغ، اقعدي مكانك»، وكأنه يخاطب الصف بأكمله.

جلست بجوار ليتل ريد وابتسمت ملء فمها خلسةً لرفيقتها، التي بدت مشغولة بأظافرها. كان بقية زملائها مركزين على مدير المناقشة السياسية، وحتى ستينكي، الذي عادةً ما كان يقلد وجوه قردةٍ مضحكة كلما ألقى أي شخص نظرة سهوًا باتجاهه.

رنَّ جرس الافتتاح صاخبًا وحادًّا.

فقال الرفيق: «يمكن لجلسة النقد الذاتي أن تبدأ الآن».

صارت أطراف سان سان ثقيلة، وشعرت بالوخز في يديها وقدميها، فهو لم يذكر هذا الجزء: «تعالي إلى المقدمة يا سان سان أونغ».

دفعت كرسيها خلفًا ومشت على مهل إلى مدير المناقشة، فأعطاها الورقات العشرة التي كتبتها في اليوم السابق وأخبرها أن تشارك الصفَّ مقالها.

فصرّ صوتها قائلةً: «كله؟»

«بالطبع».

نغز ألف دبّوس مؤخرتيْ عينيْها. كانت أمها قد أرسلت مع آخر رسالاتها قصة اسمها «بائعة الكبريت الصغيرة»، منسوخة باليد على ورق مسطّر لزيادة فرصتها في الانسلال من بين أيدي الرقباء، وجعلت قصة الفتاة الصغيرة المكروهة مدقعة الفقر، التي أشعلت أعواد ثقابها عن آخرها وماتت متجمدةً، رأس سان سان يشتعل غضبًا، لكنها الآن حوّلت هذا الغضب لينصب على الرفيق آنغ، ومهما كانت الظروف، لم تكن لتسمح له بأن يراها تبكي.

وبدأت القراءة.

«بصوت أعلى»، قال مدير المناقشة.

فرفعت صوتها.

«قلتُ بصوتٍ أعلى، كرري».

تغبّشت الكلمات على الصفحة، وطرفت بعينيْها بشدة ثم عادت إلى البداية. لم تجرؤ على النظر إلى زملائها خشية أن ترى في وجوههم ولو شذرة من ازدراء الرفيق آنغ.

ومن ثم حدث أمرٌ غريب، فمع نهاية الصفحة الأولى، اكتشفت سان سان أنها قد قضت من الساعات في إعادة ترتيب تلك العبارات القليلة نفسها عن عدم جدارتها وعن نبالة الحزب ما مكّنها من الانفصال عن معنى الكلمات ودَفْع الهواء عبر حبالها الصوتية وتحريك شفتيها ببساطة. كانت الموجات الصوتية تنجرف داخلةً قناتها الأذنية دون أن تبلغ دماغها.

بعدما أنهت العشر صفحات كلها، تركها الرفيق آنغ ترجع إلى مقعدها.

هذه المرة، ابتسمت لها ليتل ريد ابتسامةً صغيرةً قلِقة، وقبلت سان سان هذه البادرة الاسترضائية بالشدّ على يد صديقتها الرطِبة تحت مقعدهما المشترك.

قال الرفيق آنغ: «والآن حان الوقت كي تشاركوا أيها الطلبة في انتقاد سان سان أونغ. يتحمل كل واحد منكم مسؤولية مساعدة سان سان أونغ على تقويم سُبُلها».

شعرت سان سان بحبلٍ يشتدّ ضيقًا على صدرها. يا لغبائها حين فكرت أن تسليم ذاك المقال سيصحح كل شيء. ذكر أخوها مرةً ثلاثة

صبية أُجبروا على الصعود على المسرح لحلق رؤوسهم أمام المدرسة الإعدادية بأكملها، ولم تستطع تذكر جرائمهم.

واصل الرفيق آنغ: «لا يجب أن يُترك أمر دون نبشه إذا ما كُنا نرغب بحقٍّ في مساعدة سان سان أونغ بالقبض على زمام عيوبها»، وأجال نظره حوله: «من سيبدأ؟»

رفعت ليتل ريد يدها وقفزت من دون انتظار أن يُنادَى اسمها، فأحجَمت سان سان كأنها تعرضت لصفعة.

قالت صديقتها: «دائمًا ما تكون سان سان أونغ آخرَ من يتطوع لرحلات العمل الصفِّية، وليس من المستغرب أنها اختبأت في الشاحنة للتملص من العمل. من الآن فصاعدًا، عليها أن تعمل بضعف جهد بقيتنا لتثبت ولاءها للحزب».

عادت ليتل ريد إلى مقعدها، ومدّت سان سان يدها من تحت مقعدهما وقرصت ذراع صديقتها بأقصى قوتها، لكن ليتل ريد لا أجفلت ولا أدارت رأسها.

كانت التالية بريشس، وهي فتاة لم تكلمها سان سان قط: «تعيش سان سان أونغ في فيلا تعجّ بالخدم المنتظرين رهن إشارتها، ولا عجبَ أنها لا تعرف قيمة العمل المُنتج».

«أجل!» صاح الرفيق آنغ الرصين عادةً، مطلقًا قبضته في الهواء: «إن الكسل داء يجب اجتثاثه قبل أن يدنّسنا كلنا».

ثم جاء دور ستينكي: «مرة طلبت من سان سان أونغ أن تساعدني في واجبي المنزلي ورفضَتْ. هيَ ليست كسولة فحسب، بل أنانية ومتعجرفة أيضًا».

كانت سان سان تحتدم غضبًا. كيف يجرؤ على بقّ كذبات كهذه! ستينكي لم يطلب مساعدتها قط؛ إنما توسّل إليها أن ينسخ واجباتها فقط. أوشكت الحقيقة أن تخرج متفجّرةً منها، لكنها كزّت على أسنانها وأطبقت فمها. فكّرت ببائعة الكبريت الصغيرة، وهي تشعل العود تلوَ الآخر لتحجب عالمًا عديم الرحمة متحجر القلب.

واحدًا واحدًا، اتهمها زملاؤها بالافتقار إلى التعاطف، والتصرّف بفوقيّة، وازدراء معلميها.

فقال الرفيق آنغ: «نعم نعم نعم! هنا في الصين الجديدة سنقضي على الغطرسة والعصيان، والأهم من ذلك كله، على الانحراف الرأسمالي».

اندلعت في الصف موجة من التصفيق، وراح زملاؤها يقفزون ويصرخ بعضهم على بعض مستميتين لإضافة انتهاك آخرَ إلى القائمة الآخذة بالتمدّد، واختلطت أصواتهم حتى لم يعد بوسعها تمييز ما كان من المفترض أنها مذنبة به. مرّت بها الاتهامات مثلما يمرّ النصل على حجر الشحذ، ولم يقدر أيّهم على توسيع الشرخ الذي أحدثته ليتل ريد في تلك المشاركة الأولى.

بعد مدةٍ طالت واستطالت، رفع الرفيق آنغ يده وهدأ الصف. كان وجهه وعنقه مخططَين بالعرق، وقال: « سان سان أونغ»، مشيرًا إليها بالمجيء إلى مقدمة الغرفة.

بهذا الإعلان الأخير، عرفت سان سان أن مدير المناقشة قد احتلّ اسمها بنجاح، ولن يكون بمقدورها أبدًا سماع هذه الكلمات الثلاث تُنطق متتالية مرة أخرى من دون أن يملأها الذعر.

استجابت لإشارته.

فقال: «افصلي نفسكِ عن أناكِ. اعترفي بسلوكياتك المكروهة وأفكارك المغلوطة مرة تكون الأخيرة».

عرفت سان سان أنه ليس هناك إلا طريقة واحدة لإنهاء هذه الجلسة. كانت طاولة معلمتها وكرسيها في الزاوية، فصعدت على الكرسي وتسلقت سطح الطاولة.

فسأل الرفيق آنغ: «ماذا تظنين أنكِ فاعلة؟»

وصار زملاؤها يتمتمون بين بعضهم، وغطّت المعلمة لو فمها بيدها.

شامخة فوقهم جميعًا، فوق زملائها ومعلمتها وحتى مدير المناقشة، ملأت سان سان رئتيها بالهواء وأعلنت: «أنا، سان سان أونغ، ابنة لمُلاكِ أراضٍ برجوازيين رأسماليين. والداي هما الكلاب الطليقة للأمريكان والبريطانيين. وسلوكي الأناني المنحرف قد آذى الكل من حولي، ولكن بخاصةٍ طبقة الفلاحين».

كررت من هناك مقالها كاملًا، كلمةً كلمةً تقريبًا، إلا أن كلامها كان صُراخًا هذه المرة، وعندما فرغت من ذلك، مضت قدمًا تعترف بسلسلة الجرائم الطويلة التي قدمها زملاؤها، وبينما كانت تزعق، راحتِ تراقب زملاءها وهم يشاهدونها، جذِلين كما لو كانوا يتلقون فيلمًا متقنًا أو عرض أوبرا. لوّحت بذراعيها وهزّت قبضتيها وظلت تزعق حتى جف حلقها وجشّ صوتها وارتعشت ساقاها إرهاقًا، وعندما لم يعُد لديها ما تقوله، استعارت جرائم كانت قد رأتها في قصص ليام المصورة، جرائم عجرفة وغدر وخيانة، كلمات بالكاد فهِمَتْها.

وفي النهاية، عندما أوشك صوتها أن يختفي بالمرة، نعقت قائلةً: «أنا، سان سان أونغ، لا أستحق ولا نتفة رحمة يمنحني إياها الحزب ورئيسنا العظيم، وسأقضي بقية حياتي أناضل حتى أكون جديرة برأفتهم».

في مؤخرة الغرفة، كان وجه معلمتها مصقولًا بالدموع. نزلت سان سان عن الطاولة، متشبثة بظهر الكرسي لتثبّت ساقيْها المترنّحتيْن.

تقدم الرفيق آنغ خطوة ناحيتها، فانكمشت خشية أن تكون قد أساءت الحكم على الموقف مرةً أخرَى.

استدار مدير المناقشة ليواجه الصف: «انتهت الجلسة، يمكنكم الخروج».

تثاقلت سان سان المشي إلى مقعدها، وكانت تتوق إلى الجلوس لبرهة والاستراحة، لكن ليس إن كان ذلك يعني منح الرفيق آنغ فرصة ليغير رأيه، فحملت حقيبتها على كتفها وتبعتْ رفاقها الخارجين من الباب.

جذب شخص ما ذراع سان سان أمام بوابات المدرسة.

«لا تبدين بخير، سأمشي معك إلى المنزل»، قالت ليتل ريد وهي تحاول أخذ حقيبة سان سان.

«لا تلمسيني! لستِ صديقتي»، وانطلقت سان سان باتجاه منزلها، وحينما ألقت نظرةً من خلف كتفها رأت ليتل ريد تسيرُ على بُعد عدة خطوات منها.

واصلت سان سان المشي، وشعرت بأن حذاءها كان مملوءًا بالرصاص، لكن رأسها كان خاويًا وعديم الوزن كما لو بإمكان أخفّ نسمةٍ أن تُطيح به عن أرومة عنقها. كانت في منتصف الطريق صعودًا على التلة إلى الفيلا وقتما بدأ الجدار الطوبيّ الذي يسطر الطريق بالتأرجح، فزجّت ظهرها في الجدار وألقت حقيبتها على الأرض، وأغمضت عينيْها. كم كانت ظمآنة؟ متى كانت آخر مرة شربت فيها شيئًا؟

عندما فتحت عينيْها، كانت ليتل ريد مسرعةً إليها. نبشت يد ليتل ريد في جيبها وخرجت ببضع حبات من الفول السوداني التي هرعت تقشرها: «كُلي شيئًا؛ تحتاجين إلى الطاقة».

فاض فم سان سان لعابًا، ودفعت يد رفيقتها بخشونة، فسقطت حبات الفول السوداني على الأرض. بِلا تفكير، انحنت سان سان لتلتقطها، فدارَ الطريق من تحت قدميها ووجدت نفسها منكبة على وجهها في التراب.

صاحت ليتل ريد: «سان سان! النجدة! ساعدوني! صديقتي مغمًى عليها».

شعرت سان سان بألم في ذقنها، وبألم لاذع في راحتيها ورضفتيها، لكنها عدا ذلك شعرت أنها بخير. أرادت أن تطلب من ليتل ريد التوقف عن إحداث قلقلة، لكن لم يكن بمقدورها تحرير فكها.

ظلت ليتل ريد تصرخ حتى قال شخص ما: «اركضي إلى منزل الطبيب. إنه هناك».

تركت سان سان خدها يرقد على الممر الرملي، وكانت لتنهض عاجلًا، بمجرد أن تستجمع طاقتها.

أيقظها صوت آمِرٌ: «أيمكنك سماعي يا سان سان؟ أنا الدكتور لي».

رفعتها ذراعا الطبيب القويتان في الجو، وحملها كلَّ الطريق إلى منزله، وهناك، في غرفة المعيشة الوثيرة الملاصقة للغرفة التي كانت سان سان تتلقى دروس البيانو فيها، نظفت الخالة روز أطرافها بمنشفة باردة وراحت تسقيها رشفات من الماء حتى أمكنها الجلوس.

حام الطبيب لي فوقهما: «كيف بلغتِ هذا القدر من التَّجْفاف؟ ألا يسقونكم أي شيء في المدرسة؟»، وأعطى سان سان قرصين لتبتلعهما.

قالت الخالة روز: «كنا قلقين عليك، وقد أخبرنا الطباخ بما حدث».

تأججت الحرارة في خدي سان سان، وبدأت يداها بالارتجاف، فتدبّرت وضع الكأس قبل أن يفلت من قبضتها: «إن الأمر غلطتي؛ أنا بيضة عملاقة غبية».

أخبرت الدكتور لي والخالة روز بكل شيء، منذ فشلها بالحصول على تصريح خروج إلى الخطة التي رسمتها في مزرعة الشاي إلى سلسلة العقوبات اللامتناهية، وكم شعرت بالراحة لمشاركة كل هذا.

قالت سان سان: «إن أسوأ ما في الأمر هو أنني جلبت كل هذه المعاناة على نفسي بلا جدوى، وعندما تصل أمي إلى المنزل وتكتشف ذلك ستستشيط غضبًا».

التقطت سان سان النظرة التي تبادلها الدكتور لي والخالة روز، ولم يتكلم أي منهما.

فسألت: «أسمعتما خبرًا من أمي؟»

هذه المرة، غضنت الخالة روز جبهتها وحدقت طويلًا وبإمعان إلى الدكتور لي.

فقال: «سان سان، ثمة شيء ما يجب أن تعرفيه».

بالنظر إلى وجهيهما الوقورين، اختفت أي راحة شعرتها من الحديث مع هذين البالغيْن الموثوقيْن، وتمنت لو كانت قويةً بما يكفي لتخرج بسرعة.

«قد تُضطر عائلتك إلى البقاء في هونغ كونغ لوقت أكثر مما كانوا يظنون».

سألت: «لمَ؟ لِكم من الوقت؟»

فقال الدكتور لي: «بصراحة، لا أعرف بالضبط».

ماذا شاركتهما أمها أيضًا من دون أن تشاركها؟

«متى كتبت أمي إليكما؟»

قالت الخالة روز: «لم نسمع منها شيئًا منذ غادرت».

ارتاحت سان سان لهذا: «إذن أنى لكما أن تملكا أيَّ فكرة عما يجري في هونغ كونغ؟»

لمست الخالة روز خد سان سان: «أنتِ محقة، نحن لا نعرف الكثير، لكن مرض أبيكِ معقد جدًا، وثمة احتمال كبير أن يتأخروا، ولا نريدك أن تقلقي عبثًا».

ثبتت سان سان قدميها على الأرض: «أمي تكتب إليّ كل يوم تقريبًا، وإن كانت ستتأخر، فسأعرف منها».

فقالت الخالة روز: «معكِ حق. أمك تحبك حُبًا جمًّا».

وقال الدكتور لي: «لا أم ترغب بالابتعاد عن طفلها».

نفد صبر سان سان: «أعرف ذلك»، وتناولت كأس الماء وأرجعت رأسها خلفًا ثم شربت كي تتجنب النظر إليهم.

12

سحب ليام حقيبته من تحت السرير، وأخرج كل الكتب والأوراق المخفية داخلها: منشورات مطبوعة على عجل تحتوي على أهم خطابات الرئيس ومقالات مثل «عن ديكتاتورية الديمقراطية الشعبية» و«انبُذوا الأوهام، واستعدوا للنضال»، ونسخة الرفيق آنغ الشخصية عن كتاب رفيع مجلدٍ من أشعار الرئيس، الذي لا شك أنه ندم على إعارته إياه، ودفتر تمارين كان يدوّن فيه اقتباسات الرئيس التي لامست قلبه أكثر من غيرها.

فتح دفتر تمارينه ومزق ورقة بيضاء:

عزيزتي سان سان،

أعتذر عن مرور وقتٍ طويل قبل أن أكتب إليكِ. هل أنتِ على ما يرام هناك؟ أتشعرين بالوحدة؟ لا بدّ أنكِ وبحلول الآن قد استنتجتِ الحقيقة. هذا صحيح، لن نرجع إلى المنزل، فبابا لم يمرض قط، وقد كذبوا ليحملونا على اتباع أوامرهم.

جعّد الورقة إلى كرة وألقى بها في سلة المهملات، ثم مزق ورقة جديدة:

عزيزتي سان سان،

أنا أكره هذا المكان. بابا في مزاج نكدٍ دائمًا، وعندما يأتي، يتشاجر هو وماما. تحاول جدتي تهدئتهما، ولا يزيدهما ذلك إلا غضبًا.

توقف لحظةً، غير راغب بالتلميح إلى أن حاله كان أسوأ من حال أخته، رغم أنه غالبًا ما كان يستغرق في أحلام يقظة يتبادل فيها الأماكن معها. كان من الممكن أن يكون هو الشخص الذي بقي على الجزيرة من دون مَن يُثقل عليه، باستثناء الخدم، الذين لم يكن يخشى مجابهتهم. كان طلب انتسابه إلى رابطة الشباب ليُقبل من دون شك بمجرد أن يظهر إخلاصه للحزب برفضه عائلته وسُبُلهم السامة.

مزق ورقة جديدة:

عزيزتي سان سان،

لقد قررت العودة إلى البر الرئيسي بمجرد أن أجد طريقة لشراء تذكرتي. لا تقلقي، سآتي لأجلكِ قريبًا.

طُرق الباب طرقة قوية نقَّزَته، فخبأ الرسالة بذراعيه.

جاء صوت الخادمة من خلف الباب: «سيدي الصغير، لقد جاء والدك».

فردّ ليام: «لا تدخلي، عليّ أن أبدّل ملابسي».

لم يمرّ أبوه بالشقة منذ ذاك العشاء الكارثي، فهل جاء ليعتذر لأمه؟ أمِل ليام أن الخادمة كانت أعقَل من أن تفضح ذهاب أمه إلى الكنيسة مرة أخرَى، وإلى اليوم، لم يكن يعرف حتى أن الكنائس تفتح أبوابها في عطلات نهاية الأسبوع.

مزَّق المسوَّدة الثالثةَ لرسالته إلى شرائط طوليّة، وفردَ الورقات المرميّة الأخرى ومزقها إلى شرائط أيضًا.

تساءل عما إذا كان أبوه قد جاء خصيصًا لرؤيته، وليوضح مرةً أخرَى حجم خيبة أمله منه، وإن كان كذا، فهو جاهزٌ هذه المرة، ولن يبكيَ هذه المرة مهما جرَى. وقف يحدق في مرآة الدولاب، وبصق في راحته وسوّى خصلة شعره النافرة. أكّد لانعكاسه أنه وإن مُنح فرصةً أخرى ليعيد الأمر برمته، كان ليتخذ القرار نفسه ويشي بجدته.

منذ أن وصلوا إلى هونغ كونغ، لم تذكر جدته خيانته المزعومة إلا مرةً، إذ وضعت قماشة التطريز من يدها من دون مقدمات وقالت: «إنني أسامحك يا حفيدي، فأنت لم تفعل إلا ما لُقِّنتَ فعله». تفاجأ جدًّا، وركع أمامها وحنى رأسه قبل أن يدرك أنه لم يُرِد غفرانها.

دكّ ذيل قميصه في حزام بنطاله وذهب إلى غرفة الجلوس. كان والده واقفًا أمام النافذة الكبيرة بإطلالتها على ناحية الجبل المُعشبة ذات اللون الأخضر اليشميّ، ومن هذه المسافة، بدت الأكواخ البدائية المنتشرة في المشهد، والتي قالت أمه إنها آوَت لاجئين أقل حظًّا منهم، جذابة تقريبًا.

«أبي؟ هل أردت رؤيتي؟»

التفت والده وقال: «لا يمكنني البقاء»، رغم أن أحدًا لم يطلب منه ذلك، «جئت لأبلغك خبرًا فقط. لقد استخدمت علاقاتي لأسجلك في مدرسة القديس مارك، وستبدأ يوم الاثنين. نحن محظوظون للغاية لأنهم وافقوا على قبولك في وقت متأخر إلى هذا الحد من العام الدراسي».

فقال ليام بترددٍ: «صرنا في الصيف تقريبًا». لم يرِد إغضابه.

رفع والده يديه: «ستحضر شهرًا الآن ثم تتلقى دروسًا صيفية. هذا هو الحل الوحيد لتدرك ما فاتك. عليك تعلم اللغة الإنجليزية، والمدارس هنا أكثر تطورًا بكثير».

لا أعير أدنى اهتمام للغة الإنجليزية، فكَّر بها لكنه لم يقُلها، فبعد كل ما مرّ به، ألا يستحق إجازة صيفية؟ ومن ثم أدرك أن المدرسة ستمنحه عذرًا لمغادرة الشقة، وبوسعه التسلل إلى محطة القطار ليبحث في جداول التذاكر وأسعارها. يمكنه طلب المال لشراء دفاتر وقرطاسية، وإن كان مركّزًا وحاذقًا، فقد يكون في طريقه إلى المنزل في غضون أسابيع.

فقال: «أظن أنك على حق».

قال والده، وقد كان يمشي خارجًا من الغرفة بالفعل: «رائع، أخبر أمك أنك ستباشر يوم الاثنين، ويمكنها الاتصال بمكتبي إذا ما كان لديها أسئلة».

كانت مدرسة القديس مارك بناءً طويلًا أسطوانيًا، أضخمَ بثلاث مرات على الأقل من مدرسة ليام البسيطة صندوقية الشكل على الجزيرة. وإجمالًا، أحصى خمسة طوابق مكدسة الواحد فوق الآخر مثل طبقات كعكة الزفاف الغربية الغريبة التي اكتشفها في ما سُمي «بصفحات المجتمع» من صحيفة سينغ *تاو ديلي*.

كانت أرضيات المدرسة هادئة هدوءًا مخيفًا، والدروس قد بدأت بالفعل، فقد أخرت أمه كليهما بإغلاق المكتب على نفسها بصحبة الهاتف، وعندما طرق ليام الباب مرة أخرى ليستعجلها، انفجرت من الداخل قائلة: «على عكس ما يعتقده أبوك، ثمة أمور أكثر أهمية لنقلق بشأنها من تعلمكَ الإنجليزية».

والآن توقفت أمه قليلًا أمام الباحة الدائرية التي يشطرها إلى نصفين ممر من الحجر اللوحي المرصوف بأسيجة من نبتة الجهنميّة ماجنتيّة اللون: «أليس هذا فاتنًا؟»

قال ليام: «لا بأس به».

في المكتب الرئيس، كتبت موظفة استقبالٍ رقم غرفة صف ليام على قصاصة من الورق، وعرضت أمه اصطحابه إلى الطابق العلوي، لكنه أصر أنه سيكون على ما يرام بمفرده.

تسلق السلالم الباردة المعتمة إلى الطابق الثالث ووصل إلى غرفة مجهزة بأضوية علوية ومراوح سقفية تكفي لتخديم مدرسة كاملة في الديار. في الجزء الأمامي من الغرفة، كان ثمة امرأة طويلة باهتة تنقر بمؤشر خشبي على خارطة عملاقة للعالم. كانت بشرة المرأة بلون بيجيّ ذاوٍ، وعيناها بأفتح درجة من اللون الرمادي، شاحبتيْن إلى درجة أن ليام تساءل عن احتمال كونها عمياء. لم يسعه تذكر آخر مرة رأى فيها أجنبيًا من كثب.

لكن المعلمة لم تكن عمياء، فقبل أن يطرق ليام الباب، انتبهت له وأشارت إليه بالدخول، وتفارقت شفتاها الرقيقتان وأطلقتا دفقًا من الأصوات الغريبة المشذّبة.

فقال بالمندرينية: «أنا آسف، لا أتكلم الإنجليزية».

ارتفع صوت القرقرة التهكمية في الغرفة، وباستثناء صبي نصف هجين في الصف الأول، كان زملاؤه الجدد كلهم صينيين، لكن ولا واحدًا منهم أغاثه.

واصلت المعلمة كلامها، وصارت تلوّح بذراعيها إلى صفوف المقاعد المشغولة وأشارت إلى مؤخر الصف، ففهم ليام أنه يفترض به الوقوف هناك. تعجّل متجاوزًا الممر متلهفًا لإنهاء محادثته أحادية الاتجاه، وتعثر بحقيبة أو ربما بقدم، ما أكسبه المزيد من الضحكات.

استؤنف الدرس، واتخذ ليام ما أمِل أن يحاكيَ وقفةً مسترخيةً عبر الاتكاء على الجدار وعقد ذراعيه فوق صدره. راح يتفحص ظهور رؤوس زملائه، محاولًا اكتشاف ما جعلهم يبدون أكبر سنًّا وأكثر تطورًا من زملاء صفه في الديار. أكان ذلك بسبب طريقة ارتدائهم لباسهم الرسمي سائبًا ومجعدًا كيفما اتفق؟ أم بسبب شعورهم الطويلة المصففة؟ على الجزيرة، كان لجميع الصِّبية شعر قصير مقصوص قصةً عسكرية، ولم يُسمح للفتيات بإطالة شعورهن لتتجاوز ذقونهن، أما هنا، فللصَّبية شعور ممشطة إلى الوراء وتبدو مبللة، وللفتيات ضفائر تصل حتى أسفل ظهورهن، ومزينة بشرائط ملونة كالفراشات. ظن ليام استعراض العنجهية هذا سوقيًا ومشينًا، فيُفترض بالطلاب أن يرتدوا ملابس بسيطة ومتواضعة، ومرت بذهنه الحَنيَة الشاحبة لعنق بينغ بينغ تحت ستارة شعرها الأنيقة.

وصل بوّابٌ حاملًا مقعدًا إضافيًا وضعه في مؤخر الغرفة تمامًا في صف لوحده، وجلس ليام على كرسيه من الخشب الصلب يراقب شفتيْ المعلمة جاهدًا ليلتقط كلمات يعرفها. واستسلم سريعًا. لم ينظر أيٌّ من زملائه تجاهه، حتى المعلمة بدا أنها نسيَت وجوده هناك. كيف خرج أبوه بفكرة مريعة كهذه؟ فقد كان واحدًا من نخبة التلامذة في كامل مرحلته الدراسية في الديار، والآن يُرجح أنه سيفشل في كل واجبٍ لأنه ببساطة لا يتكلم الإنجليزية. لم يلُم أمه لمجاراتها رغبات أبيه، فلَم يكن في رأسها متّسع إلا لسان سان.

بحلول الوقت الذي رن فيه جرس الاستراحة، كان ضجر ليام وإحباطه قد تصلدا حتى صارا غضبًا، ولامَ أهله وجدته، ولام معلمته المتهاونة، وزملاءه الهازئين. لامَ هذه المدينة الكريهة كلها، المملوءة

بأناس يقولون عن أنفسهم أنهم صينيون لكنهم يعيشون ليقتدوا بمستعمريهم الغربيين.

مد يده إلى حقيبته وتناول كتاب شعر الرفيق آنغ. شدّه إلى صدره جاعلًا الغلاف باتجاه الداخل ثم تبعَ سرب الطلاب نزولًا إلى الباحة ووجد دكةً خاليةً في رقعة من الظل. تعالَت الصيحات في الملعب القريب يتخللها خبطُ الأقدام المفرح المرتبط بكرة القدم. لم يمرَّ بباله أنهم يلعبون كرة القدم هنا، وتاق إلى أن يُقيّم اللاعبين، إن لم ينضم إليهم. تساءل عما إذا كان بوسعه محاولة الانضمام إلى الفريق في هذا الوقت المتأخر من السنة، ومن ثم ذكّر نفسه بأنه لا يملك وقتًا يهدره.

على بعد عدة خطوات، لعب ثلاثيٌّ من الفتيات الأصغر سنًّا لعبةً تتضمن القفز عبر مربعات مرسومة بالطبشور على الأرض. على الجزيرة، كانت استراحة المدرسة الابتدائية قبل الإعدادية، وكان ليام بين الحين والآخر يمر بأخته وهي تعود في الرتل إلى الصف. كان قد درّب سان سان على ألا تنادي عليه مطلقًا، لكن إن كان في مزاج سَمِح، كان يبتسم ويربت على تاج رأسها، منتظرًا صيحة الاستياء المخادعة التي أخفَت بهجتها.

فتح الكتاب في حجره وحاول حجب صرخات الفتيات الضحوكة. هفّ عبق الوجبات الخفيفة المحمّرة من البوفيه جاعلًا معدته تقعقع، فأمسك العملات المعدنية التي أعطته إياها أمه بأصابعه، والتي كان قد نذرها كلها لتذكرة القطار خاصته.

قلّب الصفحات إلى قصيدته المفضلة: «المسير الطويل». في اليوم السابق، كانت جدته قد انتبهت إلى الكتاب بارزًا من أسفل وسادته وحذرته من أن يراه والده، قالت: «في واقع الأمر، لا تخرجه من غرفتك على الإطلاق».

فرفع الكتاب عن حجره، مستعرضًا غلافه الأحمر المغطى بالقماش أمام هؤلاء الطلبة الذين كانوا أكثر جهلًا من أن يفكروا بأي شيء عدا لعباتهم في ملاعبهم.

الجيش الأحمر لا يخشى مِحَن الزحف الطويل
يعتبر عشرة آلاف جرفٍ وسَيلٍ توافهًا
تتلوّى الجبال الخمسة العظيمة مثل تموّجات لطيفة
وتمرّ جبال وو مينغ المهيبة، كُريّات من طين
دافئةٌ الجروف المرتفعة المغطّاة بمياه الرمال الذهبية
باردةٌ السلاسل الحديدية الممتدة عبر نهر تاتو
عُبرت الألف ميل من الثلج فوق جبال مينشان بسرور
وتابعت الجيوش الثلاثة زحفها، كلٌ بوجهٍ مشرق.

استمرّت الصيحات والضحكات حوله. من كان ليلاحظ صبيًا يرتدي لباسًا مفرط التنشية بشعر قصير جدًّا يجلس وحيدًا؟ أغلق الكتاب ونبش المال من جيبه، فهذه المرة فقط، سيبذّره على مثلجات بالفواكه.

كان يعدّ العملات الغريبة اللامعة عندما مر صبي طويل يتبختر مرتديًا البنطال الطويل للمدرسة الإعدادية العليا، ومن دون أن يخرج عن مشيته، قبض الصبي على ساعد ليام بيدٍ وخطف الكتاب بالأخرى، ثم تمتم بالكانتونية: «تعال معي».

سقطت عملات ليام على الأرض، وقال بالمندرينية وهو يكافح ليحرر يده: «اتركني، لقد أسقطتُ مالي».

ترك الصبي ليام يلتقط عملاته، ثم أخذه نصف ماشٍ نصف مجرور إلى السلالم.

صاح ليام: «أنت تؤلمني»، وارتدّ صدى صوته عن الجدران.

فقال الصبي الطويل بعد أن تركه أخيرًا: «اخرس، ستورّطنا جميعًا».

في المساحة المظلمة الباردة تحت السلالم، جلست فتاة وصبي آخر كانَ أقصر وأسمنَ من الأول متربّعين على الأرضية الخرسانية.

لوح الصبي الطويل بكتاب الرفيق آنغ في وجه ليام: «هل أنت مجنون؟ تتمشى حاملًا هذا على الملأ؟»

لم يسعه تصديق أن جدته كانت على حق رغم كل شيء، وقال: «أعده لي»، لكن الصبي رفع الكتاب بعيدًا عن متناول ليام بسهولة.

فدوّرت الفتاة كرتي عينيْها تبرّمًا وقالت: «أعده إليه يا تيك، إن صرخاته تدفعني إلى الجنون».

قذف الصبي ليامَ بالكتاب، وأصابه في صدره مباشرة.

تألم ليام وانحنى ليلتقط الكتاب ثم نفَضه بحذر.

تكلمت الفتاة بلسان مندرينيّ: «إذًا، ما اسمك؟ ومتى وصلت إلى هونغ كونغ؟»، ووقفت ومطّت ساقيها. كانت قامتها طويلة جدًّا – بطول الصبي تقريبًا – ونحيلة لدرجة أن ذراعيها كانتا تسبحان في الأكمام الفسيحة لكنزتها، وبخلاف بقية الفتيات بضفائرهن وتموجاتهن المُحكمة، كان شعر هذه الفتاة قلنسوةً لامعة سوداء التفّت أسفل كل من أذنيها الصغيرتين. لم يكن ليام قد رأى في حياته شخصًا غريب المظهر إلى هذه الدرجة لكنه جذابٌ جدًّا رغم ذلك.

أخبرَهم باسمه وموطنه.

فقالت الفتاة: «أنا لي آن»، وأشارت إلى الصبي الطويل: «وذاك المتنمر، تيك».

لوّى تيك وجهه المجدور راسمًا ابتسامة مشوّهة، وأمال رأسه ناحية الصبي الآخر، الذي ظل جالسًا على الأرض: «هذا فاتي[1]».

دفع فاتي نظارته أعلى أنفه المنتفخ وأومأ برأسه، وكان على ليام الاعتراف أن لقبه ملائم.

سألت لي آن: «من أين حصلت على ذاك الكتاب بأي حال؟»

«لقد أعارني مدير المناقشة السياسية في مدرستي في الديار نسخته الشخصية».

وعندما فشلت الفتاة في إبداء التأثر، أضاف ليام: «كنت قيد التقدُّم للانضمام إلى رابطة الشباب قبل أن تجبرني أمي على الرحيل مباشرةً».

فقال تيك، ثانيًا شفته العليا: «أهذا صحيح؟»

استشعر ليام أنه كان محطّ سخرية: «نعم، رابطة الشباب، الخطوة الرئيسة الأولى على طريق عضوية الحزب. في الحقيقة، أنا أدّخر المال لشراء تذكرة العودة».

تابع تيك الابتسام المتكلّف: «وكل هذا بمفردك؟»

فقوّس ليام كتفيه وواجه ذاك الصبي المقيت مباشرةً: «كم مضى على وجودك في الخارج؟ أم أنك وُلدتَ هنا؟ ألا تعرف أن الحزب يستقبل كل الطلبة العائدين بصدر رحب؟»

رفع تيك حاجبيْه للي آن، التي تبادلت النظرات بدورها مع فاتي.

---

(1) فاتي: البدين.

كذب ليام قائلًا: «لقد ادّخرت ما يكاد يكفي ثمنًا لتذكرتي، ولا أخطط للبقاء في هذه المدرسة طويلًا».

تقدمت لي آن خطوةً ووضعت يدها على كتف ليام، وبدت رؤوس أصابعها تنغرز عبر قماشة قميصه الرقيقة، متجاوزةً سطح جلده عميقًا داخل لحمه، تاركةً ما كان متأكدًا من أنه سيكون علامة لا تُمحى، مثل وسم الماشية.

وقالت: «إذًا! أنتَ واحد منا».

13

في اليوم المحدَّد لعودة عائلتها، جرّت سان سان مقعدًا إلى النافذة المطلة على البوابة الأمامية، وركعت فوقه حتى احمرّت رضفتاها وتقرحتا. حاولت موي إغراءها بكوب من الشاي، بكعكة الفاصولياء الحمراء، بزبديّة من حساء قطع الضلع، لكن سان سان لم تتزحزح.

ركعَت حتى صار الظلام أشدّ من أن تميّز وجوه المارة في الشارع، ركعت ساعة بعد موعد رَسْوِ آخر عبّارة، ركعت حتى اختلطت كُروبها ومخاوفها وأعذارها في رأسها في هدير متنافر النغمات، وعندما سمعت موي تغلق الباب المؤدي إلى غرفتها خلف المطبخ، نزلت متسلقة وراحت تعرج بقدمين متيبستيْن إلى غرفتها.

لم تعرِف لماذا لم تكن أكثر غضبًا، ولمَ كان جزء منها يشعر بالاستسلام بالفعل. كانت تبدّل لباسها المدرسي عندما ضربت الدقّاقة النحاسية الثقيلة على البوابة الأمامية، فانتزعت كنزتها من فوق رأسها واهتزّت داخلةً لباس نومها. كانت في منتصف الطريق خارجة من غرفتها عندما تردد صوت الخالة روز في البهو: «كيف حالها؟»

فطقطقت موي بلسانها خلف صف أسنانها العلوي: «لقد انتظرَتْ بجوار النافذة لساعات، ورَفضتْ تناول الطعام طيلة النهار».

طرقت موي الباب بِرفق: «سان سان، لقد جاءت الخالة روز».

فاستلقَت بهدوء تام، ثم شُق الباب. لم تكن قد رأت مُعلّمة البيانو ولا الطبيب منذ اليوم الذي أُغمي عليها فيه على جانب الطريق، فقد كانت غاضبةً إلى درجة منعتها من زيارتهما، بل وحتى تظاهرت بالمرض لتتملص من درس البيانو.

همست الخالة روز: «لا توقظيها، سأعود في الغد»، وعندما أُغلق الباب أضافت: «يا لها من مسكينة!».

فقفزت دموع ساخنة إلى عينيْ سان سان وفاضت بالخزْي.

تنبأ الجميع، حتى الخدم، بتأخُّر عائلتها، وهي الوحيدة التي أصرت على التمسُك بوعود أمها الواهية. دفنت وجهها في نعومة مخدتها لتكتم نشيجها.

في الصباح، أعلن كوك أنه سينتقل إلى غرفة نوم جدتها، وكانت عبارة: «سيكون السرير أفضل لظهري» جلّ ما قدمه على سبيل التوضيح.

فثار ثائر سان سان: «لا يمكنك فعل هذا! جدتي لن تسمح به».

نظر كوك إلى موي وقال: «أنا حقًا لا أظن أنها ستهتم لذلك».

كتبت سان سان بسرعة رسالة إلى أمها تبلغها فيها عن سلوك كوك الشائن، لكن عندما أدركت أنها ستضطر إلى إعطائها لكوك ليرسلها، أخفت الورقة في كتاب دراسي.

كانت تُراكم في كل يوم شكاويَ جديدة تضيفها إلى الرسالة. كيف كان كوك وموي يلعبون الشدّة لساعات في غرفة الاستقبال مع المستأجرين من الطابق السفلي، وكيف كانوا يضجّون حتى الصباح،

ويتسكعون واضعين أقدامهم على كراسي خشب الورد المطعم بالصدف، وكيف ترك كوك عشاء سان سان في قدرٍ فوق الفرن وأخبرها أن تخدم نفسها وتنظف صحنها في المغسلة! وبمجرد أن تتمكن من سرقة طابع، ستأخذ الرسالة إلى مكتب البريد بنفسها.

في المدرسة، كان متاحًا لسان سان حضور الدروس الاعتيادية، لكن نُقلت ليتل ريد إلى مقعد آخر، وصارت تجلس وحدها الآن.

أمام بوابات المدرسة بعد ظهر أحد الأيام، وقفت سان سان تشاهد بينما ترحل ليتل ريد مع رفيقة مقعدها الجديدة، وهي فتاة خجولة كانوا ينادونها ستيمد بَن[1] بسبب بشرتها الصافية وخديها المستديرين، وسمعت ليتل ريد تقترح أن تمشي وستيمد بَن إلى الشاطئ: «سأريكِ أين تجدين أحسنَ المحارات».

عندما أخذت ليتل ريد بيَدِ ستيمد بَن، انحنَت سان سان وراحت تحكّ قرصة البعوضة على كاحلها كي لا تُضطرّ إلى مشاهدتهما.

قال صوت مألوف: «سان سان».

وعند مرأى الطبيب، احمرّ وجه سان سان: «ما الذي تفعله هنا؟»

فقال برِفق: «جئت لأقلّكِ من المدرسة».

تساءلت عمّا قالته له الخالة روز، وما إذا جاء ليشمَت ويطالب باعتذار: «منذ أن رحل أخي وأنا أمشي إلى المنزل بمفردي».

حدق الدكتور لي إلى شمس الظهيرة: «لكن أليس هذا يومًا لطيفًا؟ فلنذهب في جولة».

فنقلت سان سان حقيبتها إلى كتفها الآخر: «أليس لديك عمل؟»

«جولة قصيرة فقط».

---

(1) ستيمد بن: كعك البخار وهو نوع من الكعك الصيني يطهى بالبخار

وافقت أخيرًا، لتبتعد من زملائها المحدقين فحسب.

مشَت والدكتور لي على طريق فوريفر سبرينغ، وانتظرَت أن يُشير إلى أنه كان محقًا بخصوص أمها.

قال الطبيب بصوت خفيض: «لديّ أمر مهم أريد مناقشته معك».

رفعت سان سان نظرها متفاجئةً، هل وردته أخبار من هونغ كونغ؟

مرّت فتاة جميلة كانت سان سان تعرفها بصفتها واحدة من زملاء ليام وإحدى طالبات البيانو لدى الخالة روز، ونادَت: «مرحبًا دكتور لي».

لوّح الطبيب بيده: «كيف حالك يا بينغ بينغ؟»، وانتظر الفتاة حتى تخرج من مجال السمع: «دعينا نجد مكانًا أكثر هدوءًا لنتكلم».

انحرف الطريق بشدة باتجاه الغرب، وعندما لاح تمثال كوشينغا الغرانيتي المهيب، انعطفا إلى مدخل حديقة برايت مون.

كانت الفترة الأكثر حرًا من النهار، والساحات خالية إلا من جَدٍّ طويلٍ يُمارس التاي تشي تحت ظل شجرة قيقب. داعبت رائحة زهر العسل العنيفة مِنخريْ سان سان، ومزّق عطاسُها الصمت.

تبِعت الدكتور لي على الممر المؤدي إلى مقعد حجريٍّ مغطًى جزئيًا بجذع ثخين كثير العُقد لشجرة مطاط هندي، ثم مدّ رأسه متلفتًا ليتأكد من أن أحدًا لم يتبعهما.

لم تتمكن من لجمِ نفسها وقتًا أطول: «هل كتبت ماما إليكما؟ ماذا قالت؟»

فهز رأسه، ووقع قلبها.

لكن من ثم انحنى الطبيب مقتربًا منها: «أنصتي بعناية فائقة. الليلة، في تمام الثانية صباحًا، اخرجي من سريرك وتعاليْ مباشرةً إلى منزلي. لا تجلبي شيئًا، وتأكدي ألّا يراك أحد».

سألت: «ماذا؟»

فكرر توجيهاته.

«لكن لمَ؟»

فرفع سبابته: «سأترك المدخل الجانبيَّ مفتوحًا. لا تذهبي إلى الباب الأمامي ولا تضربي الجرس. أهذا واضح؟ لا تضربي الجرس مهما كانت الظروف».

أفزعتها حدّة كلام الطبيب. لم تكن قد رأته هكذا قط.

سأل مجددًا: «أهذا واضح؟»

فأومأت برأسها.

«أرني ساعتك».

مدّت سان سان الرسغ حاملَ الساعة التي أرسلها أبوها لها في عيد ميلادها الماضي.

تحقق الدكتور لي من تطابق ساعتيْهما: «لا تغطي في النوم، ولا تتأخري».

فقالت: «لن أفعل، لكن لمَ؟»

مدّ رأسه ليتحقق من الطرف الآخر للشجرة قبل أن يتكلم مجددًا، وهذه المرة بهدوء شديد إلى درجة أن سان سان ظنَّت أنها ربما قد تخيّلت الكلمات: «سنأخذك إلى أمك».

صار جسمها ساخنًا وباردًا في آنٍ واحد، وشعَرت بدَوخة النشوة.

جعلها الطبيب تردد توجيهاته مرتيْن حتى رضيَ، لكن سان سان كانت بحاجة إلى المزيد من الأجوبة: «هل أرسلت ماما في طلبي؟ هل أنت قادم معي؟ والخالة روز أيضًا؟»

ابتسمت شفتا الدكتور لي لكن عينيْه كانتا حزينتيْن: «بل أنتِ قادمة معنا».

لم تستوعب سان سان لمَ قد يحتاج الدكتور لي والخالة روز إلى الرحيل إلى هونغ كونغ، لكن كان ثمة أسئلة أكثر إلحاحًا في ذهنها: «كيف حال أبي؟ كيف سأعبر الحدود من دون تصريح خروج؟»

أخذ الدكتور لي وجهها بين يديْه وقال: «هذا يكفي، تأكدي من الالتزام بتعليماتي وحسب»، ونهض منطلقًا عبر ممر الحديقة، ولم يكن لديها خيار إلا اللحاق به.

عندما مرّا بالعجوز الذي يمارس التاي تشي، صاح الدكتور لي: «يوم جميل، أليس كذلك؟»، فأبدى الرجل ابتسامة متكلِّفة.

عند مدخل المنتزه، وقف الدكتور لي وسان سان في الظل الطويل لتمثال كوشينغا.

وقال الدكتور لي: «عليّ العودة إلى المشفى، أيمكنك الذهاب إلى المنزل بمفردك؟»

فقالت سان سان، محاولةً محاكاة هدوئه: «بالطبع».

فربّت على رأسها ومشى مبتعدًا. اتكأت سان سان على القاعدة الحجرية للتمثال ورفعت نظرها محدقة إلى البطل المحلي الأسطوري، معجبةً بالنتوء العازم لذقنه ونظرته الضارية الحازمة.

كانت جدتها قد حكت لها قصة المحارب الشجاع الذي عاش على جزيرة درَم ويف منذ مئات السنين، وقتما سيطر الهولنديون الجشعون

على جزيرة تايوان المجاورة. واضعًا هدف تحرير جيرانه نصب عينيْه، جنّد كوشينغا خمسة وعشرين ألف رجل ودربهم، وذات صباح مغشًّى بالضباب قرابة نهاية الرياح الموسمية الشمالية، عبر ورجاله مضيق تايوان. استيقظ الهولنديون ليروا أسرابًا من الصواري الكثيفة إلى درجة أنهم لم يروا المحيط من تحتها، لكنهم حافظوا على هدوئهم، فرغم كل شيء، كانوا قد ساعدوا على تخليد الشائعة القائلة إن الجنود الصينيين كانوا جبناء رموا أقواسهم ونبالهم وفروا عند أول هبّة لرائحة البارود، وتمادوا في إشاعتهم حتى تبجحوا بأن خمسة وعشرين صينيًا لم يضاهوا قوة جندي هولندي واحد.

مسنودًا بهذه المعتقدات، زحف العقيد البحري الهولندي ببضع مئاتٍ من رجاله مباشرةً لمواجهة الجنود الصينيين المدرعين بالكامل، فأطلق الصينيون إعصارًا هائلًا من النِبال قلبَ النهار ليلًا، وردًّا على ذلك، رمى الهولنديون ثلاث رشقات بكل ثقة. لكن لعظيم دهشتهم؛ لم يُبد الصينيون أيَّ علامة ذعرٍ وتابعوا هجومهم، فألقى الهولنديون أسلحتهم وانسحبوا، لكن الصينيين لم يرتاحوا حتى نحروا مئة وثمانية عشر هولنديًا، إلى جانب عقيدهم المغرور.

عقب انتصاره، منح كوشينغا الهولنديينَ الخيار: إما تسليم المنطقة، أو إجباره ورجاله على اقتحام حصنهم. لم يرَ الهولنديون من فائدة في تأجيل المحتوم، وتنحّوا عن تايوان بعد ثمانية وثلاثين عامًا من الحكم القسري.

وقتما كانت سان سان وأخوها أصغرَ سنًّا، كانوا يقضون ساعات في فناء الفيلا يعيدون تمثيل المعركة الملحمية بجيوشهم الوهمية. عادةً ما كانت اللعبة تبدأ بجدالهما حول من سيلعب دور كوشينغا، ودائمًا ما كانت سان سان تخسر.

والآن، بالعودة إلى الماضي، عرفت سان سان أن أخاها كان على حق، فقد كانت صغيرة جدًّا، وضعيفة جدًّا، ومحض فتاة لا تجسّد شجاعة كوشينغا وشراسته بأي شكل. هي لا تستحق حتى الاستراحة في رقعة الظل هذه تحت نُصب البطل؛ فخطَت خطوتين إلى الأمام مستسلمةً للهيب الشمس. كرهت عائلتها لتركهم إياها، ولتأخيرهم عودتَهم دون اعتذار حتى، لكنها كرهت نفسها أكثر؛ كرهت عجزها عن حفظ غضبها منهم، ورغبتها الجارفة البائسة بالجري صوب أمها.

14

نقر تشاي خرزات المِعداد صعودًا ونزولًا، مرارًا وتكرارًا، كما لو كان بمجرد إجراء الحسبة مرةً أخرَى سيصير المجموع صحيحًا وسيتمكن من دفع رواتب عمّاله. خلال الشهر الماضي، كان قد سرّح ثلث خيّاطاته، واستبدل ببعض من أكثرهنّ إخلاصًا ومهارةً، لاجئينَ جُددًا من البر الرئيسي مِن مَن يعملون مقابل نصف الراتب. ومع ذلك، ألحّ أولد وو عليه أن يفعل المزيد، رغم أن تشاي كان من الناحية التقنية رئيسه، لكن لأن أولد وو كان قد أُرسل من قِبل والد تشاي ليوجهه في تأسيس عملِ هونغ كونغ، فقد عيَّن نفسَه حاملًا لحكمة الرئيس الراحل. كانت كل عبارة تغادر شفتيه تبدأ بـ «لو كان الرئيس أونغ ما يزال معنا، ليرقد بسلام...»، لكن حتى الرئيس أونغ المبجّل لم يكن ليقدر على توقُّع ما سيحيق بما كان ذات يومٍ تجارة أزياء رسمية ثابتة، بعد أن انتقلت مصانع ملابس البر الرئيسي إلى هونغ كونغ في جموع هائلة.

ضجّ الهاتف بجانب تشاي بالحياة، فرفع السماعة وسمع صوت سكرتيرته: «إنه السيد تام مجددًا يا سيدي».

خبطَ السماعة بجمجمته، وللحظة وجيزة، تكتّل انتباهه حول بقعة الألم تلك وحدها، فاسترخى.

«سيدي؟ هل أنتَ معي؟»، لم يُسمع صوت ويندي عبر التلفون فحسب، بل عبر الباب أيضًا، وكان التأثير المزدوج مُربكًا، مثل رؤية المرء انعكاسَه متكررًا في بيتٍ من المرايا.

«سيدي؟»

زفر زفرةً طويلة بطيئة ليسوّي أيَّ آثار توتر من صوته: «أخبريه أنني في اجتماع، وأنني سأتصل به في أقرب وقت ممكن».

«لقد أخبرتُه ذلك آخر مرةٍ يا سيدي».

صرّ على أسنانه: «أقدّر تذكيرَكِ إياي».

كان على وشك أن يغلق الخط عندما قالت سكرتيرته: «إن الأمر فقط أن السيد تام طلب أن أخبرك أنه سيكون مجبرًا على الاتصال بمنزلك والتكلم مع الآنسة لولو إذا كنتَ عاجزًا عن تلقي مكالمته الآن».

مُنهارًا على مكتبه، تخيل تشاي استجماع كامل طاقة جسده الموجوع المُضنى الآخذ في الاكتهال، وقذف الهاتف مباشرة إلى الجدار، وقال: «ضعيه على الخط».

سُمع صوت تحويل الخط.

وصاح تشاي، مبالغًا في ودّه إلى حد السخافة: «سيد تام، كيف عساي أخدمك؟»

أطلق صاحب المُلك صوتًا بذيئًا: «بالله عليك، دعنا لا يُهدر أحدُنا وقت الآخر يا سيد أونغ».

فاتخذ تشاي نبرةً هادئة عقلانية: «كلانا رجل أعمال، ونفهم مدّ السوق وجزره، وقد صارت تجارة الأزياء الرسمية عسيرةً في الآونة

الأخيرة»، كان يتكلم سريعًا خشية أن تجري مقاطعته، وخشيةً مما قد يقوله صاحب المُلك، «وإن استجلاب عائلتي من البر الرئيسي إلى هنا لم يكن رخيصًا. لكن بمجرد أن تستقيم أموري المالية، سيسعدني أن أدفع لك إيجار ستة أشهر مقدمًا تعويضًا عن هذا التأخير».

فقال صاحب المُلك: «أمهلك حتى نهاية الشهر. أكره أن أقول هذا، لكن إن لم أحصل على المال، فسيكون لزامًا على عائلتك إجراء ترتيبات معيشة أخرَى».

نزل تشاي ببصره محدقًا إلى السماعة غير مصدق، فقد كان رجل أعمال محترمًا من عائلة مرموقة، وكان فاعلًا ومحبوبًا في المجتمع، فكيف يجرؤ هذا الرجل أن يعامله معاملةَ مدينٍ مستَضعفٍ مثيرٍ للشفقة!

«سيد أونغ؟ هل جعلتُ كلامي واضحًا؟»

«ستحصل على مالِك». صفق تشاي السماعة بقوة كانت كافية ليهتز مكتبه، وأمسك المنفضة الكريستالية قبل أن تسقط عن حافته.

أشعل سيجارة وأعاد المحادثة في رأسه، وانثنَت يده الحرة بينما تخيَّل تطويقَ رقبة صاحب المُلك العجفاء الموترة. كان أكثر ما كدّره شيئًا لم يقله تام له مباشرة حتى: التهديد بالاتصال بعشيقته.

بعد أن تيتّمت لولو في الثانية من عمرها، تربَّت على يد عمٍّ ثَري شغوف وكأنها ابنته، وعندما اكتشف العم العلاقة الناشئة بين لولو وتشاي، هدد بالتبرُّؤ منها، ومن يلومه؟ فتشاي كان رجلًا متزوجًا، وكانت لولو في حُكم الموعودةِ للزواج من الابن الأوسط لعائلة لو، وهم مطورو ملكية نافذون كانوا ليصيروا حلفاء نافعين. لكن حتى آنذاك، كانت لولو عنيدة ومستقلة بضراوة، فأخبرت عمها أنها - وبخلاف بنات عمها المُذعنين

الخانعين - لا يمكن شراؤها بماله القذر، وحزمت حوائجها وانتقلت للعيش مع تشاي، الذي كان في الوقت نفسه مرعوبًا وحائرًا إزاء سلوك عشيقته الشابة، فقد كان يعرف أن جهل الشباب هو ما عزز شجاعتها. لم يكن عمرها إلا سبعة عشر عامًا، ولم تُدرك ما تخلّت عنه: أولاد عمها الذين اعتبرتهم إخوتها وأخواتها، والأصدقاء الذين لم يعودوا يرونها في مستواهم، والأمان المادي الذي لم تعِش من دونه في حياتها. لكن تشاي كان متأثرًا برغم ذلك، وفي ليلتهما الأولى معًا، لفّ يديه على خصلات شعرها المجعد البنّي المائل إلى الحمرة – الذي ورثته عن أم جدتها الفرنسية – وتعهد أنه سيعتني بها دائمًا مهما كانت الظروف، فسخرت من جديّته قائلة: «حسنًا، هذا حقًّا أقل ما يمكنك فعله».

بمرور الوقت، اعتاد الناس على رؤية تشاي ولولو معًا، وتلاشت الفضيحة. نسي رفاق لولو القدماء ما كانوا محتدّين لأجله وعادوا يدعونها إلى مأدبات الغداء وحفلات الشاي خاصتهم، وبعد أن توفيَ عمها، عادت ابنة عمها سينثيا، التي كانت الأقرب إلى لولو، إلى التواصل معها. لم ترث لولو شيئًا، لكن ما أهميّة ذلك وتشاي يملك أكثر مما يكفي لكليهما؟

والآن، راح يتساءل كيف أمكن أن تخرج أمواله عن السيطرة إلى هذا الحد، فقد كان أحذَق إخوته، وأكثر من وثِق أبوه به بينهم، وكان قد كُلف بعصرنة عمل العائلة وتنميته، ولم يشكّ أحد في أنه سينجح، فمتى إذًا فقد حِذقه، لمسَته الذهبية؟

كان قد سمع الثرثرة بالطبع، وعرِف أن رفاق لولو أولاء زعموا أن الرئيس أونغ كان يتخذ كل القرارات وتشاي لا يعدو كونه يطبقها، وربما كان ثمة نتفة حقيقة في ذلك، فقد كان والده روحًا جبارةً متسلطًا، دائمًا ما يحصل على ما يريد. عقب وفاته، قام تشاي ببضعة استثمارات

مجازفة على نحو غير معهود، لم تلقَ نجاحًا، مثل الفندق الفاخر في ماكاو الذي أغلق أبوابه قبل أن يفتحها. عند التأمُل في الماضي، كان يرى هذه الزلّات الشائنة في التقدير على حقيقتها: تمرّد متأخر ضد نهج والده المُحافظ الثابت، لكن ذلك صار في الماضي، وبقليل من الوقت، سيقلب الأمور رأسًا على عقب.

بيد أنه يحتاج إلى المال الآن، ولا مُرابيًا في كل مونغ كوك سيعطيه سنتًا آخر، فخطرت في باله فكرة جامحة: ماذا لو سبق تام وأخبر لولو بنفسه؟ ربما يمكنها طلب قرض من ابنة عمها سينثيا، لكنه كان قادرًا على سماع رد لولو الذاهل مسبقًا، كانت لتقول مغضّنةً جبهتها: «ماذا تعني؟ ماذا فعلتَ بكل مالِك؟»، كما لو أن ماله قبعة أو زوج نظارات، أو شيء محمول يمكنه أن يضيّعه بسهولة، وما كان أعظمَ من رغبته في أن يجنّبها القلق هو كُرهه لمواجهة خيبة أملها وهلعها.

كانت لولو قد ذكرته الليلة الماضية بحفل الصليب الأحمر المقبل، وهو واحد من أكبر الأحداث الاجتماعية في العام، فارتكب تشاي غلطة الإعراب عن ازدواجيته، ولم تكن ردة فعلها رحيمة.

قالت: «لا أعرف ما الذي أصابك، أما زلتَ تهتمّ بي حتى؟ أما زلتَ تهتمّ بنا؟»، وقبضت على بطنها الحبلى بكلتا يديْها.

راح يحاول تهدئتها، فحتى هذا الوقت المتأخر من حملها، ظلت لولو هيفاء فيما عدا بطنها المنتفخ وكان عليها زيادة وزنها، ونصحها الطبيب بالابتعاد عن مصادر التوتّر كافةً في حياتها.

قال: «لا تعيريني اهتمامًا يا أرنبتي، كنتُ أتفوّه بالسخافات. سأدفع أجر طاولتنا المعتادة بالطبع».

لكن لولو كانت قد تجاوزت الأمر بالفعل: «اذهب إليهم إذا كان هذا ما تريده حقًّا. لستُ بحاجة إلى شفقتك».

كان هذا آخر ما يريده، وحاول جعلَ كلامه مسموعًا.

فقالت: «سأنام في غرفة الضيوف».

وعندما تبعها، مغلوبًا على أمره، نظرت خلفًا بطرف عينها وقالت بحدةٍ: «لا».

دوّى مجددًا رنين الهاتف العنيد، فانتزع تشاي السماعة: «بحق الله يا ويندي، أخبريه أنني خرجت من المكتب».

تهدّج صوتُ سكرتيرته: «سيدي، إنها ابنة.. ابنة.. إنها ابنة عم الآنسة لولو، وهي تقول إن الأمر طارئ».

لم تتصل سينثيا بالمكتب قبلًا، فسأل: «ما الأمر يا سينثيا؟ هل أنت مع لولو؟»

قالت سينثيا بهدوء: «إننا في مستشفى مونت سيناي».

فسَرت قشعريرة في جسده: «لمَ؟ ماذا حدث؟ هل لولو على ما يرام؟»

سمعَ عبر الهاتف صوتًا غريبًا مخنوقًا، واستغرق تشاي لحظةً حتى أدرك أن ابنة عم لولو الرزينة المتغطرسة كانت تبكي.

«سينثيا، أخبريني ماذا حدث أرجوكِ».

فقالت مختنقةً بدموعها: «بدأت تنزِف. لم يتمكنوا من إيقافه».

ضرب جبهته براحته. لمَ أزعج لولو بأمور توافه مثل تلك؟ كان ليتدبّر دفع أجرة عشرة طاولات إن كان ذلك ليبدّد هذا الأمر برمّته.

نطقت سينثيا مجددًا: «لقد مات يا تشاي!».

ورغم أنه كان يعرف، تمنى لو أنها لم تنطق الكلمات.

«سأكون هناك حالًا. ابقي مع لولو ولا تذهبي إلى أي مكان».

قالت سينثيا، هازئةً حتى في حزنها: «وأين عساي أذهب؟».

كان الطابق الخامس في مشفى مونت سيناي هو الرابع في الحقيقة، لكن البنائين تجاوزوا ببساطة الرقم المشؤوم الذي كان متجانسًا لفظيًّا مع كلمة «موت». عادةً ما كان تشاي ليسخر من مثال آخر إضافي على الخرافة الكانتونية، لكن في هذه الظهيرة بالتحديد، كان بحاجة إلى كل ذرة حظ يمكنه تحصيلها.

كانت سينثيا تذرع الردهة أمام غرفة لولو، وقالت بشيء من التحية: «إنها نائمة»، ولم تظهر سيماؤها المتحجرة أي أثر على انهيارها الآنف.

نظر تشاي عبر النافذة الصغيرة إلى الغرفة الباهتة، وهناك كانت لولو راقدة، ووجهها ممتقع مثل شراشف السرير المسدلة فوق بطنها الذي ما يزال ناتئًا.

قالت سينثيا: «سيرغب كلاكما في أن تكونا بمفردكما؛ لذا سأذهب. ما عليك إلا الاتصال بي إذا ما احتجتَ شيئًا».

«شكرًا للمساعدة يا سينثيا».

أومأت برأسها إيماءة خفيفة وتوجهت إلى المصاعد.

دخل تشاي غرفة لولو بأقصى ما أمكنه من الهدوء.

فانفتحت عيناها فجأة: «هذا أنت!».

مضى إلى جانبها وقبض على يدها برقّة: «كيف تشعرين يا أرنبتي؟».

أطلقت ضحكةً جوفاء.

كانت ما تزال صغيرة، وبوسعهما إنجاب طفل آخر. لم يبدُ هذا الشيءَ المناسب لقوله على الإطلاق، والحقيقة أن تشاي لم يشعُر إلا بقليل من العاطفة تجاه طفله غير المولود. كان الأمر كذلك مع ابنه

أيضًا، إلى أن رمى أحدهم اللفيفة النائمة بين ذراعيه وارتفع النشيج إلى حلقه ليدركه وهو غافل تمامًا. والآن، رغم ذلك، في هذه الغرفة العقيمة، تضخم حبه للولو حتى ابتلع كل شيء أحبّته، وشعر بألم في قلبه. كان يتوق إلى إرخاء راحتيه على تلة جوفها، إلى احتضان المساحة التي ملأها طفلهما، لكنه بدلًا عن ذلك اعتصر يدها، التي رقدت رخوةً في يده مثل شيء باردٍ ميت.

قال أخيرًا: «أثمة أي شيء تريدينه؟ أي شيء على الإطلاق؟»

فسحبت لولو يدها: «طلاقًا».

نظر إليها شزرًا. أكانت تهدد بتركه؟

فأخفضت جفنيْها نكايةً: «طلِّق زوجتَك وتزوجني».

في كل سنينهما معًا، لم يناقش تشاي ولولو الزواج ولا مرة واحدة. لم يكن بوسع لولو لومه على ظروف حدثت واستقرّت قبل أن تلتقي عيناها بعينيه في قاعة الرقص في قصر عمها، هي الجميلة المراهقة بذاك الشعر الفاتن، وهو أكبر أبناء عائلة أونغ من فوجيان الجنوبية وأكثرهم إنجازًا. وبالنسبة إليه، لم يكن ليهين لولو بأن يعرض عليها اتخاذها زوجةً ثانية.

هبط الآن على ركبتيه حتى تلاقت أعينهما: «أنت المرأة التي أُحب، لكنها امرأة طيبة، ولا ذنب لها في شيء من هذا».

أشاحت لولو بنظرها عنه بحزم: «إما نكون زوجًا وزوجة، أو نرجع إلى كوْننا غريبَين. هذان خيارانا الوحيدان».

كانت ربطة عنقه تخنقه على مهل، فانتزعها من عقدتها: «أرجوكِ لولو، كوني عقلانية». هي من كان ينكث العهود، هي من كان يخون.

«ظللتُ عقلانيةً عشرة سنوات، وقد سئمت من هذا»، جذبت ملاءتها حتى ذقنها وانقلبت إلى الطرف الآخر، وقالت وفمها محشور في مخدتها: «اذهب الآن، ستأتي سينثيا غدًا لأجلي وسأبقى معها حتى تتخذَ قرارًا».

حدق إلى انحناءة ظهرها غير مصدق: «أتبحثين عن سبب لهجري؟ لأنك تعلمين أنني لا يمكن أن أطلِّق سوك كون».

لم يكن قد نطق باسم زوجته أمام عشيقته قبلًا.

«إذًا، فقد اتخذت قرارك؟»

أمسك بكتفيها وحاول قلبها لتواجهه، لكن جسدها أجفل بكامله، فتركها: «أحبك. أحب حياتنا معًا، وسأحب أطفالنا، هذا ما قررته».

«إذًا أنت تعرف ما عليك فعله».

فبكى: «لولو، أرجوك».

مدّت يدها وقرعت جرسًا على منضدتها أصدر صوتَ رنين مبهج.

اندفع ممرض ضخم قوي إلى الغرفة: «كيف عساي أساعدك آنسة لولو؟»

«أرجو أن تصحب السيد أونغ إلى الخارج؛ أنا منهَكة».

فقال: «انتظري، لم ننتهِ بعد».

قال الممرض، ممسكًا بمرفق تشاي: «تعال معي الآن، فالسيدة لولو تحتاج إلى استراحتها».

نتَر يدَ الممرض عند مدخل الباب: «استريحي جيدًا يا لولو، سأعود في الصباح».

«لا ترجع حتى تتخذ قرارك».

فاحمرّ وجهه خِزيًا، وقال للممرض: «احرص على أن تحظى بكل ما تحتاج إليه».

«نحن نعتني بمرضانا جيدًا، لا يوجد شيء لتقلق بشأنه».

بعد أن تأرجح الباب منغلقًا، قالت لولو، كما لو كانت تحادث نفسها: «لم يسأل حتى ما إذا كان صبيًا أم بنتًا!».

تدفق الغضب في شرايين تشاي، ووقف هناك، مشتعلًا، فاردًا كفّه على الباب، راغبًا بالهجوم إلى الداخل مجددًا وهزّ لولو حتى تعود إلى رشدها، وراغبًا بالهرب عبر الممر من غير رجعةٍ أبدًا.

15

قبضت سان سان على هانسل وشدتها إلى صدرها، ثم تنشّقت شعرَ الدمية العابق برائحة السكاكر قبل أن تُخلدها إلى السرير. خلّصت نفسها من ثوب نومها لتكشف عن ملابس سفرها، كنزة قطنية خفيفة وبنطالًا ذا رباط، ولبست حذاءها القماشي. تحسست أسفل أكمامها بحثًا عن أسوارة جدتها وساعة أبيها. قال لها الدكتور لي ألّا تحزم أيَّ أمتعة، وقد أطاعته باستثناء رسائل أمها: محزومةً في منشفة صحون ومربوطةً بشريط ورديّ من الحرير المضلّع الذي مزقته من خصر فستانها المفضل.

شقّت صرخةٌ حادةٌ الصمتَ الهاجع في الخارج، وتوهّجت نوافذ عيادة الأمومة التي كانت مساكن الخدم سابقًا في الطرف الآخر من الفناء. أعان زوج من الممرضات امرأة لها بطن بحجم شوال الأرز في الدخول عبر الباب، وكانت المرأة تئنّ وتشتم زوجها والسماوات وحتى جنينها. كان هذا واحدًا من الأشياء التي لم تكن سان سان لتشتاق إليها، الصرخات المُلتاعة التي كانت تسافر عبر الفناء في كل ساعات النهار.

كم هو غريب كيف يمكن أن تكون الولادة موجعةً إلى هذا الحد وطبيعيةً تمامًا رغم ذلك!

وهي تقلّب نظرها في الغرفة، ألقَت سان سان وداعًا صامتًا على خزانة الكتب المبطنة بالمجلدات الملونة، والدولاب الطافح بالفساتين والبلوزات الرقيقة، وثوب نومها الشاحب المتراكم على الأرض مثل انعكاس متموّج للقمر على الماء. وبعد لحظة من التفكير، ركلت ثوب نومها تحت السرير بعيدًا عن الأنظار، ومشَت أخيرًا على رؤوس أصابعها عبر الشقة المعتمة إلى الباب الأمامي، وانكمشت خوفًا ما إن طقَّ المزلاج مستقرًا في مكانه.

كان الليل رطبًا ودافئًا، وكان ثمة مصباحان محترقان من مصابيح الشارع، فشعرت بالامتنان إزاء الظلمة الإضافية. حشرت ظهرها في الحائط الحجري المرتفع الذي سطّر الشارع، وراحت تمشي مُجانَبةً هابطةً التلة. سمعَت من مسافة صوتَ نعال جلدية تقرقع على الممشى الحصويّ، فاندفعت إلى زقاقٍ في الوقت المناسب تمامًا لتشاهد امرأةً، توهّج لباس الممرضات الأبيض خاصتها في ضوء القمر، تمرّ على بُعد بوصات منها، قريبةً إلى حد قد يمكّنها من التعرف عليها، فقد كانت المرأة كبيرةَ ممرضات العيادة، ولا شك أنها مسرعة للمساعدة في توليد المرأة الشاتمة.

لفّت سان سان المنعطف في أسفل التلة ولاحَ منزل معلمة البيانو. كانت الفيلا معتمة، وكان المُجمّع بأكمله محتجبًا في حجاب من الصمت لم يشُبْه إلا الدم الضارب في أذنيها. هل غادروا من دونها؟ هل توقفت ساعتها؟ رفعت قرص الساعة إلى أذنها، وساعدت تكّة عقرب الثواني المستقرّة بتسكين مخاوفها.

مثلما وعد الدكتور لي، كانت البوابة الجانبية مفتوحةً، والتفّت حول مؤخر المنزل لتنتظر. راحت السحُب تتجرف عابرةً القمر الأشبه بمروحة ورقية، وراحَت هي تتخيل المشهد الذي سيتفجر عندما تظهر في شقة عائلتها في هونغ كونغ، الدموع والصرخات والعناقات الخانقة. سيتوسّلون إليها أن تسامحهم، وسيعاملونها معاملةَ الأميرة.

سرعان ما سئمت من الوقوف وهبطت جاثمة على الأرض، وأخذت تقطّع وريقات الحشائش حول قدميها لتُسلّي نفسها عن الشكوك المحوّمة فوق حافة وعيها. عند الساعة الثانية ونصف، وقفت ومططت ساقيها وجاهدت لتلتقط أيَّ علامة على وجود حياة في الفيلا، وشعرت بالألم في محجري عينيها من الإرهاق. لمَ فكرت بالاعتماد على الدكتور لي والخالة روز بعد ما كانت أمها قد فعلته؟ إذا ما سارعت إلى المنزل الآن وعادت إلى الفراش، فلن يشكّ الخدم في شيء. وفجأة، اشتاقت سان سان إلى موي، التي بالغت في الاهتمام بها وقتما فقدت شهيتها، والتي هددت بجعلها تغسل ملابسها لكنها لم تنفّذ تهديدها قط.

صرّ الباب الخلفي للمنزل منفتحًا، وبزغ رأس الطبيب منه. ابتهجت سان سان أشد الابتهاج، وكانت لتصرخ لو لم يضع سبابته على شفتيْه. تراجع الدكتور لي ليسمح للخالة روز بالمرور، فركضت سان سان إليها وعانقتها بضراوة، لكن الدكتور لي كان يشير إليهما مسبقًا لتتبعاه.

قادهما خروجًا من البوابة الجانبية إلى الحارة الضيقة، وخرج جسمان آدميان من الظلال ولوّحا لهم ليصعدوا في عربة يد خشبية كبيرة تشبه تلك التي تُجر جيئة وذهابًا في مواقع البناء. تساءلت سان سان كيف تدبرا نقل العربة من دون أن يوقفهما الجيران المتطفلون!

كان الرجلان يلبسان ثياب عمل فظة، لكنهما كانا شابيْن حسنيْ الشكل يبدوان أشبه بطلاب الجامعة من العمال. صافحا الدكتور لي

وكلماه بأصوات خفيضة، ثم ساعدا سان سان والخالة روز على الصعود إلى العربة، وتسلق الدكتور لي إليها بعدهم.

قال واحد منهما للدكتور لي: «كل شيء مضبوط كما يجب. ابحث عن السفينة التي تحمل الراية الخضراء في ميناء شيامن. سيكون رجلُنا هناك ليدبّر صعودكم على متنها».

تأرجح الرجل الآخر بجوار رأس سان سان، وتريّثت عيناها على الصليب الذهبي البرّاق المتدلي في فتحة قميصه. كان مغروزًا على الصليب الجسدُ الضامر المَوتور لرجل أجنبي عارٍ إلا من خرقة صغيرة معقودة على خصره. لم تتمكن سان سان من تذكُّر الشخص الذي يُفترض بالجسد أن يمثله، ولا لمَ كان الصليب رمزًا غير مُشجِّع، لكن بمنأى عن كل ذلك، تساءَلت لمَ قد يرغب أي شخص باقتناء شيء بهذه الشناعة!

سألت الخالة روز: «ماذا لو غادرت السفينة من دوننا؟»

جمدُت سان سان، إذ لم يخطر لها أن أمرًا كهذا وارد الحدوث.

فقال الدكتور لي: «لن تفعل».

- لكن ماذا لو فعلت؟

- سنصل إلى شيامن ومعنا فائض من الوقت.

- لكن ماذا لو غادرت مبكرًا؟

انحنى الرجل ذو قلادة الصليب مقتربًا: «لن ترجع السفينة قبل أسبوعين».

مد الدكتور لي يده إلى الخالة روز، لكنها أدارت وجهها عنه. تساءلت سان سان ما عمل الطبيب ومعلمتها في هونغ كونغ، فبالتأكيد لا يمكن أن يخوضا هذه الرحلة لمرافقتها إلى عائلتها وحسب.

أخبرهم طالبا الجامعة بأن يستلقوا ويبقوا في غاية الهدوء. كان ثمة غطاء من قماش القنّب مسدلٌ فوق العربة، فكممت سان سان أنفها وفمها بيديْها وراحت تصلّي ألا تعطس. انطلقوا عبر الحارة، ثم فوق مسافة قصيرة من الحصاة الوعِرة إلى درجة أن سان سان حررت يدًا رغمًا عنها لتتشبث بمقبض على جانب العربة.

صار الجو أسفل الغطاء ساخنًا ومختنقًا.

قال الدكتور لي للخالة روز: «لسنا أول أشخاص يساعدونهم».

تخبّطت العربة فوق حفرة في الطريق، وأفلتت سان سان المقبض في ذهول وقُذفت باتجاه معلمتها مباشرةً.

همست: «آسفة!»، لكن الخالة روز جذبتها بشدة. كانت معلمتها تعبق برائحة صابون خشب الصندل، وبرائحة العرَق، لكن على نحو غير كريه.

قالت سان سان باستحياء: «أنا سعيدة لأننا معًا».

ضغطت الخالة روز بشفتيها على تاج رأس سان سان وتكلمت في شعرها: «لم نقدر على المغادرة من دونك».

ارتطمَت الكلمات في أعمق أعماق سان سان، مثيرةً غزارة ضبابية من الامتنان والمرارة، من البهجة والحُرقة.

توقفت العربة وأخفض الطالبان الغطاء. كانوا فوق جرف مطلٍّ على المياه، على طرف الجزيرة المعاكس لمرسى العَبّارات. وبدلًا عن الطريق الواسع المُعبد المؤدي إلى أحواض السفن، كان ثمة سفح منحدِر على نحوٍ معذَّبٍ تكسوه أعشاب تصل إلى مستوى الخصر، ومتناثرة فيه الجلاميد المسنّنة هنا وهناك.

لا بدّ أن الذعر قد بدا على وجه سان سان؛ لأن الرجل ذا قلادة الصليب قال بنبرة اعتذارية: «هذا هو المكان الوحيد الذي أمكننا ربط قاربٍ فيه دون أن نُلحَظ».

وبالفعل، كان ثمة قاربُ صيدٍ متداعٍ في المياه مربوط بصخرة كبيرة. ذكّرت سان سان نفسها أن ميناء شيامن لا يبعُد إلا بضع مئات من الأمتار، وهي مسافة ربما بوسعها سباحتُها، إذا ما بلغ الأمر ذلك المبلغ.

ومجددًا، تصافح الرجال، ومن ثم شمّر الدكتور لي كمّيْ سترته وقال: «هيا بنا».

شعرت سان سان بوخزة بين ساقيها.

فتوقفت الخالة روز: «ما الأمر يا سان سان؟»

والتفتَ الدكتور لي.

هزّت سان سان رأسها، لكنّ الإحساس صار أقوى، فقالت بصوت صارّ: «أظن أن عليّ التبوّل».

ابتسمت معلمتها، ما لم يفعل إلا زيادة إحراج سان سان.

قالت الخالة روز: «لا بأس. اذهبي خلف تلك الشجيرات، لن يراكِ أحد».

فأسرعت سان سان، غير مكترثة بأوراق الأعشاب التي كانت تثقب رَبلتيْها عبر القماش الرقيق لبنطالها. نزعت رزمة الرسائل من تحت حزامها ووضعتها على صخرة قبل أن تُنزل بنطالها. مرت بضع لحظات قبل أن تسترخي بما يكفي لتبول، وعندما انتهَت، راحت تبحث عن ورقة عشب ذات حجمٍ ملائم.

سرّها أنها لم تحاول حصرَ بَولها، وشعرت بنفسها أكثر هدوءًا بكثير، لكن بدا أن نبض قلبها يعلو أكثر فأكثر، حتى لاحظت أن الطَّرق الموزون

كان قادمًا من مسافة قصيّة، كما لو كان موكبًا أو حشدًا سياسيًّا، رغم أن لا شيء من هذا القبيل يمكن أن يحدث في هذه الساعة. اهتزّت الأرض تحتها اهتزازًا طفيفًا، ثم صار أعنف، ثم تحوّل الطرق إلى خبب أحصنة متسارع.

صاح رجل: «ضعوا أيديكم فوق رؤوسكم».

صهل حصان كأنه يكرر الأمر.

وقعَت سان سان خلفًا على وركها العاري، ثم جذبت بنطالها بقوة وانكمشت على نفسها مثل كرة مشدودة.

«امشوا باتجاهنا».

كان بوسعها اشتمام الرائحة الواخزة الآسنة المنبعثة عن أجساد الفرسان ووحوشهم. لا بدّ كان هناك ما لا يقل عن ستة رجال.

قال الدكتور لي، وكان صوته هادئًا على نحو صادم: «أيها الرفاق، أخفضوا هراواتكم. إن هذا كله سوء تفاهم».

فقال الرجل الذي كان من الواضح أنه القائد: «اخرس! لا يمكنك النجاة من هذا بالكلام، قيدوا معاصمهم».

تابع الدكتور لي بتمهّل: «كلكم تعرفون أنني طبيب، ولست قاطع طرق، وزوجتي هذه تعلّم البيانو».

قال أحد الطالبيْن مرتجفًا: «نحن نرتاد الجامعة».

أسكتَت ضربةُ هراوةٍ الطالبَ، وصرخت الخالةُ روز.

فقال القائد: «اخرسوا جميعًا. خذوا ثلاثتهم إلى المقر، وأنا سآخذها».

فصرخت: «لا، أرجوك لا!»

وفقد صوت الدكتور لي كل اتزانه: «لن أذهب إلى أيٍّ مكان من دون زوجتي».

ومجددًا، الصوت المقزّز لهرواة تقترن بجسد. كانت سان سان ترتجف أشد ما يكون، وخشيت أن يتمكنوا من سماع صوت اصطكاك أسنانها عبر جدار الشجيرات الذي يُخفيها.

«انظر حولك أيها الطبيب، أيبدو هذا مستشفًى؟ لم تعُد مسؤولًا بعد الآن».

عضّت سان سان على شفتها السفلى، خائفةً مما قد يبُدر منها.

قال الطالب الآخر: «أيها الرفاق، أرجوكم تحلوا ببعض الرحمة»، ما أكسبه ضربةً أيضًا.

فقال القائد: «هذا يكفي! نحن نهدر وقتنا، فلنذهب».

شعرت سان سان بطعم الدم حيث مزّقت أسنانها شفتها، وانتظَرت حتى تلاشى خببُ الأحصنة، ثم انتظرت قليلًا بعد.

في وقت لاحق، لاحق جدًّا، عندما تجرأت أخيرًا على فتح عينيْها والخروج من مخبئها، كانت الشمس قد بدأت تشرق فوق المياه، وما كان عشبًا مُهددًا ثاقبًا في ما مضى صار متمايلًا برقة مع النسيم. كانت العربة الخشبية مقلوبةً على جانبها، وقماش القنّب المغبّر متشابك في محاور عجلاتها.

مغطيةً عينيها براحة يدها، حدقت سان سان إلى القارب المتداعي أسفل السفح المنحدر. كان من الخطر جدًّا أن تحاول التجديف بنفسها إلى شيامن في وضح النهار، وحتى لو نجحت بتجاوز القناة بطريقة ما من دون أن تُرى، فربما قد غادرت السفينة ذات الراية الخضراء بالفعل. وإن كانت تلك هي الحال، فكيف لها أن تنجوَ بمفردها في المدينة لأسبوعين كاملين؟

لكن العودة إلى المنزل كانت محالًا، فبحلول هذا الوقت سيكون الخدم قد أبلغوا عن فقدانها، وربما اكتشفت السلطات بالفعل خُطتها للهرب مع الدكتور لي والخالة روز. لم تعرف سان سان ما إذا كان الأطفال يُرسلَون إلى معسكرات العمل القسري، ولم تكُن تنوي اكتشاف ذلك.

كان خيارها الوحيد هو الاختباء على الجزيرة ريثما يُطلق سراح الدكتور لي والخالة روز، وبصرف النظر عما قاله القائد الشرير، كانت سان سان مؤمنة بأن الدكتور لي قادر على إقناع السلطات بإطلاق سراحه والخالة روز، فقد كان يعرف كل مسؤولي الحزب من المراتب العليا، وربما كان قد أنقذ حياة بعض منهم. في الحقيقة، على الأرجح أن الحزب سيعاقب هؤلاء الرجال الأشرار على ما اقترفوه، وبمجرد أن يطلق سراح الدكتور لي والخالة روز، ستذهب سان سان معهم، وسيكون بوسعهم التوصّل إلى خطوتهم التالية. وحتى ذاك، ستتصيّد سمك الرعاش الأصفر في خليج فلوريشينغ بيوتي، مثلما فعلت وأخوها الصيف الماضي. كانت لتشويَ السمكات الصغار على النار، وربما تنام على الشاطئ مباشرةً.

هدَرت معدتُها، إذ أنها لم تذُق أيَّ طعام منذ وقت طويل. كان كل هذا الجانب من الجزيرة غير مأهول، باستثناء كلية الفنون على طريق تشيكن هيل. بدا لها أنها تتذكر شجرة لونجان تحيط ببوابات المدرسة، وحينما يكون الجوار خاليًا، ستتسلق وتسرق الفاكهة.

في طريقها إلى الكلية، رفعَت هبّة ريح طرف قميصها، فمدت يدها وتحسست حزام بنطالها، ولم تجد رسائل أمها. وبينما أسرعت في الاتجاه الذي جاءَت منه، راحت تصلي ألّا يكون هؤلاء الرجال قد عادوا، لكن حينما وثبت خلف الشجيرات، كانت الحزمة في المكان الذي وضعتها فيه تمامًا، راقدة على الصخرة مثل عظاءةٍ تحت ضوء الشمس.

16

بعد طول انتظار، وصلت رسالةُ سان سان إلى هونغ كونغ:

عزيزتي ماما،

يؤلمني إبلاغك أن كوك يتصرف بطريقة في غاية السوء. أيمكنك تصديق أنه استولى على غرفة نوم جدتي؟ إنه حقًا ينام في سريرها! أخبرته أن جدتي ستغضب، لكنه ضحك وحسب! أظن أن عليكِ العودة إلى المنزل، رغم أن الخالة روز أخبرتني أن بابا ما يزال مريضًا وأنك قد تضطرين إلى البقاء في هونغ كونغ لمزيد من الوقت. كيف حال بابا؟ لمَ لم تخبريني أنك ستتأخرين؟ متى سترجعين إلى المنزل؟

ابنتكِ المُحبّة،

سان سان

تذييل: كوك وموي يدعوان المستأجرين في الطابق السفلي للعب الشدّة في صالة استقبالنا، ويتسببون بالكثير من الصخب! حتى في ساعات الليل المتأخرة!

تذييل التذييل: رأيتهم يضعون أقدامهم القذرة على كراسينا!

تذييل تذييل التذييل: المطبخ خبيصة! مكدس بأكوام الصحون القذرة التي نادرًا ما تغسلها موي.

تذييل تذييل تذييل التذييل: أرجوك ارجعي إلى المنزل قريبًا.

حدقت سوك كون إلى السطر الأخير حتى انطمست الأحرف ببعضها. كان الاغتياظ من تمرّد الخدم عديمَ الجدوى؛ بخاصة في وقت توجد فيه أشياء كثيرة أخرى تستدعي القلق. كل ما يهُم أنهم يعاملون سان سان معاملةً حسنة، لكن كيف لها أن تضمن ذلك من كل تلك المسافة؟ أعليها كتابة رسالة سريعة إلى الخدم تتعهد فيها بإيجاد وسيلة لعقابهم إذا ما أساؤوا معاملة ابنتها؟ أعليها أن تطلب تدخّل روز؟ لكن سوك كون عرفت أنها إذا ما أغضبت كوك وموي، فسينفّسان عن غضبهما في سان سان. أعليها إرسال المال إذًا؟ ما يكفي لشراء لُطفهما، لكن ليس إلى حد يصيران معه جشعيْن وقاسييْ القلب. كم بالضبط سيكون ذلك المبلغ؟

كانت حماتها تلعب الماه جونغ في الجمعية الفوجيانية، وكانت مشاعر الحسد والاستياء تجاهها تتناوب على سوك كون كلما غادرت الشقة. وحتى لو كانت في المنزل، فأي نصيحة يمكنها تقديمها؟ بي كيم التي كانت مستبدة برأيها فيما سبق كانت تائهةً مثلها، مذعنةً لتشاي عند كل منقلَب. في إحدى الليلات الآنفة، بعد أن جلست سوك كون إلى طاولة العشاء تنسخ حكاية خرافية أخرَى من أجل سان سان، رنّمت حماتها: «تربية الإوزّ خيرٌ من تربية البنات». كانت مقولة قديمة مبتذلة، لكن سوك كون التفّت ناحيتها محتدمةً غضبًا، ولمحت الدمعة اليتيمة تشق طريقها نزولًا على وجنة حماتها المجعّدة.

ألقت سوك كون نظرةً على ساعة الحائط. للوقت الحالي، سيكون عليها وضع الرسالة جانبًا. ردّ خيالها المُدنَف في مرآة زينتها النظرةَ،

جرّت فرشاةً عبر شعرها، ورشت البودرة على جبهتها وأنفها، وسوّت تجعّدات حاشية شيونغسامها المزهّر الجديد.

لم تعرف لمَ أرسل القس في طلبها اليوم. كل ما قالته سكرتيرته عبر الهاتف هو أن الأب ليونغ قد طلب لقاءً، ويفضّل أن يكون مستعجلًا. انحنَت سوك كون مقتربةً من المرآة وحثّت بشرتها الممتقعة المتقشّرة قبل أن تنزع غطاء إصبع أحمر الشفاه الذهبي الوسِخ الذي كانت قد اكتشفته في أعماق حقيبتها. مرّت سنوات منذ آخر مرة وضعت فيها أحمر الشفاه، وعندما مدّت الطبقة الخفيفة من الظل القرمزي، لم يسعها إنكار شبهها بمغنية في أوبرا بكين، فنتشَت منديلًا ومسحت الطلاء المبَهرَج.

خططت أن تنسلّ من دون أن تُلحَظ، لكن حينما جذبت الباب الأمامي، كانت بي كيم هناك مع الخادمة التي رافقتها إلى كل مكان.

سألت حماتها: «خارجة؟»

اجتسّت سوك كون خصلةً من شعرها: «لديّ موعد».

«أين؟»

«في الكنيسة». استجمعت سوك كون قوتها استعدادًا لمحاضرة بي كيم المعهودة حول كيف أنها بحاجة إلى الإنصات لتشاي، وكيف لا يهتم أولئك المسيحيون إلا بتحويلها إلى دينهم، واسترقت النظر إلى ساعتها.

فحصت بي كيم طولَ قامة سوك كون: «فستان جديد؟»

احمرّت سوك كون خجلًا: «فكرتُ في أن عليّ شراء بعض الملابس المصممة لهذه الرطوبة»، لم تتوقع أن الألوان ستكون زاهيةً إلى هذا الحد، «ألم يعجبكِ؟»، كرهت نفسها لأنها سألت.

قالت بي كيم: «وما الذي أعرفه عن الموضات الدارجة؟»

أخفضت الخادمة نظرها بصمت.

لوهلةٍ، فكرت سوك كون بتبديل ملابسها، ثم تمالكت نفسها وقالت: «لن أطيل الغياب»، وتقدّمت متجاوزةً حماتها.

في سيارة الأجرة في طريقها إلى الكاتدرائية، قلّبت سوك كون في رأسها كل الأسباب المحتملة لهذا اللقاء. ربما عرف القس بتغيرات مقبلة في سياسات الحدود، وربما كوّن علاقة جديدة مع البر الرئيسي. في كل مرة كان الأمل يندفع عبر سوك كون، كانت تنبّه نفسها بصرامة ألّا ترتجي شيئًا. على الأرجح أن القس يريدها أن تعيد التفكير بعرضه وتستفيد من مهارات البيانو خاصتها في مرافقة جوقة الأطفال، لكن لمَ قد يتطلب ذلك لقاءً شخصيًا عاجلًا؟

عندما دخلت سوك كون مكاتب الكنيسة، قالت السكرتيرة: «يا له من ثوب جميل!».

شعرَت بتزايد حرارة وجنتيْها. كيف أمكنها إهدار المال والوقت على شيء تافه مثل الملابس بينما تعاني ابنتها ما تعانيه؟

«الأب ليونغ ينتظرك. تفضلي حالًا».

مسحت سوك كون راحتيْها الرطبتيْن على الكرسي، لتدرك متأخرةً أنها بقّعت الحرير، وطرقت باب الأب ليونغ.

«تفضل».

كان القس يعيد كتابًا إلى رف عالٍ، وعندما التفَت، خضّها مرةً أخرَى تراصُفُ شعره الفضي ووجهه الأملس.

وقالت: «صباح الخير يا أبتِ».

«مدام أونغ، شكرًا لقدومك إثر إخطار قصير المدة كهذا». صافحها القس، وكانت راحته باردة وجافة مقابل جلدها النديّ.

«أنا من يجب أن يشكرك لتخصيصك وقتًا لي».

أشار لها أن تتخذ مجلسًا: «أردت أن نناقش وضع ابنتك».

أومأت برأسها، متوترةً إلى حد يمنعها من الكلام.

«لقد تشاورت مع صديق لي يعمل في مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين. ربما توجد طريقة أخرَى لإخراج ابنتك، طريقة أقل خطرًا يمكن لزوجك أن يقبلها».

اضطرت سوك كون إلى منع نفسها من الاندفاع عبر المكتب والقبض على يد الأب ليونغ المستدقة الممشوقة: «كيف؟ متى؟ أرجوك أخبرني كل شيء».

أسهب الأب ليونغ في حديثه: سيكون على سوك كون إرسال رسالة إلى سان سان والوصيّ عليها، رسالةً عادية ظاهريًّا، تشرح فيها أن كل محاولات علاج مرض والدها قد فشلت، وأن العائلة الآن تنتظر انقضاء أجله وحسب. (من الواضح أن هذا سيتطلب خطابًا آخر من الطبيب، ما كان من السهل الحصول عليه). وبمجرد أن يتوفى زوجها، ستكتب سوك كون أن العائلة ستصفّي تجارتها في هونغ كونغ وترجع إلى الجزيرة.

لم تستوعب سوك كون كيف ستحقق هذه الرسالة أي شيء.

«لكن لمَ...»

رفع الأب ليونغ سبابته، وقال إن الرسالة ستمضي إلى إيضاح أن الشيء الوحيد الذي يعيق عودة العائلة هو سان سان؛ فعلى الفتاة أن تكون في هونغ كونغ لتحصل على نصيبها من الميراث، وإن لم تظهر؛ فإن الخنازير الرأسماليين في حكومة هونغ كونغ سيصادرون الأموال لاستخدامهم الشخصي.

رمشت سوك كون بعينيْها، ما زالت مشوّشةً: «أهذا حقيقي؟»

«إنها مبالغة، لكن هذا لا صلة له بالموضوع». قال الأب ليونغ أن على سوك كون إضافة أنه ما إن يُجمع الميراث الكامل، ستستقل العائلة بأكملها القطار عودةً إلى شيامن، وهم يتطلعون عندئذٍ لاستثمار ثروة العائلة في سندات حكومية، «اعملي على هذا الجزء ببراعة طبعًا».

نقبت سوك كون في كلمات القس. ما الذي غاب عن انتباهها؟ لمَ قد يُصدق الشيوعيون مخططًا واضحًا كهذا؟

قال القس: «أعرف ما الذي تفكرين به».

«إذًا لمَ؟»

فانتقى كلماته بحذر: «إذا ما كان مقدرًا للخطة أن تنجح، وأريد التشديد على كلمة 'إذا'، فسيكون ذلك لعدة أسباب: أولًا، الشيوعيون في أمس الحاجة للعملة الأجنبية التي تعرضين أخذها معك بسخاء بالغ».

مرّ واحد من أقوال الرئيس الشهيرة في ذهن سوك كون: « ' سنتٌ واحد من عملة أجنبية...'»

فردد معها الأب ليونغ: «'... مكافئ لقطرة من الدم البشري'، بالضبط. إن كانوا مستقتلين بالحد الكافي، فسيجربون حظهم. كل ما يجازفون بخسارته هو فتاة في التاسعة من عمرها».

حتى مع تدفق نهرٍ من الأمل داخلها، لم تقدر سوك كون على الإعراض عن شكوكها: «يبدو الأمر سهلًا أكثر مما ينبغي».

بسطَ الأب ليونغ شفتيه إلى نصف ابتسامة: «تعرفين جيدًا مثلما أعرف أن الصين كلها ملفوفة في أكبر تمثيلية رآها العالم قط».

أمالَت رأسها، غير واثقة مما كان يرمي إليه.

«تمثيليةُ أن هذه الأمة الموهنة الرجعية في خضم عصر ذهبي جديد، وأن ما هي إلا مسألة وقت حتى يتفوقوا على الغرب الخبيث الفاسد. يريد

الشيوعيون تصديق أنك ترغبين في العودة، وحقيقةً، عليهم أن يصدقوا ذلك».

بلبَل هذا سوك كون أكثر من أي وقت مضى: «لم أفهم».

- كل موظف في مكتب الأمن كان يعرف أن عائلتك هاربة هروبًا نهائيًا، لمَ لم يوقفوكم إذًا؟ لم تركوكم تغادرون؟

- لأن صديقي، طبيب الحزب، تدخل لصالحنا؟

قال القس برفق: «خطأ. لقد تركوكم ترحلون للحفاظ على التمثيلية، إذا ما كانت الصين الجديدةُ الجنةَ التي يزعمها الحزب، فلن يغادر شخص سليم العقل أبدًا. بالنسبة لأولئك الموظفين، الاعتراف بمخطط عائلتك للهرب سيكون بمثابة اعتراف بأن جل حيواتهم – وكامل الأمة – قائمٌ على الأكاذيب».

تأمّلت سوك كون في ما قال: «إذًا، كي يستمروا في تضليل أنفسهم، قد يرسلون سان سان إلينا بالفعل؟»

رفع الأب ليونغ راحتيه إلى السماء.

سألت: «كم من المال سنحتاج؟»

«ليس الكثير، فنحن لا نريد إثارة الشبهات. ما يكفي لجعل الأمر جديرًا بأن يهدروا وقتًا عليه فقط».

كان الرقم الذي ذكره صفقة أفضل من المبلغ الذي طلبه منها في المرة السابقة. لكن، مثلما أوضح، كل ما كان على سوك كون فعله هو التأكد من أن الأموال موجودة في حساب زوجها المصرفي احتياطًا في حال قرر الحزب التحقق.

رددت: «للاحتياط فقط». على الرغم من مخاوفها العالقة، كانت الخطة خالية من الخطر حقًا، ولم يسعها التفكير في أي سبب ليرفض تشاي. قد تعبر سان سان الحدود في غضون أسابيع، بل أيام حتى.

«شكرًا جزيلًا لك يا أبتِ»، كلماتٌ كانت قد نطقتها مرارًا وتكرارًا حتى فقدت معناها تقريبًا. كيف لها أن تعبر عن عميق امتنانها؟ ففي كل هونغ كونغ، كان هذا الرجل الوحيد الذي وقف إلى جانبها.

قال الأب ليونغ: «لم أفعل شيئًا. لا يفكرنّ الواحد منا في مصالحه فحسب، بل في مصالح الآخرين أيضًا».

استغرقت دقيقةً حتى أدركت أنه لا بدّ يقتبس من الكتاب المقدس، وقالت: «فعلًا».

نهض على قدميْه، فنهضَت أيضًا.

قال: «سأذكركِ وعائلتك في صلواتي. في الواقع، لمَ لا تجلبينهم إلى الكنيسة يوم الأحد؟ سأُسرّ بلقاء زوجك».

انسلّت منها ضحكةٌ مريرةٌ: «زوجي؟ أنا نفسي بالكاد أراه».

ارتفع حاجبا القس على جبهته، وسارعت بالتفسير: «إن زوجي رجل أعمال كثير الانشغال وملتزم التزامات جمّة».

استرخت سحنته: «فهمت».

فجأة، أرادته أن يعرف الحقيقة: «هكذا يرانا زوجي أنا وأطفاله: التزامًا آخرَ من التزاماته، عبئًا آخرَ من أعبائه».

أشاح الأب ليونغ بنظره، وعرفت سوك كون أنها قد قالت أكثر مما ينبغي.

وتمتم: «لكل زيجة أيام سعدها وأيام شقائها».

قالت وهي مسرعة إلى الباب: «بالفعل. سامحني على هدر الكثير من وقتك».

قرب الأب ليونغ المسافة بينهما: «مدام أونغ».

فانزلقت يدها عن مقبض الباب والتفتَت إليه: «نعم؟»

«أتعرفين ماذا أفعل حينما أشعر بالضياع؟»، وامتلأت عيناه بحزن وتحنانٍ إلى درجةٍ شعرت معها بالذنب لمشاركته ألمها.

همسَت: «ماذا؟ أخبرني».

«حسنًا، مدام أونغ، أنا أُصلي. أهبط على ركبتيّ وأطلب من الله الهداية».

نزحَ التوتر منها: «بالتأكيد».

- هو ملاذنا وقوتنا، والعون الحاضر أبدًا في مشاقنا.

- هذه نصيحة حسنة.

قال القس: «عديني أنك ستصلّين. عديني أنك لن تحاولي مواجهة هذا بمفردك».

ولأنها لم ترغب بشيءٍ أكثر من مغادرة الغرفة؛ تعهدت بأنها ستفعل.

17

واقفةً أمام النافذة نصف المفتوحة لفيلا آل لين، راحت سان سان تحدق إلى طبق الفاكهة الطرية المتعفنة في المطبخ؛ فقد أُحبطت خطتها لتسلق شجرة اللونجان عند كلية الفنون، وحشو جيوبها عن آخرها بالثمار الحلوة الشهيّة، على يد الحارس المتمركز إلى جانب الشجرة مباشرةً. صار الوقت غروبًا الآن، ومرّت أربع وعشرون ساعةً كاملةً منذ آخر مرة أكلت فيها، وبطريقة أو بأخرَى، هددت المساحة الغائرة في بطنها بابتلاعها كاملةً من الداخل إلى الخارج.

أدكنَ لون السماء إلى بنفسجيٍ مغبّر، لكنّ الأضواء في الفيلا ظلّت مطفأةً. لا أحد في المنزل بكلّ تأكيد. في الحقيقة، وبالنظر إلى حالة الفاكهة في الطبق، المنزل خالٍ منذ أيام.

كانت فيلا آل لين، وهي هيكل مترامي الأطراف من الطوب الأحمر، محتجبٌ بشجرات نخيل وتين هندي مفرطة في النمو، المنزلَ الوحيد في هذه الرقعة المعزولة من طريق تشيكن هيل. كانت سان سان قد سمعت أمها وجدتها تثرثران حول المالك الأصلي للفيلا، رجل أعمال اشتُهر بأنه منعزل ومتشبه بالنساء، قيل إنه كانت تجري خدمته من قِبل خدمٍ

ذكورٍ صغار حصرًا. لاحقًا، بحثت سان سان عن معنى كلمة «مخنث» في المعجم الكبير في المكتب، لكن التعريف لم يكن ذا معنى، فالرجال وقحون وصاخبون وقساة، والنساء عكس ذلك. لم يسعها تصوّر رجل يتخذ سلوكيات أنثى إلا كما تتصوّر قطةً تتشبه بسمكة!

قالت جدتها إن هذا المتشبه بالنساء قد بنى منزله بعيدًا عن المدينة ليتجنّب أعيُن الجيران المتطفلة. ومع ذلك، نظرت سان سان حولها لتضمن أنها بمفردها قبل أن ترفع نفسها على عتبة النافذة وتغوص بالرأس أولًا عبر النافذة المفتوحة. سقطت على الأرضية المبلّطة الباردة، مركزة على هدفها إلى حد منعها من ملاحظة الألم. اندفعت إلى الطبق مالئةً فمها بالموزات الطريّة المسودّة والكاكي اللُّبّي الذي أصدر رائحة مُسكرة مشحونة بالكحول. التهمت كامل الطبق قبل أن تفكّر باستطلاع بقية المطبخ، حيث اكتشفت سلالًا قشيّةً من السمك واللحم المجففيْن، وأباريق فخارية من حبوب الأرز والسكر والطحين، وفي الثلاجة قديمة الطراز، زجاجة من حليب الصويا الفاسد الذي لم تثبط رائحته المنفّرة من معنوياتها شيئًا. كان الطعام هنا يكفي لإعالتها أسابيع. حشَت خديها *بالباك كوا*، وراحت تمتص الصفائح الغضّة من لحم الخنزير المقدد لتعتصر كل قطرة من الحلاوة المالحة قبل أن تستجيب للمضغ والبلع.

بعد أن روّضت شهيتَها، راحت سان سان تستكشف بقية المنزل. خرجت من باب المطبخ إلى غرفة السفرة، وكانت مأثثةً بطاولة مستطيلة من خشب التيك وثريا عملاقة. كانت النوافذ الطويلة محاطةً بستائر مخملية ثقيلة، تلجمها قطع من أربطة حريرية بثخن معصميها. بحلول هذا الوقت كانت الشمس قد غربَت تمامًا، لكنها لم تجرؤ على تشغيل الأنوار.

بينما جرّت إصبعها على الخُوان المغبّر، خمّنت سان سان أن المالكين الحاليين، السيدة لين العجوز وابنتها العانس لن يرجعا عما قريب، فقد كانت جزيرة درَم ويف بأكملها تعج بالشائعات حول أولئك الذين اختفوا وراء الحدود هاجرين إرث العائلة وغيره من الكنوز ليدفعوا الشبهات عنهم لأطول وقت ممكن. تجوّلت حتى وصلت إلى غرفة الجلوس وهبطت على بساط مدوّر من جلد الغنم، كبيرٌ بما يكفي لتتسطّح عليه. كانت بنتُ آل لين العانس طويلةً ومسترجلة ولها خوذة كثيفة من الشعر، وكانت سان سان تحاول تذكُّر آخر مرة رأت فيها المرأة في المتاجر على طول طريق دراغون هيد حينما انفجر الإدراك داخلها مثل انفجار الألعاب النارية في اليوم الوطني. انتصبت جالسةً تتذكر كل المقتنيات الثمينة التي تُركت في الشقة: اللآلئ والأحجار الكريمة في صندوق مجوهرات أمها المطلي بالورنيش، وزجاجات عطرها ومزهرياتها الكريستالية، حتى هذه الإسوارة الذهبية تحت كمها، التي حشرتها جدتها في ذراعها.

لم تكن سان سان واثقةً من أي شيء أكثر من هذا في حياتها: لا أحدَ سيرجع لأجلها، فأمها وجدتها وليام قد رحلوا إلى الأبد. أكان والدها مريضًا حتى، أم كانت هذه كذبة أخرَى من كذبات أمها؟ الصورة المهشمة، التفتيش، الاستصدار العاجل لتصاريح الخروج، تكسّرت كل هذه الأحداث وتراكبت في مكانها الصحيح وفهمت ما اقترفه أخوها، وانقبض قلبها إزاء ظُلم الأمر كله.

قبضَت على مزهرية ثقيلة بيضاء وزرقاء وقذفتها على الأرضية الخشبية، لكنها لم تنجح إلا في تشظية حافتها قبل أن تدحرج بفتورٍ إلى الحائط، فركلت المزهرية بكل قوتها وآذَت إصبع قدمها. مرتجفةً ألمًا، لفّت بساط جلد الماعز حول كتفيها، مثيرةً سحابة من الغبار جعلت عينيها تحكانها وتفيضان دموعًا مالحةً سخيّة.

عندما فتَحت عينيْها مرةً ثانية، أعمَتها أشعة الشمس المُرسَلة عبر النوافذ الطويلة. كان بساط جلد الغنم ملتفًا حولها بأمان كلُفافة *بوبايا*. شعرت بالحرقة في حلقها وبالألم في عصعوصها، وعندما حاولت رفع رأسها، دارت بها الغرفة مجبِرةً إياها على العودة إلى الأرض، ثم اسقر نظرُها على ساعة الجد في زاوية الغرفة. كان الضوء أكثر سطوعًا من أن تكون الساعة الخامسة صباحًا، لكن أيمكن أنها قد نامت حقًّا حتى الخامسة مساءً؟

هرعَت إلى النوافذ وراحت تحرر الستائر المخمليّة من حبالها، ثم ركضت عبر كلا طابقيْ المنزل مغلِقةً كل الستائر، ما حرر المزيد من دوامات الغبار التي استحثت عطاسها. تغبّش بصرُها، لكنها قرصت ذراعها حتى انحسرت الدموع، عازمةً ألّا تهدر أي وقت إضافي في الشعور بالأسف على نفسها. كان عليها أن تجد وسيلة لجمع شملها بالدكتور لي والخالة روز، فهي لا تعرف إلا أنهما قد جرى إطلاق سراحهما بالفعل. أوّل ما ستفعله في الصباح هو الذهاب إلى المدينة لتقصي أخبارهما، وهي بحاجة إلى تنكّر مناسب لتفعل ذلك.

تسلقت الدرجَ وصولًا إلى غرفة الملابس الرحيبة لبنتِ آل لين العانس، وتوغّلت تفتش في الدروج والخزانات. إذا ما ربطَت وشاحًا حول رأسها وارتدَت بجامةً رثّة، فهل يمكن أن يحسبها الناس خادمةً لشخص ما؟ لا بدّ أن عانس آل لين كانت هيفاء في شبابها، بالحكم على صف فساتين الباستيل وأقمشتها التي صفّرها الزمان وصارت تبعث رائحة نتنة خفيفة. خلف الفساتين، كان ثمة حافظة أوراق جلدية فيها رسائل كشفت عن أن عانسَ آل لين حظيَت بعاشق ذات مرة، وهو كولونيل قومي متزوج فرّ مع زوجته وابنه إلى تايوان. ربما إلى هناك رحلَت العانس وأمها.

عندما هبط الليل، قررت سان سان النوم هناك في غرفة الملابس، فإذا ما دخل خادم سابق أو موظف تسجيل مدني شكّاك فجأةً سيستغرق بعض الوقت حتى يفكر بالبحث هناك.

كانت تجمع ملابس النوم عن سرير عانس آل لين وقتما جذبها ضوء القمر المتدفق عبر فجوة في الستائر إلى النافذة، وكان ملعب التنِس خاصةِ آل لين الذي ما يزال مشذبًا، راقدًا هاجعًا تحت الكرة الشاحبة في السماء. كم تاقَت إلى مدّ رأسها من النافذة واستنشاق الهواء البارد المنعش! وكم تاقت إلى القفز عبر أرضية الملعب الناعمة غير المشوبة!

اخترقت ضحكات مكتومة حاجز السكون؛ فشقّت سان سان النافذة وضيّقت عينيها محدقة في الظلام. حشر جسدان آدميان نفسيْهما عبر فتحة في السياج، ومن طوليْهما، خمنت سان سان أنهما طفلان، ومن ثم، بعد أن خرجا من الظلال إلى الملعب، تعرفَتْ على الجبهة العريضة والذقن الواضحة لليتل ريد. كادت سان سان أن تدفع النافذة وتناديها، فقد تحمست جدًّا لمرأى صديقتها. ما الذي شدّ ليتل ريد كل هذه المسافة إلى هذا الجانب من الجزيرة؟ أتراها سمعت باختفاء سان سان؟ أكانت قلِقةً بشأنها؟ هل اشتاقت إليها؟

لكن مرأى ستيمد بَن، رفيقة مقعد ليتل ريد الجديدة، أسكت سان سان. راقبت ستيمد بَن تلتقط كرة تنس عن الأرض وتقذفها في منتصف الشبكة المتدلية. رنَّت ضحكتهما مثل الأجراس بينما يرميان الكرة جيئة وذهابًا، تحث واحدتهما الأخرَى لترميها أعلى وأبعد. لا بد أنهما قد سمعتا الشائعات وجاءتا لتتحريا المنزل المهجور.

وجدت ليتل ريد مضربَ تنس ملقًى على الأرض، فمَوضَعت نفسها خلف الخط الأبيض، رمَت الكرة في الجو، وأرجعَت ذراعها خلفًا. ضربَت خيوطُ المضرب الكرةَ مصدرةً صوت ارتطامِ مُرضٍ تلاه بسرعةٍ صوتُ

تكسّر زجاج، فرَمَت ليتل ريد المضرب وأسرعت إلى فجوة السياج وستيمد بَن في أعقابها. كانت صيحاتهما جامحة وصارّة.

هبطت سان سان إلى المطبخ في الطابق السفلي لكنها لم تجرؤ على الاقتراب من النافذة المكسورة حافية القدمين. رفعت هبّة ريحٍ الستارة الموسلينيّة، وتدحرجت كرة التنس بتراخٍ عبر البلاط المزيّن بكسرات متناثرة. ستقع فوضًى عارمة عندما تُمطر مرةً أخرَى.

في تلك الليلة، حلمت سان سان أن الخالة روز والدكتور لي ركعا أمامها وطلبا منها أن تصير ابنتهما. أتمّوا المعاملات الورقية للتبني، وكان الموظف يستعد لخَتم الوثيقة الأخيرة بختمه وقتما استبدّ وقع حوافر الأحصنة والرائحة الوخّازة الآسنة للرجال الأشرار، بهم كلهم. كان قائد الفرسان أجنبيًّا ضامر الجسد موتوره، عاريًا إلا من خرقة مربوطة حول خصره. أمر رجاله بإيثاق معاصم الخالة روز والدكتور لي وجرهم بعيدًا، وخلال هذا كله، كانوا متجاهلين التماسات سان سان، بل في الحقيقة، لم يُظهروا أي إشارة على أنهم قد سمعوها حتى.

أفاقت منقوعةً في العرَق، عازمةً على جمع شملها بآنسة البيانو والطبيب. لأول مرة مذ غادرت المنزل، استحمّت بمياه شديدة السخونة ومشطت شعرها إلى الخلف، وغطت رأسها بوشاح عانس آلِ لين صديئ اللون، ثم جذبت بجامةً باليةً ذات ألوان ترابية، وكفّت أرجلَ البنطال كي لا تجرجر خلفها على الأرض. تركت كنزتها القطنية النتنة وبنطالها منقوعين في بقايا مياه الحمام قبل أن تنطلق أخيرًا إلى البلدة.

كان الوقت منتصف النهار، لكن الشارع كان شبه خالٍ هنا في ضواحي الجزيرة. كانت تلمح بين الحين والآخر طالبًا مسرعًا إلى كلية الفنون أو عاملًا يجر عربةً من مواد البناء، وكانت تختبئ خلف شجرة أو جَنبةٍ ريثما يمرون. تجاوزت النُزُل الوحيد في الجزيرة، والذي كان يأوي

كل الزوّار من الوجهاء، ومطعم المأكولات البحرية المتاخم له، والذي، في هذا الوقت المبكر من اليوم، كان ينشر بالفعل العبق المُسكِر لسمكٍ يُقلّب على شواية مفتوحة.

عند مدخل البلدة، أبطأت سيرها أمام بوابة المقبرة ودخلت إليها. كان قد مرّ شهران منذ مهرجان كنسِ المقابر، حينما جاءت هي وعائلتها لتنظيف قبر جدها، وكان شاهد قبره الآن مبقّعًا بالهباب، فركعت على العشب وفركت شاهد القبر براحة يدها.

عندما كان جدها ما يزال حيًا، كانت أم سان سان ترسلها إلى غرفة نومه لتناديه من أجل العشاء، وكان دائمًا ما يشير لها أن تدخل، ويغمز بينما يسحب صندوقًا كرتونيًا فضي اللون من أحد دروج المكتب. كان الصندوق ممتلئًا بمربعات بالغة الرقة من شوكولاتة الحليب التي تذوب في اللحظة التي تلمس لسانك فيها. كانت تتناول سان سان وجدها كلٌّ قطعةً، ثم يضع سبابته على شفتيْه ليذكرها بإبقاء طقسهما سرًا. لم يكن جدها ليترك العائلة تغادر من دونها أبدًا. حاولت سان سان أن تتذكر ما إذا دخل أخوها غرفة جدها قط. أيمكن أنهما حظيا بطقسهما السريّ الخاص؟ أيمكن أن جدها كان يعطي ليام شيئًا أفضل من مربعات الشوكولاتة عديمة الوزن تلك؟

كانت تجرّ إصبعها فوق اسم جدها عندما لامس شيءٌ ما كتفها، وصرخت عند مرأى حفار القبور العجوز جاثمًا بجوارها.

«لم أقصد إخافتك أيتها الأخت الصغيرة».

فانتفضت واقفةً على قدميْها. دائمًا ما كان حفّار القبور ينأى بنفسه عن الناس، ولم تكن قد رأت وجهه العظميّ من كثبٍ قبلًا، ولا عينيْه الواسعتين الغائرتين ولحيته البيضاء الهزيلة.

«لا تخافي. لمَ أنت هنا بمفردك؟»، وعبسَ، أو ربما ابتسم، وأرسلَ فمُهُ الأدردُ سان سانَ راكضةً إلى بوابة المقبرة.

فنادى: «إلى أين تُسرعين؟ لن أعضّ»، وراح يُقأقِئُ على نكتَتِه.

ركضت سان سان حتى أمكنها سماع دويّ ضجيج السوق، ثمّ انسلّت إلى زقاق لتلتقط أنفاسها. بدأت بالتشكيك في خطتها. ماذا إن لم يكن تنكُّرها جيدًا بالحد الكافي؟ ماذا إذا جرى التعرف عليها؟ تمنّت لو أنها فكرت في تلطيخ وجهها بالتراب وتساءلت لمَ تكبدت عناء الحمام.

طقطقت الحياة في مكبّر الصوت المعلق على الجدار فوقها وفاضَت منه أغنية «الشرق أحمر» في تيارات تافهة، وسرعان ما استُبدل صوت مذيعة البلدة الليّن بالموسيقى: «انتباه، انتباه، أيها الرفاق الثوريون في جزيرة درَم ويف. يُرجى الاجتماع في ملعب كرة السلة خاصةِ المدرسة الثانوية. جلسة الإدانة ستبدأ حالًا».

ازدحم رأس سان سان بسخريات زملاء صفها، وشعرت بوخزة تعاطف جديدة مع المجرمين الذين كانوا على وشك اصطحابهم إلى منصة ملعب كرة السلة المؤقتة. لكن توقيت الجلسة كان لصالحها، فما أن يجتمع الجميع في المدرسة الثانوية حتى يصير بوسعها التجوّل بحُريتها في السوق وتفحّص ملصقات آخر الأخبار.

استؤنفت «الشرق أحمر»، حاثة سكان البلدة على التقدم.

سمعت سان سان رجلًا يسأل: «من يُدان هذه المرة؟»

- من يستطيع البقاء متابعًا أخبار ذلك بحق السماء؟

- أظن أنهم أولئك الطلاب. إنهم مثيرو شغب، كلهم.

بعد أن فرغت الشوارع، توجهت سان سان إلى السوق. كان الجدار بجوار المدخل الرئيس مملوءًا بالصور الدعائية المعتادة لفلاحين ورديّي

الخدود وجنودٍ شجعان يلوحون بقبضاتهم في الهواء. راحت تبحث في تقارير الأخبار متجاهلةً الشعارات التي تحث على أن «كونوا سبوتنيك، لا أوكسكارت!» و«أوقفوا العدوان الأمريكي، حرروا تايوان!»، ووجدت نفسها تحدق إلى وجهها نفسه، ومكتوبة تحته بضربات فرشاةٍ سوداء غليظة الكلمات: «فتاة مفقودة، مكافأة كبيرة». نزعت صورتها ومزقتها إلى شرائط طويلة، ثم تركزت عيناها على الملصق المجاور تمامًا للمساحة الفارغة التي أحدثتها للتو. سقطت شرائط الورق المتكوّرة من يدها، فقد أعلن الملصق أنه في يوم 17 يونيو – في الغد – ستنعقد جلسة الإدانة والإعدام اللاحق لها بحق لي تشين كونغ وروز لي. وُجد الزوجان مذنبيْن بالخيانة والانحراف الرأسمالي وخطف فتاة صغيرة، والتي ما تزال طليقة.

سُمع من جميع أنحاء البلدة الصوت الخافت لتصفيق وتهليل أولئك المجتمعين في المدرسة الثانوية، ولم يتبادر إلى ذهن سان سان حتى آنذاك أن الطلاب الذين تجري إدانتهم لا بدّ أنهم الاثنين اللذيْن حاولا مساعدتهم في الهرب.

هتف سكان البلدة: «النضال، النضال ضد اليمينيين!»

للمرة الثانية، مزّقت سان سان الملصق عن الجدار وألقته على الأرض، ثم مشَت بخفَّة في الاتجاه الذي جاءت منه، نحو فيلا آل لين.

تشقلبَت الأفكار في رأسها. كان عليها تسليم نفسها، فهذا هو التصرف الصحيح. لكن الحكم قد صدر بالفعل بحق الدكتور لي والخالة روز، وقد مرّت بما يكفي مع الرفيق آنغ لتعرف أن لا شيء يمكنه تغيير رأي الحزب. لم يكن ثمة إلا أمر واحد يهُم أولئك الناس، وهو أن يجعلوا من المجرمين عبرةً لمن أراد أن يعتبر، وليس للحقيقة علاقة بالموضوع. لم يكن أمامها خيار إذًا إلا مغادرة الجزيرة حالًا، لكن

مدينة شيامن واسعة ومُبهَمة، فكيف عساها تنجو هناك؟ هي ليست إلا طفلة، وعليها طلب المساعدة.. من كوك وموي؟ من ليتل ريد؟ استعصَت الإجابة عليها، وكانت في حيرة من أمرها.

أخفضت رأسها وحثت خطوتها عندما اقتربت من المقبرة، وكانت تسرع متجاوزة البوابة عندما قبضت ذراع باردة جلفة على يدها.

صرخت وحاولت الابتعاد، لكن حفار القبور شدّ قبضته: «لا تخافي. لا أريد إلا الكلام».

«دعني أذهب! النجدة! النجدة!»، تبددت صرخاتها في الهواء، فقد كان انشغال الجميع في إدانة المجرمين يمنعهم من المجيء لعونها.

قال: «لن أؤذيك». أشعرتها رائحة أنفاسه العفنة بالاشمئزاز، وكان الجلد حول شفتيه الأرجوانيتين ممتلئًا بالقروح.

صرخت سان سان مجددًا ومجددًا.

صفق حفار القبور يدًا على فمها: «اخرسي. قلتُ لن أؤذيك. أنت ابنة آل أونغ أليس كذلك؟ التي يبحثون عنها؟»

فعضت إصبعه المعقّد بأقصى قوتها.

نفض يده بعيدًا وزمجر قائلًا: «اللعنة على أمك!».

تلوّت سان سان مفلتةً من قبضته.

فقال حفار القبور: «انتظري، ارجعي!»

انطلقت مبتعدةً تهزّ بذراعيها وترفع ركبتيها، وحينما شعرت بالقماشة الرقيقة لبجامة عانس آل لين تتمزق في منتصفها، وسّعت فشخاتها وركضت للنجاة بحياتها.

18

ليلةً بعد ليلة، كان تشاي يتقلّب أرِقًا في السرير رباعي القوائم الذي صار واسعًا مؤخرًا، يلفُّ نفسه بالمفرش، ومنتفضًا مستيقظًا قبل الفجر. في كل مساء بعد العمل، كان سائقه يوصله إلى منزل سينثيا ابنة عم لولو، حيث كان يتملّق مديرة المنزل ويترجاها لتسمح له برؤية لولو، لكن الخادمة النحيلة الجهمة كانت تسد الباب، وفي إحدى المرات عندما حاول دفعها والمرور؛ صرخت مناديةً صبي المطبخ ليساعدها. ظهرت سينثيا بنفسها أعلى الدرج عاقدةً ذراعيها على صدرها، وقالت بتشامُخ مثل مديرة مدرسة: «حقًا يا تشاي، لا يمكنك إجبارها على رؤيتك».

مثل أي ثنائي آخر، كان لتشاي ولولو شجاراتهما بالطبع. كان يتهمها بالتصرف مثل طفل مدلَّل، وكانت ترد عليه بأنه جاحد قاسي القلب، وأسوأ من ذلك. بعد بضع سنوات من علاقتهما، عقب خلاف عنيف على نحو بارز، بلغ بها الأمر أن حزمت أمتعتها وعادت إلى منزل عمها، فثار ثائر تشاي ثم بكى ثم قرر احترام قرار لولو. كانت في غاية الجمال والحيوية والشباب، ولا بدّ أنه كان مخبولًا ليعتقد أنها سترضى بأن تكون عشيقته. لكن بعد أقل من أربع وعشرين ساعة، مشَت لولو عبر

الباب الأمامي وأمرت الخادمة بإفراغ أمتعتها. اقترب تشاي منها بحذر شديد، وذابت بين ذراعيْه تتنهّد وتجهش، فحممّها بالقبلات وضمّها حتى هدأت. لم يكن ليسأل عمّا جعلها تغير رأيها أبدًا، ولم تعرض أن تخبره أبدًا، لكنه شك في أن عمها قد صدّها، وأن لولو أدركت عندئذ أن تشاي كان كل ما لديها.

في السنوات الستة التي أعقبت إغلاق الحدود، لم يُمضِ تشاي ولولو ولا ليلة منفصليْن، حتى الآن.

زائغ البصر جراء الإجهاد، تمكن تشاي من اجتياز الصباح بتجرُّع دفقٍ منتظمٍ من الشاي الأحمر القوي. دفع الوثائق التي كان يجاهد لقراءتها في الساعة الماضية جانبًا، واتصل بخط سكرتيرته ليطلب منها أن تحضر له إبريقًا جديدًا.

قالت ويندي: «حالًا سيدي».

سمعها تتحرك عبر الردهة بأحذيتها المسطحة المرهفة. على عكس غيرها من السكرتيرات، كانت تضع الحد الأدنى من الماكياج، وتلبس كنزات مربعة، وتنانير تغطي رَبلتيْها. كان يقدر هذا الأمر بشأنها، ويكره الناس الذين يحاولون بجهد جهيد ليكونوا على غير حقيقتهم.

بعد عدة دقائق، عادت سكرتيرته إلى طاولتها أمام مكتبه، لكن بدلًا عن جلب الإبريق له، انخرطت في محادثة مع شخص ما لا بد أنه كان ينتظر ليقابله.

قالت: «أرجوكِ تفضلي بالجلوس. سأبلغ السيد أونغ بوجودك».

ألقى نظرة على الساعة. لم يكن ثمة اجتماعات على الرزنامة.

عندما رن الهاتف، سأل: «ما الذي يؤخرك يا ويندي؟»

«إن زوجتك هنا يا سيدي».

كاد أن يُسقط الهاتف من يده: «لأجل ماذا بحق السماء؟»

أجابت ويندي بهدوء: «لم تقُل يا سيدي».

لم يمرّ في بال تشاي مَن يرغب في رؤيته أقل منها، وبينما دوّخته اللوعة لعشيقته؛ شعر بطريقة غريبة ما أن رؤية زوجته آنذاك سيكون انتهاكًا لحبه ولولو: «لا يمكنها الظهور هكذا فحسب».

أخفضت سكرتيرته صوتها: «أهذا ما تريدني أن أقوله لها؟»

أغلق تشاي الهاتف ومشى متثاقلًا نحو الباب. كانت سوك كون جالسةً في كرسي جلديّ منخفضٍ ذي ذراعين، ورُكبتاها متصلتان ومرفقاها مثبتان على جانبيْها، كما لو كانت تحاول شَغل أقل مساحة ممكنة.

حاشدًا كل ذرة طاقة فيه، قال تشاي: «وي! سوك كون، يا لها من مفاجأة سارة! تفضلي بالدخول».

بدت سوك كون بفستانها الورديّ الزاهي كواحدة من السكان المحليين تقريبًا، أكانت تضع أحمر شفاه؟ هل تأنقت فقط لتأتي إلى مكتبه؟ أدركَ أنه لم يمتلك أدنى فكرة عن كيفية قضاء زوجته أيامها.

«سامحني على التطفل هكذا»، كانت حريصةً على ألا تلمسه عندما دخلت مكتبه.

«لا حاجة للاعتذار». أشار تشاي لسكرتيرته كي تجلب فنجان شاي آخر مع الإبريق.

ما أن أغلقت ويندي الباب خلفها، حتى صب الشاي وقال: «إذًا، ما الذي جاء بك اليوم؟ كيف يجد الصبي المدرسة؟»

تحاشَت سوك كون مجاملاته: «عليّ التحدث إليك بخصوص سان سان. أرجوك يا تشاي، اسمعني».

وضع إبريق الشاي من يده، وصار جو الغرفة خانقًا فجأةً، فخلع سترة بذلته، وانتظرته أن يُلبسها لظهر كرسيه قبل أن تبدأ.

إذًا فقد ذهبتْ للقاء قسِّها ذاك مجددًا، وأعدّا معًا مخططًا آخر. كان عليه أن يحزر هذا، لكن رغم ذلك، كان عليه الاعتراف بأنها هذه المرة لم تكن خطةً مجنونة. الكل يعرف أن الشيوعيين مستقتلون على العملة الأجنبية، مستقتلون لدرجة أنهم قد يجربون حظهم ويتركون ابنته تعبر الحدود.

قالت سوك كون: «كل ما علينا فعله هو الحرص على أن يكون المال في حسابك المصرفي».

أجبر تشاي نفسه على الإيماء برأسه. المرابون أمر غير وارد على الإطلاق. سيكون عليه تسريح الخدم، وبيع السيارات، وربما بعضًا من أثاث لولو المصمَّم خصيصًا، وسيكون محظوظًا لو بلغ صافي قيمة ذلك نصف المال المطلوب.

كانت زوجته تنتظر إجابته.

فقال: «الأمر معقول».

امتلأت عينا سوك كون بالدموع، ومدت يدها إلى محفظتها متناولة منديلها ومسحت عينيْها: «أظن أن هذا سيجدي يا تشاي. أظن ذلك حقًّا».

«إنه يستحق المحاولة بكل تأكيد».

نفّت بلُطف.

قال: «والآن، بخصوص الأموال».

أخفضت منديلها: «نعم؟»

«سأحتاج بضعة أيام فقط لأرتب كل شيء. أسبوعًا أواثنين في الحد الأقصى».

انسلّ اللون من وجه سوك كون: «لا يمكننا مطّ هذا لوقت أطول، فقد انتهى أجَل تصاريحنا فعلًا، واستولى الخدم على الشقة. أتعلم أن الطباخ قد انتقل إلى غرفة نوم أمك؟»

مرّت الكلمات بتشاي من دون أن تؤثر فيه: «أنتِ لا تعرفين شيئًا عن المال البتة».

بدلًا عن التراجُع، انحنَت زوجته إلى الأمام وضغطت بكلتا راحتيْها المبسوطتيْن على طاولته، كما لو أنها مستعدة للاقتراب وصفعِه إذا ما حُثت على ذلك، فشعر بنفسه يخفض رأسه.

«إنني أتوسل إليك يا تشاي. علينا التصرف الآن، وربما نكون متأخرين أكثرَ مما ينبغي بالفعل».

انغرزت أظافر يديه في لحم فخذه وجعله الألم يتنهّد: «كلانا على وفاق هنا يا زوجتي. إنني أطلب منك الصبر فحسب».

«لا يمكننا الاستمرار ببخِّ الكذبات القديمة نفسِها. أتظن أن الحزب سيقبل أنك 'متشبث بفراش احتضارك' إلى الأبد؟»، وغطت وجهها بمنديلها.

دار بكرسيه ليواجه النافذة، عاجزًا عن مشاهدتها تبكي. كان قد جمع أخيرًا مالًا يكفي ليدفع لصاحب المُلك، لكن إن لم يُسلمه المال حالًا، فسيطرد تام عائلتَه. تساءَل، تساؤلًا مجنونًا، ما إذا كان بوسعه نقل أمه وزوجته وابنه إلى منزله الذي سيصير خاويًا قريبًا، ولفعل ذلك؛ عليه قبول أن لولو قد رحلت من غير رجعة. أكانت هذه هي التضحية التي تطلبها منه عائلته وأبوه الراحل وبقية السلسلة الطويلة من أسلافه المرموقين؟

شعر تشاي بكرسيه يدور به، وسقطت زوجته على ركبتيْها أمامه: «يا زوجي! أعرف أنك بالكاد تعرف ابنتنا، أعرف أنها مجرد طفلة، قبيحة مثل البقرة».

قال: «انهضي».

- لكنها لامعة ومطيعة. إنها بنت طيبة.

- أرجوك زوجتي، انهضي.

ألقت سوك كون بجذعها على الأرض ملصقةً جبهتها بالسجادة: «إن لم يكن بوسعك فعل هذا من أجل البنت، فافعله من أجلي. أقسم أنني لن أطلب منك أيَّ شيء مرة أخرَى أبدًا».

إلامَ كانت تلمّح؟ إلى أنها ستمنحه الطلاق؟: «أوقفي هذا الهراء وانهضي حالًا»، لم يعُد يهُمه ما إذا سمعتهما سكرتيرته.

كان صوت سوك كون مكتومًا بفعل السجادة: «لن أنهض حتى توافق».

ملتفَّةً على نفسها على الأرض، كانت عاجزةً مثل طفل، لكن من دون المال، كان هو عاجزًا أيضًا: «أحتاج إلى بعض الوقت فحسب».

قالت سوك كون وفمها محشور بالسجادة: «لا نملك الوقت».

لجزء من الثانية، فكّر في إفشاء أمر مشاكله المالية، لكنه بدلًا عن ذلك، أمسك بأثقل غرضٍ على مكتبه – ثقّالة أوراق زجاجية على شكل بجعة – ورفعها فوق رأسه. ارتجف لوحا كتف زوجته تحت حرير فستانها البرّاق، فرمى البجعة على السجادة مشمئزًا، فارتدّت إلى الأعلى وغاصت رأسيًّا في النسيج الكثيف قبل أن تحطَّ على جانبها.

رفعت سوك كون رأسها مجفلةً.

فقال تشاي: «اكتبي الرسالة. ستكون الأموال في حسابي»، وسقط في كرسيه وقد أغشاه الإرهاق.

نهضت زوجته العنيدة أخيرًا، وزحفتْ إليه ودفنت وجهها في حجره، وخضّلت دموعُها بنطالَه، فتجمد غير واثق ما إذا كان عليه دفعها بعيدًا أم مواساتها.

فيما عدا العناق العرضي الخاطف، أو المرور الجاف لشفتيْه على خدها، بالكاد كانا يتلامسان، أما الآن، رغم ذلك، وبهذا القرب بينهما شعر بثوران عواطفه.

همست: «شكرًا لك يا زوجي».

أفسحت ومضةُ الإثارة الوجيزة المجالَ مباشرةً أمام النفور، وخشي أن يتطور الأمر بينهما أكثر، فتراجع بحذر شديدٍ بوصةً في كرسيه، ولم يعرف ما إذا عبّر وجه زوجته عن خيبة أمل أم ارتياح.

قال بصوت أجشّ: «لدي عمل أقوم به».

«بالتأكيد».

عند الباب، تمتمت سوك كون بشُكرها مرة أخرَى.

حدق تشاي إلى ساعته الذهبية، التي كانت ملكًا لأبيه، ولجده من قبله، وتساءل عن المبلغ الذي ستحصّله في محل المرهونات.

19

خضّ صوتٌ مصِمٌ للآذان سان سانَ موقظًا إياها، فرفعت نفسها على مرفقيْها وحدقت من النافذة اليتيمة في غرفة ملابس عانس آل لين، وكانت مدورةً ومرتفعةً مثل كوّة سفينة. كان المطر ينهمر مدرارًا، والسماء حالكة إلى درجة أنها بالكاد تبيّنت عقارب ساعتها.

ثم تذكرت أي يوم كان اليوم، فتسلّقت بجهد على المقعد المدرّج لتلصق وجهها بزجاج النافذة. من المؤكد أن جلسة الإدانة قد أُجلت، إذ لا يمكن توقُع أن تجتمع البلدة كلها خارجًا في عاصفة كهذه.

ذكرتها ومضةُ برق بالحواف المسنّنة للفجوة في نافذة المطبخ؛ فركضت سان سان هابطةً الدرَج الخلفي. كان الماء قد انسكّب إلى المطبخ مبللًا السّلال القشيّة المحملة بالأطعمة المجففة والأباريقَ الفخارية المتراصفة بجوار الحائط. لفّت ذراعيها حول إبريق وجاهدت لرفعه، متدبرةً إخلاء الأرضية لمساحة لا تتجاوز بوصة واحدة، فغيرت نهجها ونقّلت السلال القشيَّة الأخف وزنًا بكثير إلى غرفة السفرة، حيث منحها منظر طاولة التيك الطويلة فكرةً. راحت تفتح أبواب الخوان والدروج حتى وجدت مفرش مائدة أحمر برّاقًا مصنوعًا من القطن

المُشمَّع القاسي. لم يكن النسيج مضادًا للماء، لكنه كان أفضل من لا شيء.

حتى الآن، كانت مياه المطر قد زحفت نصف المسافة عبر أرضية المطبخ المبلّطة، وبللت حذاء سان سان القماشي وكُفَف بجامتها المستعارة تمامًا بينما كانت تعمل على تثبيت مفرش المائدة على النافذة المكسورة. مستخدمةً كامل وزن جسمها؛ راحت تسحب الأباريق واحدًا واحدًا إلى الطرف المقابل من المطبخ. تابع المطر لكزّ المفرش، وبهذا المعدل، سرعان ما سيصير مبللًا إلى درجة تجعله غير ذي نفع، لكنها ستقلق بخصوص ذلك في وقته.

أغلقت باب المطبخ وتراجعت إلى غرفة المعيشة لتجفف قدميْها وبساط جلد الغنم، وجاء آنذاك الإعلان عبر مكبرات الصوت على زاوية الشارع، يُعلم الرفاق الثوريين في جزيرة درَم ويف أنه وبسبب المناخ العاصف، أُجّلت جلسة الإدانة والإعدامِ اللاحقِ لها بحقٍّ لي تشين كونغ وروز لي إلى اليوم التالي، فخرّت سان سان على الكنبة قاسية الظهر، ومطّطت ذراعيْها الموجوعتيْن بارتياح.

لا بدّ أن النعاس قد غلبها، لأن الشيء التالي الذي أحسّت به كان شعاع شمس نديّ أشرق عبر شق في الستائر، وقبضات غاضبة تخبّط على الباب.

«افتحوا الباب! مجلس التسجيل المدني. افتحوا الباب حالًا!»

قفزت واقفة.

«إذا لم تفتحوا الباب، فلا خيار لدينا إلا خلعه».

فالتقطت حذاءها وانطلقت إلى الدرَج.

«لقد رأينا المفرش على نافذة المطبخ، ونعلم أنكم في الداخل».

في غرفة الملابس، استردّت سان سان رسائل أمها التي صارت مخزنةً في حافظة الأوراق الجلدية خاصة عانس آل لين، وركضت هابطةً الدرَج الخلفي إلى المطبخ عابرةً بركة مياه المطر ثم انسلت من الباب قبل دويّ الخشب المتشظّي. حشرت الحافظةَ في حزام بنطالها وشدت الرباط أشد ما يمكن، ثم ركضت باتجاه البحر.

بفضل العاصفة، كان خليج فلوريشينغ بيوتي مهجورًا. في الصيف الماضي، توسلت سان سان وأخوها إلى أمهما لتسمح لهما بالنوم على الشاطئ مباشرةً بعد نهار ثقيل من السباحة وصيد السمك، لكن بلا جدوى.

ومع ذلك، تعلّمت سان سان في تلك الليلة أن الرمل الذي كان في غاية الطراوة والإغراء تحت قدميْها يشكّل فراشًا رديئًا، وأن سعف النخيل لم تكن بديلًا عن البطانية، وأنه بعد الغروب، يصير نسيم المحيط المنعش قاسيًا وجلفًا.

في اليوم التالي، مشطت الشاطئ الصخري بحثًا عن مِهاد محار دلهما صيّاد سمك ودود هي وأخاها مرةً عليه، لكن إما أن المهاد قد اختفى بطريقة ما، أو أنها نسيَت مكانه.

بعد أن دوّخها الجوع، خاطرت بالعودة إلى كلية الفنون على طريق تشيكن هيل. كان ثمة قفل عملاق يتدلى من البوابة، فأدركت أن العطلة الصيفية قد بدأت للتو، ما يعني غياب مَن يمنعها من تسلق شجرة اللونجان. أتخمَت نفسها من الفاكهة الغضة حتى آلمتها معدتها، وأمضت بقية الظهيرة ناقهةً على أرضيةِ واحد من الصفوف الخالية.

في الصباح التالي، تردد صدى صوت مذيعة البلدة، الذي نقلته مكبرات الصوت الكثيرة في الحرم الجامعي في جميع أنحاء الكلية: نتيجةً لزيارة من دون سابق إعداد من مسؤولين مهمين في المدينة؛

أُجلت جلسة الإدانة يومًا آخَر بعد. وبحلول الوقت الذي جاء فيه ذاك اليوم، كانت سان سان مقتنعةً أن جلسة إدانة الدكتور لي والخالة روز لن تنعقد أبدًا، فالحزب في أغلب الظن كان يحاول حفظ ماء وجهه، وبمجرد أن يفقد أهل البلدة الاهتمامَ بالقضية أو يجدون قضية أخرَى ليصبوا تركيزهم عليها؛ سيطلق الحزب سراح الرهائن بهدوء.

في إحدى زوايا سبورة الصف، علّمت سان سان انقضاء يوم آخر. سترجع السفينة ذات الراية الخضراء إلى شيامن خلال أسبوع، وإن لم يكن الطبيب ومعلمتها قادريْن على الرحيل معها، فكانت واثقةً أنهما سيعرفان كيف يُدبران صعودهما على متنها.

بينما تجوب الأرضيات الخاوية، راحت تنتظر وتنتظر الإعلان الذي سيؤجل جلسة الإدانة مرةً أخرَى، لكنه لم يُذَع هذه المرة.

وعندما لم يعُد بوسعها مماطلة الخروج لوقت أطول، تسلقت سان سان بوابة الكلية وأسرعت إلى البلدة، سالكةً الطريق الطويل لتتفادى المرور أمام المقبرة. ربما سيحفظ الحزب ماء وجهه بالاستمرار وعقد الجلسة، وبعدها يترك الدكتور لي والخالة روز يرجعان إلى المنزل. سيكون على سان سان التسلل إلى منزلهما قبل انتهاء الجلسة، تخيّلت وجه معلمتها يتهلّل بهجةً عندما تراها.

وصلت إلى ساحة البلدة بينما كانت أُخَرُ المتخلفات عن الركب، حيزبوناتٍ دقيقاتِ الأقدام يتعكّزن على عكّازاتهن، يشققن طريقهن إلى ملعب كرة السلة في المدرسة الثانوية، وبدلًا عن اللحاق بهن عبر البوابة، التفّت حول الحدود الخارجية للمدرسة. انتصبت سنديانة عتيقة على بُعد خمسين مترًا تقريبًا من ملعب السلة، جاهدت حتى تسلقت غصنًا خفيضًا متينًا خلف أجمة كثيفة من الأوراق، وما كان عليها إلا

استراق النظر من بين الأوراق حتى تحصل على رؤية واضحة للمنصة التي أُقيمت في مقدمة الملعب.

كان الطلاب المصفوفون بحسب صفّهم جالسين متربعين على الخرسانة التي سفعتها الشمس بالفعل، بينما احتشد أهل البلدة خلفهم. جلس بعض أهل البلدة على مقاعدَ جلبوها معهم من منازلهم، وراحوا يبردون وجوههم بمراوح ورقيّة. يصعب القول، نظرًا لتطابق قمصانهم البيض وشورتاتهم أو تنانيرهم البحرية، لكن ألم تكن تلك ليتل ريد هناك في الصف الثالث؟ التفتَت البنت ذات الذقن المدبب قليلًا، مؤكدةً شكوك سان سان. أخرجت ليتل ريد حلقةً من الخيطان من جيبها وأشركت البنتَ الجالسة بجوارها – ستيمد بَن بالطبع – في لعبة أرجوحة القطة، وتورّمت الكتلة إبهاميّة الحجم في حلق سان سان حتى صارت بحجم قبضة.

جذب رجلٌ، له بطن كوك المدعبل ورأسه الأشيب انتباهَها، لكنها أخطأت هذه المرة؛ كان الرجل غريبًا. كانت قد أمضَت الأسبوع الماضي في عزلة تامة، لكنها لم تشعر بالوحدة أكثر مما فعلت في هذه اللحظة، وهي جالسة على غصن الشجرة، قريبة بما يكفي لتصرخ معلنة وجودها أمام القرية بأكملها. بحثت سدًى عن كوك وموي، متسائلةً كم ثابرا في بحثهما عنها. أمِلت أنهما قد أخبرا أمها بأنها مفقودة، وأمِلت أن الأنباء قد دمّرتها.

خطَت مذيعة البلدة، وهي امرأة جذابة كانت سترتُها وبنطالها أكثرَ أناقةً وأقل كآبةً من البقية بطريقة ما، صاعدة المنصة، وقادت أهل البلدة في أداء مثير لأغنية: «الاشتراكية حسنة». لطالما أُعجبت سان سان بصوت غناء المذيعة المعسول، وعلى الرغم من كربها، وجدت نفسها تهمهم معها.

ما إن انتهت الأغنية، حتى قفز الرفيق آنغ الكريه على المنصة حاملًا مكبر صوت. لم تكن سان سان قد رأته منذ جلسة النقد الذاتي خاصتِها، وتمنّت أن تزلّ قدمه على لوح رخوٍ ويسقط منبطحًا على وجهه.

لكن الرفيق آنغ تحرك برشاقة وسلاسة.

وصاح عبر مكبر الصوت: «اخدم الشعب!»

فصاح الحشد مرددًا: «اخدم الشعب!»

و: «تجاسر على النضال، تجاسر على النصر!»

و: «قاتل، قاتل حتى النهاية!»

صفّق الحشد بأيديهم وخبّطوا بأرجلهم، واستحال وجه الرفيق آنغ أحمرَ فاقعًا بينما استمرّ بالصراخ والتلويح.

كانت سان سان في العادة تستمتع بجلسات الإنشاد، فاتحاد كل هذه الأصوات في انسجام تام، مثل جوقة هائلة أو أوركسترا، شيء لم تختبره في حياتها الموسيقية قط. حذرتها أمها عندما بدأت بارتياد الدروس قائلةً: «إن البيانو أداة موسيقية منفردة»، وعارضتها الخالة روز قائلةً: «إنه مكتفٍ بذاته، لا يحتاج المرء إلى الاعتماد على مرافق أبدًا».

لكن في هذا الصباح، لم تجنِ سان سان أيَّ بهجة من العرض الجائر شبه الهستيريّ للحشد، فقد جحظت عيونهم وتلوّت فكوكهم محولةً وجوهَهم إلى أقنعة غُوليّة. كيف لم تلاحظ هذا قبلًا؟

ارتفع فوق الهتاف الساخط صوتُ عويل صفارة إنذار، ومرت شاحنة شرطة مسرعة عبر شجرة سان سان لتتوقف عند حافة ملعب كرة السلة، فأشار الرفيق آنغ للحشد أن يهدأوا وترك المنصة للمذيعة.

قالت: «لقد وصل السجينان».

فثار ثائرُ الحشد، ولو لم تكن سان سان متشبثة بغصنها بكلتا يديها لغطّت أذنيها.

فُتح باب الشاحنة، وترجّل منها شرطيان متسربلان بزيٍّ أنيق ذي لون أخضر زيتونيّ، وحيّا المجتمعين قبل أن يَسوقا متهميْهما خارج السيارة. غُطيَ وجها السجينيْن بكيسيْ مخدات قذريْن، وتدلّى منهما لباس سجناء فضفاضٍ مثل شوالات الخيش.

صدرت عن الحشد همهمة استحسان خفيضة. كان من المستحيل معرفة ما إذا كان السجينان ذكريْن أم أنثييْن، صغيريْن أم كبيريْن، لكن سان سان كانت واثقةً من غياب احتمال أن يكونا الخالة روز والدكتور لي، فهذان الجسدان مهزولَيْن ومنكمشيْن، ولا يشبهان معلمتها الجميلة الممتلئة والطبيب الطويل عريض المنكبيْن في شيء. في الحقيقة، وبعد أن توقفت الآن لتفكر في الموضوع، فهي لم تسمع ذكرًا لاسميهما طيلة الصباح، فهل تراها أخطأت التاريخ؟ أكانت حاضرةً جلسةَ الإدانة الخاطئة؟

نكز الشرطيان السجينيْن بعقبيْ عصويْهما، كما لو كانا أحقَر من أن يُلمسا، فتقدم الزوجان ببطء وحذر شديدين، معميٌّ على بصريْهما بكيسيْ الوسادات، ومعاصمهما مقيدة خلف ظهريْهما.

أخذ الحشد بالسخرية.

«أروا بيوضَ السلحفاة أولاء من المسؤول الآن!»

«اجعلوا ابن الكلب هذا يدفع الثمن!»

الآن صارت سان سان متأكدةً أنها وبطريقة ما قد حضرت الجلسة الخاطئة، وراحت تضحك معهم، وبدا صوتها غريبًا ومزعجًا في أذنيْها.

بعد أن جرّ السجينان قدميْهما لبعض الوقت، سئم الشرطيان منهما وقبضا على قيديْ ذراعيْهما آخذيْهما إلى المنصة بين الدفع والجرّ،

ووقف السجينان هناك أخرسيْن ووجهاهُما المغطيان يهتزّان إثرَ كل إهانة تتطاير في الهواء.

صاحت المذيعة: «فلتبدأ جلسة الإدانة!»

عند الإشارة، ضرب الشرطيان ظهريْ السجينيْن بعصويْهما، فتكوّما على الأرض كما لو أنهما مصنوعان من الكرتون، وإن صرخ أحدهما، أو كلاهما، فقد ضاع الصوت في تهليلات الحشد.

انقبض حلق سان سان، وأحكمَت تشبثها بغصنها إلى درجةٍ لن تتفاجأ معها إن بدأت راحتاها بالنزيف.

بسطت المذيعةُ لفيفةً طويلةً وبدأت بسرد جرائم السجينيْن، لكن هتاف الحشد طغَى على صوتها، ولم يهدأ الجميع في نهاية المطاف حتى وثب الرفيق آنغ على المنصة ولوَّح بذراعيه بعنف.

حلّ الصمت على ملعب كرة السلة عندما أعلنت المذيعة أن الوقت قد حان لكشف وجهيْ المعادييْن للثورة. نهض أهل البلدة الجالسين عن مقاعدهم، وأسكتت معلماتُ الروضة الطلاب الأصغر سنًّا، وتوتّرت كل عضلة في جسم سان سان وجَلًا وأملًا وذعرًا.

أخذ الشرطيان مكانيْهما خلف السجينيْن الراكعيْن.

وقالت المذيعة: «ها نحن نبدأ، واحد... اثنان... ثلاثة!»

رُفع كيسا المخدات طائريْن في الجو، وغادر عويلٌ مخنوقٌ شفتيْ سان سان؛ صوتٌ غريبٌ حيوانيٌّ لم يصدر عنها في حياتها قط!

كان الطبيب هناك على المنصة، بالكاد يمكن التعرف عليه تحت الضمادات الشنيعة المتشربة بالدمِ الملتفّة حول رأسه وإحدى عينيْه، وعينُه الثانية متورّمة إلى حد الانغلاق.

صرخ شخص ما من الحشد: «نذل! منحرف!»

ارتعش رأس الدكتور لي، على نحو يبدو لا إراديًا، في اتجاه شاتمه، ما استدرّ المزيد من الإهانات.

لكن منظر الخالة روز هو ما جعل سان سان تُفلت الغصنَ وتفقد توازنَها وتكاد تنهار على الأرض.

كان شعر الخالة روز الكثيفُ الوارفُ قد حُلِق حتى فروة رأسها، كاشفًا عن الزوايا المهزولة الرقيقة لجمجمتها، وكانت بشرتها قد شحُبت من أيِّ لون، باستثناء شطب قرمزيّ فاقع على جانب وجهها من الصدغ إلى الذقن. كانت راكعةً على ركبتيْها ورأسها مائل جانبًا، وعيناها نصف المفتوحتيْن ترمشان ببطء شديد كما لو أنها لا تكاد تكون واعية.

مشى صفّ من الأطفال إلى المنصة.

قالت المذيعة: «أرجوكم، رحبوا بأصدقائنا الصغار».

سار الأطفال متجاوزين الدكتور لي والخالة روز بأعيُنٍ مصوّبة إلى الأمام مباشرةً. كان بينهم بينغ بينغ كونغ، زميلة ليام في الصف، وتان هوت الصغير من قصر سي أند سكاي، والأخوان غاو، اللذيْن كانا توأميْن متطابقيْن، فأدركت سان سان أنهم كلهم، مثلها، كانوا طلاب البيانو خاصةَ الخالة روز.

حثتهم المذيعة: «هيا أيها الأصدقاء الصغار، أخبرو الجميع كيف دنّست روز لي عقولكم الشابة اللامعة».

أخذت بينغ بينغ الميكروفون وتوجهت للحشد بابتسامة بهيّة وكأنها تُنافس في برنامج مواهب: «لا تُعلِّم روز لي طلابَها إلا الموسيقى الغربية. روز لي تؤلّه موزارت وشوبان وباخ، وتعتقد أن الموسيقى الصينية أدنى منزلةً من الموسيقى الغربية. لقد سمّمت عقول الجيل القادم من موسيقيّي جزيرتنا، وهي مستحقةٌ العقاب».

هلّل الحشد، ومررت بينغ بينغ الميكروفون إلى الطفل التالي في الرتل، لكن سان سان لم تعُد تُنصت، وراقبَت كيف دلّت الخالةُ روز رأسَها، بعينيْن وديعتيْن ووجه خالٍ من التعابير. تساءلت ما إذا كانت معلمتها تتظاهر بالحَذَر آملةً استدرار الشفقة. إنها مجرد كلمات، كانت تتوق لأن تقول لمعلمتها: غُضّي الطرف عنهم، وسرعان ما سينتهي الأمرُ برمته.

عندما تكلم الطفل الأخير، أخذت المذيعة الميكروفون، وقالت للحشد النشوان: «لقد جمعنا كل الطلاب السابقين لروز لي ما عدا واحدة، واحدة لم يتسنَّ لها الكلامُ، طالبةٌ أُسكت صوتها إلى الأبد».

التفتَت المذيعة وأشارت إلى الدكتور لي أولًا ثم إلى الخالة روز: «أين سان سان أونغ؟ اعترفا للجماهير قبل أن تلقيا حتفَكما».

فانفجر الحشد مرة أخرَى.

«اعترفا! اعترفا! أين سان سان أونغ؟»

هبطت سان سان عن غصنها واختبأت خلف جذع الشجرة الثخين.

على المنصة، رفع الدكتور لي وجهه إلى السماء وغضّن ملامحه ألمًا، فمررت المذيعة الميكروفون لواحد من الشرطييْن، والذي حمله على مقربة من شفتيْ الدكتور لي. كان صوتُه أجوفًا ومبحوحًا: «لا أعرف أين هي. أقسم بقبر أبي».

سرى تيارٌ جليديٌّ في جسد سان سان، ولفّت ذراعيها حولها ضاغطةً جبهتها على لحاء الشجرة القاسي.

صرخ الحشد: «اعترفا! أيها الخائنان الحقيران! أيها الخاطفان متحجرا القلب!»

إن سلمت سان سان نفسها، أكان هناك أي فرصة أن يُطلق سراح الدكتور لي والخالة روز، أم أنها ستُعدم رميًا بالرصاص إلى جانبهما

لمحاولتها الفرار؟ أكان اختفاؤها ما سبب إطلاق هذا الحُكم عليهما، أم كان جزءًا من جريمة إضافية استخدمها الحزب لإثارة غضب الجموع؟

مُحرَضًا بهتافات الحشد، أرجع أحد الشرطييْن ساقه وركل الطبيب بحذائه الأسود الثقيل، فأنَّ الطبيبُ وسقط على جانبه، وخضّ هذا أخيرًا الخالة روز موقظًا إياها. حاولت الزحفَ إليه، لكن الشرطي الآخر لجمها ممسكًا بياقتها مثلما يُمسك الكلب.

قالت المذيعة: «خذاهما ليُعدما».

مسحت سان سان دموعها. إن سلمت نفسها، فهل قد يُسمح لها برؤية الدكتور لي والخالة روز مرةً أخيرة؟ أُغلق باب الشاحنة، وبدأ الحشد بالتشتُّت، فنفّت في كُمّها وهرولت إلى ساحة البلدة. كان عليها الوصول إلى كلية الفنون من دون أن تُلحَظ.

نادى صوت خفيض: «سان سان، سان سان، أهذه أنتِ»

لم تكن بحاجة إلى الاستدارة لتعرف تمامًا من كان المنادي. أسرع كوك، ومعه موي إليها، فصرخ عقلها: «اركضي!»، لكنّ قدميْها تعوّقتا، ثم انقشعت العاصفة داخلها، مفسحة المجال لذكرى مهملة منذ زمن بعيد: عزيزتها هانسل مرتدية ثوب نوم صغير مخطط كانت موي قد حاكته لها من ستائر قديمة.

زعقت موي: «ألم أقُل لك إنها هي مَن كان في تلك الشجرة؟»

كان فم موي فجوة فاغرة، ووجه كوك أرجوانيًا جراء الإرهاق، لكن بديا مغتبطيْن للعثور عليها. ربما، احتمال ليس أكثر، سيخبآنها، وربما سيساعدانها على الهرب.

لهث كوك قائلًا: «نادي الشرطة».

فأفاقت سان سان من غيبوبتها وانطلقت مسرعةً.

قالت موي: «ذلك سيؤخرنا أكثر، أمسكها أولًا ثم ننادي الشرطة».

التهبَ فخِذا سان سان وربلتاها، وكادت رئتاها تنفجران، لكنها باتت تعرف الآن أن عليها مواصلةَ الركض، وأنه لا يجب أن يُقبض عليها أبدًا. إن كان ثمة درس واحد تعلمته في الشهر المنصرم، درسٌ واحد علمتها إياه خيانةُ عائلتها، كان هذا: الشخص الوحيد الذي يمكنها الاعتماد عليه هو نفسُها، وكانت النتيجة البَدهيَّة لذلك الدرس واضحةً: لن تضع نفسها في معرض الخطر لأجل أي شخص آخر مجددًا أبدًا، ولن تُسلم نفسَها أبدًا.

عند قمة التلة، ألقت نظرةً خلفها ورأت حفار القبور العجوز على بُعد خطوتين من كوك: «قلتُ لك إني رأيتها ذاك اليوم، لا أحد يستمع إليَّ أبدًا».

انحرفت سان سان عن الطريق الرئيسي وقفزت فوق البوابة المنخفضة لمنزل مدير مكتب البريد، وجثمت خلف سياج، ثم كممت أنفها وفمها بيديها لتكتم لهاثها وراحت تسترق النظر من بين الأوراق.

قال كوك وهو يئزّ، وبطنه ينتفخ مع كل نفَس: «في أي طريق ذهبَت؟»

قالت موي: «أنت اذهب في ذاك الطريق، وأنا سأذهب في هذا. لا يمكن أن تكون قد ابتعدت».

انحنى كوك مستريحًا ويداه على ركبتيْه، وقال لحفار القبور: «إذا ما اكتشفت أمها، فسوف تقتلني»، الذي أجاب: «اقلق بشأن هذا لاحقًا».

مرّت أصابع سان سان على الحافظة الورقية من رسائل أمها المحشورة في حزامها، وعلى إسوارة جدتها الذهبية المخرّمة، والقِشاط الجلديّ الأحمر لساعتها فضية الوجه. كان لزامًا عليها مغادرة الجزيرة، فلم يبقَ لها شيء هنا.

20

بلغ الحنق بسوك كون أنها بالكاد نطقت الكلمات «شكرًا لمساعدتك» مختنقةً قبل أن تضع السماعة.

وعلى الرغم من كون الوقت منتصف النهار، كانت السماء خارج نافذتها داكنةً دُكنةً مسائية، والبرق يشق السُحب الكثيفة متبوعًا برعدٍ مدوٍّ، كما لو أن الطبيعة نفسها شاركت سوك كون اهتياجَها.

حُصّل خطابُ طبيبٍ آخر، وكُتبت الرسالة بحذر لتعبُر الرقباءَ وستصل إلى الفيلا الماسية في غضون أيام، وأدرج الأب ليونغ اسم سان سان في نشرة صلوات يوم الأحد، وأكد لسوك كون أنه كان يصلي شخصيًا من أجل وصول الفتاة بأمان.

لكن عندما اتصلت سوك كون بمصرفيّ زوجها، للتحقق فقط من أن الأموال في مكانها، اكتشفت أن أقل من نصف المبلغ المطلوب قد أودع في حساب تشاي.

قال المصرفيّ: «لقد زارنا زوجكِ بالفعل البارحة. لا، لا أعتقد أنه ذكر أي شيء عن وديعة أخرَى».

فقالت سوك كون: «لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا. تحقق مجددًا لو سمحت».

لكن المصرفيّ عاد بالرقم نفسه، وعندما حرّجت سوك كون عليه أن يتحقق مرةً إضافية، قال باقتضاب: «سيدة أونغ، أقترح أن تباحثي هذا الأمر مع زوجك. من الواضح أن ثمة سوء تفاهم من نوع ما».

بحسب سكرتيرته، كان تشاي حاليًا في اجتماع مهم جدًّا ولا يمكن إزعاجه. وحتى لو رد على مكالمتها، فما الذي كانت سوك كون لتقوله؟ إلى أي حدّ يمكنها الإمعان في التوسّل؟ كيف يمكنها حمله على الاهتمام؟

تساءلت عما إذا كان زوجها بهذه الأنانية وهذه اللامبالاة طوال الوقت. في أول مرة انتظر تشاي أمام بوابة الكونسرفاتوار، لحظته روز قبل سوك كون: شخصية مُهندمة مُعتدّة في قبعة قشّ باعتبارها قمة الرقيّ. ما الذي عرفته سوك كون عن خاطبها؟ كانت قد أُعجبت بخُلُقه الخالي من العيوب، وثقته بنفسه المقرونة بتلك الابتسامة الشيطانية التي لا يمكن مقاومتها. شعرت بالإطراء لجذبها انتباهه، وبالفخار وقتما هنأتها عائلتها وأصدقاؤها على تكوين ارتباط حسن كهذا. لكنها تعجز عن تذكر أي شيء فيما خلا ذلك، تعجز عن تذكر ما إذا كانت تعتقده لطيفًا أو شريفًا، وتعجز حتى عن تذكر ما إذا كانت تستمتع بصحبته، فقد كان مركزة جدًّا على ضمان استمتاعه هو بصحبتها.

في تلك الظهيرة، تسكّعا عبر حديقة برايت مون في طريقهما عودةً إلى البيت الذي أقامت فيه خلال العام الدراسي. سألته أن يحكي لها عن هونغ كونغ، التي كان يزورها بانتظام للعمل حتى آنذاك.

«إنها قذرة، ومزدحمة، ومدينة فوضًى بحق. الشيء الحسن الوحيد بخصوص هونغ كونغ هو أنها تذكرني بكم نحن محظوظون لنعيش هنا، على جزيرة درَم ويف. لم أكن لأنشئ عائلتي هناك أبدًا».

فاحمرّت خجلًا وأخفضت نظرها لتتجنب الظهور بمظهر متجرّئ. بعد ثلاثة أسابيع، سافرَ وعائلته إلى منزل أهلها في فوتجو من أجل الخطبة، وتزوجا بعد ذلك بشهرين.

حافظ تشاي على وعده، مبقيًا عائلته على الجزيرة بينما تحمّل مشقة الرحلات المتكررة إلى المستعمرة. كان يرجع إلى المنزل منهكًا ومرتاحًا، وطافحًا بالحكايا عن الأمور التي رآها، شارع كامل من المتاجر التي تقدم حساء الأفاعي فقط، والذي يعتقد الكانتونيون بأنه مُداوٍ، والبصّارة التي طاردته لتحذره من دمار ماليٍّ محدق، تلك الشيطانة العجوز!

في ذلك الوقت، كانت سوك كون تتخيل أرضًا مخْلًا خليعةً ملؤها الضباب والظلال. لكن الآن، رأت أن هونغ كونغ مثل أي مدينة في صينِ ما قبل الثورة، حازمة، وصاخبة، وفوضوية.

في أحد الأيام، قبل عيد الميلاد الثالث لليام تمامًا، اقتحم تشاي الفيلا حاملًا حقيبة سفر ملأى بالهدايا، وليست لفتى عيد الميلاد فقط، بل لسوك كون وبي كيم أيضًا: أحجار يشمٍ وحريرٌ وصندوق مجوهرات مطليٌّ بالورنيش ومرصّع بزوج من الغرانيق الصدفية. ورغم انتشائها حبورًا بالكنوز، كانت بهجة سوك كون مشوبةً بالشك.

استطالت رحلات تشاي إلى هونغ كونغ، لكن قصصه تلاشت. صار يأتي إلى المنزل مشتتًا وضيق الخلق، ودائمًا، دائمًا، جالبًا هدايًا، كل منها أكثر بذخًا من سابقتها، كما لو كان بوسع بريق قلادة يشمٍ بلونٍ أخضر تفاحيٍّ نادر أن يعمي بطريقة ما زوجة عن رؤية ما في قلب زوجها.

عندما دخلت سوك كون في المخاض مرةً أخرَى، لم يأتِ تشاي إلى المنزل ليحضر الولادة، وعندما تبيّن أن المولود فتاة، امتدحه الجميع لتحليه بالبصيرة التي مكنته من إيلاء الأولوية لعمله.

عرفت سوك كون الآن، أن تلك اللحظة كانت اللحظةَ التي خسرته فيها إلى الأبد. ولتركها الموضوع يمرّ دون قتال، سيكون عليها تحُمّل جزء من اللوم على بروده تجاه سان سان.

قصف الرعد مجددًا، وانهمرت حبال مطرٍ كثيفةٌ من السماء. تساءلت كيف كانت حالة الطقس على الجزيرة. كانت العطلة الصيفية قد بدأت، وإن كان النهار رائقًا، فستكون ابنتها في خليج فلوريشينغ بيوتي مع ليتل ريد، تسبحان وتتصيّدان سمك الرعاش الأصفر وتحصدان المحارات البرية.

فجأةً، صارت الغرفة مظلمة جدًا، وخانقة جدًا، ولم تقوَ سوك كون على التنفس. احتاجت إلى الخروج ورؤية المحيط وتنشُّق الهواء المنعش السَّبخ. رأت نفسها تغطّ إصبعًا من قدمها في مياه خليج الصدّة المدوّمة التي ثقّبها المطر، والأمواج تختطف صبابتها عبر بحر الصين الجنوبي إلى ابنتها، التي تطرطش في زبد الأمواج أسفل سماء زرقاء صافية. تخيلت سوك كون أن تغوص تحت السطح وتشقّ المياه بأطرافها دافعةً بنفسها مباشرةً إلى ذراعيْ ابنتها.

أسفل مظلة ضخمة، وقفت سوك كون إلى جانب الطريق حتى انتقّعت تنورتها وظهرُ كنزتها، لكن لم تتوقف أي سيارة أجرة. بدا أن كل هونغ كونغ في الخارج في هذه الشوارع العاصفة يحاولون الوصول من مكان إلى آخر.

مالَت سيارة أجرة خالية إلى جانب الطريق، وكانت مسّاحتاها تتحرّكان بعنف، فلوّحت سوك كون مرارًا وتكرارًا، لكنها رفضت الإبطاء، وكان في أعقاب سيارة الأجرة سيارةُ جاغوار فضية رحبة، وعندما أدركت سوك كون أن عليها القفز إلى الخلف كان الوقت متأخرًا جدًّا، فقد تدحرجت العجلات البدينة للجاغوار في بركة ماء، مغرقة إياها بالمياه

القذرة، فصرخَت تحدوها رغبةُ مجنونٍ في طيِّ مظلتها وقذفها مثل رمحٍ على السيارة السخيفة زورقيّة الحجم.

ولمفاجئتها، توقفت السيارة بدلًا عن الإسراع بعيدًا، وفُتح الباب الأمامي ليخرج منه سائق ببذلة رسمية يحمل مظلته، وجاء باتجاهها.

استغرقت سوك كون ثانيةً لتتعرف إلى سائق زوجها. لكن متى اشترى هذه السيارة التافهة؟ هاج الغضبُ داخلها. أيمكن أنّ تشاي يبذّر المال في وقت كهذا حقًّا؟

انحنى السائق بشدّة: «أرجو أن تقبلي خالص اعتذاري يا مدام أونغ. لم أرَكِ».

«إنه خطئي، كنت واقفةً قريبةً جدًّا من الحافة»، وألقت نظرة على تنورتها المضمخة بالوحل ثم حاولت جاهدةً رؤية المقعد الخلفي للسيارة. ما الذي كان تشاي يفعله في هذا الجزء من البلدة؟ تساءلت عما إذا كان اجتماعه المهم قد انتهى، أم أن السكرتيرة كذبت ببساطة.

«تفضلي، سنوصلك أينما تذهبين».

تقدمَت سوك كون إلى الجاغوار، وأسرع السائق ليواكبها. جذبت الباب الخلفيّ بقوة، ولم يستقبلها زوجها، بل امرأة شابّة في غاية الشحوب لها شعر متلبّد مخصّل بنيّ مائل إلى الحمرة وعينان بلون الشاي الخفيف، سمات نادرة بالنسبة لصيني.

«أسرعي واركبي قبل أن تبتلّ كلتانا»، قالت الشابة ذلك بنبرةٍ آمرةٍ إلى درجة أن سوك كون طوَت مظلتها على الفور وامتثلت.

مدّت الشابة يدها: «تشرفتُ بلقائك أخيرًا يا سيدة أونغ، أنا...»

قالت سوك كون: «لولو».

ضغطت المرأة شفتيْها إلى خط شرس: «نعم».

بالطبع توقعتها سوك كون أن تكون جميلة، لكن هذه الشابة لم تشبه أي امرأة رأتها من قبل. من هذه الزاوية، كانت لولو جلدًا على عظم، مثل صبيٍّ يافع في خضم انبجاسة بلوغه، ومن زاوية أخرَى، أظهر الضوء لطخات الذهب في عينيْها اللتيْن بلون الشاي الخفيف، والانحدار المدوَّخ لعظمي خديها، والانحناء الشهوانيّ لشفتها السفلى.

نادى السائق: «إلى أين؟»

اتضح سُخف خطة سوك كون للذهاب إلى خليج الصدة في وسط عاصفة. كل ما أرادته كان الكلام مع هذه الشابة الغريبة، الشخص الوحيد الذي قد يحوز معرفة بعقل زوجها المُبهم.

سألت لولو: «إذًا؟»

فقالت سوك كون: «أنا بحاجة إلى مساعدتك».

رقّ وجه لولو: «وأظنّ أنني بحاجة إلى مساعدتك نوعًا ما».

إذًا، لم يكن هذا اللقاء مصادفةً كبيرةً، فقد جاءت لولو باحثةً عنها.

قالت لولو: «ابدأي أنتِ».

«إنها ابنتي»، وشعرت سوك كون بدموعها تنهمر عنوةً عنها، فقالت: «اعذريني»، وراحت تبحث في حقيبتها عن منديلها.

ناولتها لولو منديلها الخاص، وعندما قرّبت سوك كون القماشة العاجيّة ذات الحافة المخرّمة من وجهها، اشتمّت رائحة ورود في أوج تفتّحها.

«الابنة التي اضطررتِ إلى تركها».

أُخذت سوك كون على حين غرة بفظاظة هذه الغريبة القريبة، لكنها أدركت بعدئذٍ أن ذلك عفاها من الحاجة إلى الشرح: «لديّ خطة لإنقاذ

ابنتي، خطة جيدة ومتينة، لكن...»، وانحسر صوتها تدريجيًا. لم تستطع نُطق اسم زوجها.

- لكن؟

- أنت الوحيدة التي يمكنها تغيير رأيه.

أصدرت لولو صوتًا كان نصف سخرية ونصف ضحكة: «ربما كان هذا حقيقةً في الماضي، لكنني خسرت أي سلطانٍ امتلكته فيما سبق، فقد اتخذ قراره في النهاية».

عبست سوك كون: «ماذا تقصدين؟»

قوّست لولو حاجبيها: «لقد عرض المنزل للبيع، وانتقل للعيش معك. إلى أيّ حد يمكن أن يكون الأمر أكثر وضوحًا؟»

كانت هذه أول مرة تسمع سوك كون فيها بأمر مبيع المنزل، وإن كان زوجها لا يخبرها بأي شيء بالطبع: «لم يمرّ بالشقة منذ أسابيع».

ضيّقت لولو عينيْها، وجعلت السائق ينعطف ويوصلهما إلى منزل ابنة عمها حيث كانت تقيم - مؤقتًا جدًا - كما أضافت بنبرة مُهددة.

لم تجرؤ سوك كون على طلب الاستفاضة في التفاصيل؛ ذلك أنها لم تعرف ماذا تفهم من أسلوب لولو المُضلل رغم فظاظته. شعرت باحترام قسري تجاه زوجها، الذي تمكن من أسر انتباه هذا المخلوق الغريب.

في غرفة استقبال ابنة عم لولو، بينما تشربان الشاي الإنجليزي الذي وجدته سوك كون قاتمًا لاذعًا للغاية وممزوجًا بالقشدة أكثر مما ينبغي، جمّعت المرأتان أجزاء كل ما تعرفانه.

وفجأةً، وضعت لولو كأسها ونهضت على قدميْها ثم مشَت إلى النافذة لتشاهد المطر المنهمر: «يبدو أن عزيزنا السيد تشاي هونغ أونغ مُفلس».

فقالت سوك كون: «لستُ أفهم».

«منكوب، مكسور، لا يملك فلسًا».

لكن كيف لذلك أن يكون حقيقة؟ ماذا عن نمط حياة تشاي الباذخ؟ النفقة الشهرية السخيّة؟ رسوم مدرسة ليام الخاصة؟

عادت لولو إلى مجلسها قبالة سوك كون: «لقد سرّح كل الخدم وباع السيارات. السائق ومدبرة المنزل، كلهم جاؤوا إلى هنا يتوسّلون إليّ أن أكلمه وأقنعه بالعدول عن ذلك، فأقنعتُ ابنة عمي بتوظيفهم».

حاولت سوك كون استيعاب هذه المعلومات الجديدة: «فهمت».

«بعد أن سمعتُ بعرضه المنزل للبيع، تخيّلتُ أنه انتقل للعيش معكِ، فذهبتُ بالسيارة قرب شقتكِ اليوم لأؤكد شكوكي. لكنني فهمتُ الآن أنه كان يحاول جمع المال بأسرع وقت ممكن فقط».

عرفت سوك كون أنها يفترض بها الشعور بالأسف على زوجها - فلكم من الوقت قد كتمَ هذا السر الهائل؟ - لكن أفكارها كانت مستنزفةً على سان سان. كانت ابنتها الذكيّة ثابتة العزم قد مشَت أوّلَ خطواتها مبكرًا، أبكر من ليام حتى. في اليوم الصيفي البعيد ذاك، رفعت سوك كون نظرها عن رواية الغموض خاصتِها لترى طفلتها تدرُج ناحيتها، مادةً يديْها الممتلئتيْن لتتوازن، ووجهها متهلل وفمها أشبه بدائرة مبتهجة، فهبطت على ركبتيْها ومدت يديْها لسان سان، التي مشَت خطوتيْن إضافيتيْن وتعثرت ساقطةً في حضنها، كلها نعومة وضحك وصياح.

من دون المال، كل شيء سيضيع.

سألت لولو: «ماذا ستفعلين؟»

فقالت سوك كون: «لا أعرف». تلاشَت أي خيوط متبقية من استقامة النفس، من الغيظ، تاركة إياها خاوية جامدة، إذ أنها لم ترَ أي وسيلة لإنقاذ ابنتها. راقبت لولو ترتشف آخر رشفة من شايها كما لو كانت تراقب معروضةً في متحف، وسألت: «وأنتِ؟».

هزّت لولو كتفيْها النحيلتيْن: «لا يمكنني فرض نفسي على سينثيا لوقت طويل، فقد تجاوزتُ المدة المرحب بها».

نقّلت سوك كون نظرها في الغرفة النظيفة بين ورق الجدران المخطط بالورود واللآلئ، والمزهرية المملوءة بزهور الكوبيّة بلونِ أزرقِ قشرِ البيض فوق الموقد. كان ثمة لوحة زيتية معلقة فوق البيانو القديم، لوحة طبيعة صامتة لتفّاحات ذات منظر شمعيّ. رغبت بسؤال لولو عن مكان والديها، فبالطبع شخص مثلها لديه أفراد عائلة وأصدقاء آخرين لتستند إليهم.

أعادت لولو فنجانها إلى صُحيفته بعنايةٍ دقيقة: «حظيتُ بابنةٍ ذاتَ مرة».

تفحصت سوك كون وجه الفتاة الناعم: «أوه؟»

«كان اسمها ماريغولد».

فقالت سوك كون: «زهرة جميلة، واسم جميل».

21

أن يلعب المرءُ دور الرياح الشرقية أو السابع من البامبو، أن يصل إلى النقطة السريعة السهلة، أو أن ينتظر، مرتقبًا الفرصة المؤاتية، أن يحاول الفوز بكل شيء، لكن، بالطبع، مجازِفًا بخسارة كل شيء في إبان ذلك؟ أليست تلك المعضلة الأبديّة، في الماه جونغ كما في الحياة؟

كانت اللعبة تسير على نحو سيئ. لم تكن بي كيم قد نامت جيدًا في الليلة السابقة، ولم يكن مزاجها مناسبًا للدردشة مع زملائها المهاجرين الفوجيانيين. في الحقيقة، لم يسعها تذكر آخر مرة نامت فيها نومًا هانئًا، وبالتأكيد لم يكن ذلك بعد وصولها إلى المستعمرة، بتريشوهاتها وسياراتها الآلية المزمّرة وسكانها الذين كانوا يصرخون – لم يتكلموا بنبرات محادثة طبيعية قط – بتلك اللهجة متنافرة الأصوات.

كان مركز الجمعية الفوجيانية مزدحمًا بستٍّ لعبات تجري في الوقت نفسه، وكانت بي كيم قد وصلت متأخرةً بضع دقائق وحُوّلت إلى طاولة الزيادة مع السيدة لاو؛ أرملة بدينة ساذجة ومُملّة بكل معنى الكلمة، والسيد إنغ؛ رجل جدي لم يكن ينطق إلا عند الضرورة القصوى، والأسوأ

بين الجميع، المدام تاي؛ نمّامة وقحة يبدو أنها كانت شخصية بارزة شهيرة في موطنها.

في اللحظة الأخيرة، غيرت بي كيم رأيها وحرّكت قرميدة البامبو خاصتها إلى مركز الطاولة، وعلى بُعد طاولتين، رفع السيد تان ذراعيه في الهواء وصاح «ماه جونغ»، وأطلق خصومه صيحات مُحبَطة.

هزّت المدام تاي حاجبيها الهزيلين المُحددين بميل وتنحنحَت قائلة: «من المؤكد أنكم قد سمعتم الأخبار بحلول الآن». كانت تلك فاتحتها المعتادة.

سألت السيدة لاو، التي كانت تبتلع الطعم دائمًا: «ما الجديد؟» في الديار، لم تكن الأرملة لتصير جزءًا من شِلة المدام تاي أبدًا، لكن هنا في المستعمرة، في ظل العُرف الكبير القاضي بأن يُنحي كل المنفيين الاختلافات جانبًا ويتحدوا ضد عدو مشترك – الهونغ كونغيون المتكبرون في هذه الحالة – صارت المرأتان صديقتين بسرعة.

«بونغ»، قال السيد إنغ وهو يمدّ يده إلى قرميدة السيدة لاو المُهملة.

تابعت بي كيم دراسة ما في يدها من قطع. لم تشعُر برغبة في مجاراة المدام تاي.

التفتت المدام تاي عازمةً إلى السيدة لاو: «أوه، ألم تسمعي؟ عن الإعدام الذي نُفذ على جزيرة درّم ويف؟»

رفعت بي كيم عينيْها ببطء، وإلى جانبها، راح السيد إنغ يخلط قرميداته على رفّه مرارًا وتكرارًا.

قالت السيدة لاو: «يا إلهي! لقد بدا منهم قدرٌ كبير من التهوّر، إن الشيوعيين يكشفون عن وجههم الحقيقي فعلًا الآن».

سألت بي كيم: «أين سمعتِ ذلك؟»

فأجابت المدام تاي: «من زوجة صديق ابني في المدرسة. هيَ من جزيرة درَم ويف، أو ربما عائلة أمها من هناك، لا أذكر».

سألت بي كيم: «مَن؟»

«لا يمكنني تذكر اسم الزوجة قبل زواجها...»

فقاطعتها بي كيم: «لا. من الذي أُعدم؟»

قالت المدام تاي، وسرورها بادٍ لحيازتها على اهتمامها: «أوه، فهمتك. طبيب شهير وزوجته».

فقالت السيدة لاو: «يا لها من خسارة! يا لها من خسارة مفجعة!».

وضعت المدام تاي أصابعها على ذراع بي كيم مبديةً قلقها.

«آملُ أنهما لم يكونا من معارفك؟»

سحبت بي كيم ذراعها: «ثمة أكثر من طبيب واحد في جزيرة درَم ويف».

«من غير ريب، لكن هذا الطبيب كان شهيرًا للغاية كما يبدو، ورفيع المنزلة أيضًا. وزوجته كانت عازفة بيانو بارعة».

انغلق حلق بي كيم، وتردد في رأسها صدى آخر كلمات تشين كونغ لكنّتها: «*لا نطلب منكم إلا أن تتذكروننا لاحقًا، حينما تصيرون في موضع يسمح لكم بمساعدتنا*».

أومأت السيدة لاو برأسها إيماءة عارفٍ: «لا أفهم حقًا كيف أمكَن كل هؤلاء الناس الأذكياء المثقفين أن يبقوا هناك».

فعلّقت بي كيم: «لم يحظ الجميع بخيار».

رسمَ وجه السيدة لاو البسيط المربع تعبيرًا جريحًا، وأخفضت نظرها إلى قرميداتها.

أهملَ السيد إنغ قرميدة الريح خاصته، ويد المدام تاي كثيرة العقد، وهي الجزء الوحيد منها الذي لم يكن محفوظًا بعناية شديدة، وانقضَّ مثل لسان الإغوانة: «جاري الصيد».

مرّت بقية اللعبة في غير وضوح. كانت بي كيم تختار قرميدة وتهمل أخرَى من دون تفكير. لم تفهم كيف يمكن أن يحدث هذا لتشين كونغ وروز، إلّا إن قُبض عليهما يحاولان الهرب. لكن لمَ قد يحاول شخص نافذٌ كثير المعارف مثل الطبيب فعل شيء مجازف كهذا؟ تذكرت بي كيم مقالًا نُشر في جريدة *بيبلز ديلي* منذ زمن بعيد، ذُكر فيه أن كبير أطباء مشفى بكين قد عوقب بإحالته إلى معسكر عملٍ لعشرين عامًا بسبب إخطائه في تشخيص مرض المدام ماو. لم يسعها إلا تخمين نمط الضغط الذي واجهه تشين كونغ.

وكز السيد إنغ مرفق بي كيم: «دوركِ».

فقذفت بقرميدة في الكومة الوسطى.

ومرةً أخرَى انقضّت المدام تاي وصدحت: «ماه جونغ!»

دفعت بي كيم كرسيها ولوّحت لخادمتها، التي كانت جالسة مع بقية الخدم في حلقة على الأرض في مؤخرة الصالة.

فقالت السيدة لاو: «إلى أين تذهبين؟ ابقي لنلعب جولة أخرَى».

«أجل، ابقي»، قالت المدام تاي، بينما هز السيد إنغ كتفيْه غير مبالٍ.

أصرّت بي كيم أن عليها الذهاب، وأخذت بذراع خادمتها وتجهّزت للخروج في المطر.

طوال الطريق إلى المنزل، كانت تناقش ما ستخبُر سوك كون به. لم يكن ثمة طريقة لمعرفة دقة أنباء المدام تاي، حتى وإن نُفذ إعدام ما، فمن يسعه القول متأكدًا إن تشين كونغ وروز كانا الضحيتيْن؟ كان

في الجزيرة عدة أطباء، وعدة عازفات بيانو أيضًا. فكرت بي كيم بكل الشابات في صفّ تخرّج سوك كون. من الممكن أن بضعةً منهنّ قد تزوجن أطباء، وذلك صف واحد فقط!

ثمة طريق مساءلة واحد رفضت بي كيم سُلوكه: ما الذي تعنيه وفاة تشين كونغ وروز لحفيدتها. شكرًا للسماوات أن سوك كون وتشاي لديهما خطة إنقاذ أخرَى قيد الإعداد، خطة أصرّت سوك كون على أنها خالية من الخطر من الناحية العملية.

عندما رجعت إلى الشقة، استقرّت بي كيم في كرسيها مع عدة تطريزها منتظرةً وصول كنّتها. كانت لتُبلغ الأنباء بأكبر قدر ممكنٍ من اللطف، كانت لتقول: «إنها مجرد شائعة، فالمرأة التي أخبرتني ثرثارة نجسة».

فُتح الباب الأمامي، وسمعت بي كيم صوت إلقاء سوك كون محفظتها على الطاولة في المدخل، على الرغم من تحذيرها المتكرر لها بأنها لا يجب أن تكون بهذا الاستخفاف حتى يطمئنوا لكون الخدم أهل ثقة.

حاكت بي كيم آخر قطبة من زهرة لوتس بلون ورديّ شاحب، ووضعت قماشة التطريز خاصتها وانتظرت، لكن بي كيم أسرعت عابرةً غرفة الجلوس من دون توقُّف.

فنادت: «كنّتي».

تراجعت سوك كون ودخلت، وبدا تعبير دائخ على وجهها: «لم أتوقع أن تكوني في المنزل بالفعل». كان شعرها مذريًّا بفعل الريح، وتنورتها مجعّدةً ومخططةً بالوحل.

«ماذا أصابك؟»

انفتح فم سوك كون لكن لم يصدر عنه أي صوت، فغطت وجهها بيديها وقالت بصوت مكتوم: «أنا آسفة، أشعر بصداع مبرِّح، وعليّ الاستلقاء حقًا»، ثم استدارت لتغادر.

قالت بي كيم: «انتظري».

فأذعنت كنّتها.

لكن كيف يمكنها الكشف عن الأخبار الآن؟ قالت: «بالنسبة للبنت، أكل شيء في موضع التنفيذ؟ متى سيصلنا خبرٌ بخصوص التصريح؟ متى ستصل؟»

قالت سوك كون بصوتٍ خلوٍ من التعابير: «لا شيء في موضع التنفيذ، لا شيء على الإطلاق».

اعتدلت بي كيم في جلستها، ذلك أنها لم ترَها كسيرة هكذا من قبل في حياتها: «ماذا يعني هذا؟ ماذا علينا أن نفعل أكثر؟»

هزّت سوك كون رأسها نافضة ذهولها، وارتفع كتفاها إلى شحمتي أذنيها، واستحالت يداها قبضتيْن: «لا أعرف، لا أعرف».

«ما الذي تقولينه يا كنّتي؟»

خطَت سوك كون إلى الغرفة، وعَلَت عن بي كيم.

«إننا لم يكن علينا أن نتركها أبدًا. إننا قد لا نستردها أبدًا».

ثم غابَت في الرواق، وتركتها بي كيم تذهب، وجلست ويداها في حجرها صامدةً أمام الدقّ الرهيب في صدرها. ما الذي كانت أمها لتقوله؟ إنك لا يمكنك توقُّع أن تكون قصبة سكَّرٍ حلوةً من الطرفيْن، وإن عليك التضحية بشيء لتحصل على شيء آخَر. لكن الدقّ لم يتوقف، يا ليتَ عندها شخص آخر تتحدث معه، يا ليت بوسعها الاتصال بهيوا. كل أحفاد هيوا يعيشون خارج البلاد، لذا كانت مولعةً بليام وبسان سان

خاصةً. في إحدى المرات، عندما تذمرت بي كيم من عناد الفتاة، انفجرت ميوا ضاحكةً وقالت: «إنها تشبهك! يومًا ما ستكبر لتصير جدةً متجهمة لكنها محبة لأحفادها». حاولت بي كيم تخيُّل حفيدتها الهزيلة الضامرة الشبيهة بالصبيان شابةً. كَم كبُرت في الشهر الماضي؟ من سيُخبر موي أن تجلب الخياطة لتحيك لها ثيابًا جديدة؟ من سيشتري لها أحذية جديدة؟ من سيجلس بجوارها يحكي لها القصص حتى يغلبها النوم؟ قبضت بيديها على صدرها وتساءلت عما إذا كانت تعاني من نوبة قلبية، وعندما هدأ الألم أخيرًا، أخذت بقماشة تطريزها واستأنفت العمل من حيث توقفت.

كانت سمكة شبوط بدينة برتقالية تتخذ شكلها إلى جوار زهرة اللوتس وقتما دخل حفيدها عائدًا من المدرسة.

نادَت بي كيم: «حفيدي، تعالَ سلِّم على جدتك». أرادت إخباره بكل شيء، بالإعدام المزعوم، والمخاطر التي تواجه سان سان الآن. سيرى مرةً وإلى الأبد ما بوسع حزبه الحبيب فعله، لكنها أوقفت نفسها في الوقت المناسب، فحفيدها ما يزال صبيًا، ولا يمكنها إثقال كاهله بعبء كهذا.

ظهر ليام في المدخل: «انتهى الماه جونغ مبكرًا؟»

كم بدا مرتَّبًا بربطة عنقه الرمادية وبنطاله المنسجم معها، وكتفيه الآخذتين بالاتساع تضغطان ضغطًا طفيفًا على درزات القميص. كانت أمها لتذكرها بألا تتجاهل الناس الواقفين بجوارها لصالح أولئك الذين خسرتهم. أشارت إلى المقعد المقابل لها، فتردد حفيدها، وكان واضحًا أن لائحة أعذار تدور في رأسه، ثم وضع حقيبته وانضم إليها.

سألَتْ: «كيف كان اختبار الرياضيات؟»

«حصلتُ على درجة سبعة وتسعين».

قالَت: «ولدٌ ذكي!».

سأل: «هل عادَت ماما؟»

قالت بي كيم عن قصد: «إنها تستريح».

شابكَ ليام أصابعه وفرقع براجمه، عادة كريهة كان قد التقطها مؤخرًا.

قالت بي كيم: «أخبرني بالمزيد عن مدرستك هذه».

«ماذا تريدين أن تعرفي؟»

فتنهدت بي كيم. كان أحفادها يخبرونها بكل شيء فيما سبق، وهم جالسون إلى طاولة غرفة السفرة يستمتعون بعلبة من المخبوزات الفرنسية مع الشاي. مرّت في خيالها صورة سان سان وهي صغيرة جدًّا تركع على كرسيها لتصل إلى علبة المخبوزات في منتصف الطاولة، وتحشر كعكة فراولة في فمها الصغير، كما لو كانت تخشى أن يأخذها أحد منها، والهلام الأحمر يبقّع شفتيْها وخديْها مثل طلاء المهرج.

طردت تلك الصورة من رأسها وقالت: «أخبرني عن أصدقائك، عن مدرّسيك».

قال ليام: «أتسكع معظم الوقت مع الأولاد الأكبر سنًّا، فمَن في صفي طفوليون للغاية».

جعلها هذا تبتسم: «أتشتاق للحلويات التي اعتدنا شراءها على الجزيرة؟ أنا واثقة من وجود مخبز فرنسي محترم في المنطقة».

حك الصبي أذنه: «دائمًا ما آكل وجبة خفيفة في المدرسة».

«لا عليك إذًا. كانت مجرد فكرة».

انحنى إلى الأمام كأنه كان على وشك اختلاق عذر للمغادرة، لكنه قال عندئذ: «أتتذكرين البرنامج الصيفي الذي أخبرتك عنه؟ دراسة الإنجليزية؟»

«هل قررتَ الانضمام؟» كان تشاي على حق، فالمدرسة خيرٌ للصبي.

قال ليام إنه قد قرر ذلك وإن عليه دفع الرسوم في الجلسة الأولى بعد ظهر اليوم التالي، وأمال رأسه باتجاه غرفة نوم أمه: «كنت لأطلب من ماما، لكنني لا أريد إزعاجها».

قالت بي كيم: «أجل، لا تزعجها. أنت تعرف حالَها وقتما تهاجمها نوبات الصداع تلك»، ومدت يدها إلى جيبها وأخرجت رزمة بدينة من الأوراق النقدية التي كانت كنّتها قد أعطتها إياها من أجل مصاريفها اليومية. عدّت الأوراق – كان البرنامج مكلفًا – وأعطتها لحفيدها.

أخفضَ رأسه وتمتم بخجلٍ شيئًا بالإنجليزية.

فسألته: «ماذا قلت؟»

فعاد إلى الصينية: «قُلت: 'أنا ممتن جدًّا لمساعدتك'»، والتقط حقيبته وأومضَ ابتسامة شيطانية.

كان أكثر سعادة بكثير الآن، وتمنّت بي كيم لو ثمة نشاط ما يمكن لكنّتها أن تلقي بنفسها فيه، شيء غير عملها على إنقاذ سان سان. ربما ستعتبر سوك كون اقتراحًا كهذا قاسي القلب، لكن بي كيم أعقل من ذلك. لمَ برأيهم ملأت وقتها بالماه جونغ؟ لا لأجل صُحبة المهاجرين الآخرين بكل تأكيد، فهي أيضًا مرت بأيام اشتاقت فيها إلى حفيدتها إلى حد لم تملك معه فعل شيء إلا الاستلقاء في السرير واعتصار عينيها مغلقةً إياهما، ومصليةً بحماسة أن تفتحهما لتجد نفسها في الفيلا من جديد، يفصلها عن سان سان جدار رقيق. لكن على عكس بقيتهم، كانت

بي كيم تعيش في العالم الواقعي، حيث لا تتحقق الأشياء ببساطة لأنك ترغب بتحقُّقها.

ومن غير دعوة، بزغ في ذهنها الوجه الصغير لأختها في عمر السادسة؛ خدان ممتلآن، وأنف مفلطح، وابتسامة مائلة. كانت سان سان تشبه بي ليان فعلًا. شعرت بي كيم بعينيها تدمعان، وأخمدت الذكرى قسرًا قبل أن تتشكل الدموع، ثم مدّت يدها إلى عكازها، ووقفت وذهبت إلى المطبخ لتتابع سير تجهيزات العشاء.

22

جذبت ومضة لون أزرق انتباه سان سان. متشابكًا في دغلٍ، كان قماش القنب المغبّر الذي اختبأت تحته منذ ثلاثة أسابيع في تلك العربة، وقلبها يضرب صدرها بينما تتشبث بالخالة روز. كم كانت مطمئنة وساذجة، طافحة بيقين أحمق أن كل شيء سيسير وفق الخطة.

شدّ صوت حفيفٍ في الأعشاب البالغة مستوى الخصر نظرها من خلف كتفها للمرة العدة عشرة منذ فرّت من بستان مدير البريد؛ إذ كانت متأكدةً أن الخدم قد تمكنوا بطريقة ما من تعقبها كل هذه المسافة إلى هذا الجرف المهجور على الطرف القصيّ للجزيرة. لكن عندما أخفضت نظرها، وجدت أن الصوت فعلةُ أفعى قصبٍ غير مؤذية، والتي رغم كونها غير مطمئنة بأي شكل، كانت مرحبًا بها أكثر من منظر كوك الثقيل اللاهث. قفزت بعيدًا عن طريق الأفعى وانطلقت إلى حافة الجرف، مفتشة المياه في الأسفل عن القارب الواهن الذي ربطه الطالبان إلى صخرة.

كان كل ما تبقى مجداف واحد، نصفه مدفون في الرمل، وما فائدة مجدافٍ بلا قارب؟

بدا ميناء شيامن في الطرف الآخر من القناة الضيقة مغريًا، وقريبًا بما يكفي لترى أناسًا ضئيلين يعملون على متن سفينتيْن شراعيتيْن بهيّتيْن. وفي الأسفل، كان شريط الشاطئ الرفيع مفروشًا بالأخشاب المجروفة العفنة وخوصًا أفلت من صف من شجرات جوز الهند، ما لا يمكن استخدام أي منه في بناء طوفٍ من نوع ما.

حمَلت نفحة ريحٍ نغمةً مألوفة غُنيت بصوت مزماريّ عالٍ إلى سان سان عبر الماء: «الأمواج تتكسر، ولا تخوّفني. أضبطُ مساري مستقيمًا، وأجدّف إلى الأمام».

لمحَت بطرف عينها جسمًا موتورًا أسفل قبعة قشيّة عريضةِ الحافة يجرّ مركبًا إلى الشاطئ، وعندما خلع الجسم قبعته ومسح جبهته بطرف قميصه، تعرّفَتْ إلى صياد السمك الذي صادقته وأخوها الصيف الماضي، الصياد الذي علمهما حصاد المحار. أبهجها أنه كان يغني أغنية أطفال، وتذكرت عينيْه اللطيفتيْن اللتيْن بدا أنهما تنغلقان وقتما يلقي برأسه خلفًا ويضحك. لكنها لم تجرؤ على مناداته، بل جثمت خلف أجمة بدلًا عن ذلك وراقبته يأخذ صيده الشحيح من قاربه. أخرج على جناح السرعة أحشاء الأسماك واحدة واحدة ونظفها وألقاها في دلو ماء، وعندما فرغ من ذلك، وضع الدلو أسفل شجرة جوز هند وتمدد إلى جانبه. غطى وجهه بقبعته، وتزحزح قليلًا ثم رقد ساكنًا، وبين الأمواج الضحلة، قبعَ قاربه جاهزًا لأن يُدفع مجددًا إلى المياه.

تعرّشت سان سان بصعوبةٍ هابطةً الجرف الصخري شديد الانحدار، متشبثةً بالأعشاب البرية لتتوازن، وحريصةً ألا تُصدر أي صوت. قرب قاعدة التلة، انخسفت صخرة تحت قدمها ووقعَت كاشطةً مرفقها وركبتها، لكنها لم تبكِ، وتابع الصياد إغفاءه.

كانت سان سان قريبةً بالقدر الكافي لتلمس مؤخرة القارب وقتما تذكرت شيئًا كانت أمها قد قالته لها: بعض صيادي السمك في الجزيرة فقراء إلى حد يمنعهم من امتلاك منازل، لذا كانوا ينامون في قواربهم ليلًا. بسرقة قاربه، لن تسلبه معيشته فحسب، بل منزله أيضًا. حدقت إلى الرجل النائم، وفكرت بإيقاظه وطلب إذنه، فقد كان ودودًا للغاية، ومرحًا للغاية، وربما قد يعرض التجديف بها إلى الطرف المقابل حتى. لكن ماذا إن رفض، كما – بعد أن فكّرت بالأمر – سيفعل من دون ريب؟ ماذا إن تعرف عليها وسلمها، وشارك في إدانتها إلى جانب البلدة كلها؟

كفّت رجليْ بنطالها، ودفعت القارب إلى الماء بقليل من المشقة، وقفزت إليه. ثم غمست المجاديف في الماء وجدفت بكل طاقتها. ولدهشتها، كانت المياه النقية الصافية التي انزلقت فيها مرات عديدة وحلًا سميكًا عديم الرحمة، وحاربت هذه المجاديف الطويلة جدًّا وصعبة التناول جدًّا كل ضربة منها. استعر كتفاها وذراعاها وظهرها ألمًا خلال دقائق، ولم تكن قد قطعت إلا بضع عشرات من الأمتار وقتما احتلّ التوق إلى رفع المجاديف إلى القارب والاستراحة قليلًا كل بوصة من ذهنها.

صاح صوت: «هيه! ارجع إلى هنا يا ابن الحرام! يا ابن الكلب!»

انطلق الصياد فوق الرمل ووجهه شعلة حمراء من الغضب، فأخفضت سان سان رأسها وراحت تسحب المجاديف عبر الوحل مرارًا وتكرارًا بأقصى ما أمكنها من سرعة. تشكلت بقبوقات حيث تلتقي أصابعها براحتيْها، وخشيَت أن يستسلم ذراعاها عاجلًا، ومن فوق كتفها، رأت الصياد يطرطش في الماء ويستمر في المطاردة.

جفّ حلقها إلى حدّ اضطرها إلى محاربة الرغبة في سكب حفنة من ماء المحيط في فمها، وعندما صار استعار ذراعيها أكثر مضاضة من أن يُحتمل، التفتَت لتنظر مجددًا تاركة المجاديف تنجرف إلى المياه.

يا لهذه من خطة غبية! إن لم يمسكها الصياد، فسيفعل غيره، إما هنا في القناة أو لاحقًا في المدينة. عليها الاستسلام الآن، فليسلّمها الصياد ويحصد مكافأته. إن كان على شخص ما الاستفادة من القبض عليها، فعلى الأقل سيكون هو.

كانت جاهزة للالتفاف بالقارب وقتما ملأ وجه الخالة روز رأسها، بعينيْها الهامدتيْن، والشق الأحمر الفاقع على بشرتها الشاحبة، وكهف فمها الداكن وقتما أرخَتْ فكّها وناحَت. انطلقَ الأدرينالين في أطراف سان سان مثل الرصاص، وشدّت راحتيْها المتقرّحتيْن حول المجاديف ودفعت باتجاه شيامن.

عامَ رأس الصياد في مكان غير بعيد عن الشاطئ واستمر بقذف الشتائم والبذاءات، لكن بدا أنه توقف عن مطاردتها. ربما لم يكن سباحًا ماهرًا بالحد الكافي، وربما كانت تتحرك أسرع مما ظنّت. طلبت من نفسها أن تجدف ثلاث ضربات إضافية، ثم ثلاثًا غيرها، ثم ثلاثًا بعدُ، وأخيرًا، رفعت المجاديف والتقطت أنفاسها، غامسة يديها المهترئتين في المياه الدافئة دفءَ مياه الحمام. مرّ نسيم بارد ممتاز بها، وتلقّفها التيار حاملًا قاربها المسروق باتجاه الميناء، وعندما استردّت قوتها، تابعت التجديف.

لم تكن مدركةً كم مر من الوقت. عشرة دقائق؟ ثلاثين؟ ساعة؟ اختلجَت عضلاتها بينما كافحت في بضع الضربات اليائسة الأخيرة قبل أن تقفز إلى المياه البالغة ارتفاع الفخذ وتجرّ القارب إلى الرمل الصخريّ، ولو لم يكن الصيادون ينظرون إليها بريبة وشكّ، لانهارت على الشاطئ مباشرةً بجوار قاربها.

كان مربط السفن، وهو ميناء خرسانيٌّ مكشوف، على بُعد خطوات، وكانت الروائح المنبعثة من باعة الطعام قريبة إلى حد كبّرت معه الخواء

في معدتها. سوّت حافظة الرسائل المحشورة تحت حزام بنطالها ودخلت القاعة الرئيسة، وراحت تخطو برشاقة حتى لا يصرّ حذاؤها المنتقع على الأرضية، حريصةً على تلافي طريق شُرطيين في دوريّة. قادها أنفها إلى *الموا* جي البيضاء السمينة المصنوعة من دقيق الأرز الشمعيّ الحلو مع الفول السوداني المطحون، وإلى عصي العجينة المصدرة طشيشًا مرحًا في حمّام الزيت الذهبي خاصتِها. بين الحين والآخر، كان يقترب عضو كادرٍ أنيق المظهر من بياع ما، مهزهزًا بعض العملات في كفه. راقبت امرأةً زعزوعة تلبس نظّارات مدورة تزجّ بفطيرة فاصولياء حمراء محلاة في فمها بحسدٍ يقفُ على شفا الكراهية. عندما ازدردت المرأة بلعة شايٍ ثم تركّت فنجانها الصفيحيّ على الأرض، انقضّت سان سان عليه وابتلعت الثُّفل المُر.

فوق ثرثرة عابري السبيل ونخير العمال وهزيم الآليات، ارتفعت النغمات العميقة المعقّدة لآلة أرهو، وبعد عدّة علامات، اتخذت الموسيقا قالبَ «شروق الهلال»، وهي نغمة شعبية بسيطة شهيرة كانت سان سان قد أتقنتها على البيانو منذ سنوات. اجتمع جمهور متواضع عند الطرف المقابل من القاعة، فانسلّت سان سان بين الناس لتصل إلى المقدمة، ورأت صبيًّا نحيلًا ليس أطول من ليام مكسوًّا بثيابٍ متهرّئة. كان للصبيّ رأس ضخم مدورٌ وأذنان برزتا من تحت شعره المنسدل مثل مقبضي القدِر، وكان رأسه يتمايل مع ممايلته قوسه بين الوترين التوأمين لآلته الممشوقة. كان عزفه بارعًا في رأي سان سان، لكنها لم تدرك مدى موهبته إلّا عندما فتح فمه وغنّى. كان صوتُ الصبيّ الغلاميّ عاليًا ونقيًّا، لكن يشوبه رغم ذلك فَيءٌ أشبه بأوّل رعشةٍ مسائية في يوم قائظٍ من أيام أواخر الصيف. هجر بضعة باعة طعامٍ أكشاكهم وانضموا

إلى الجمهور، ورغم أنها فكّرت في اغتنام الفرصة وسرقة لقمةِ طعام، سمّرتها الموسيقى في مكانها.

غنى الصبيُّ ثلاث أغانٍ تراثية إضافية، الواحدة تلو الأخرَى بلا استراحة ليختتم بمُمتعة الحضور «*مو لي هيوا*»، ثم انحنى انحناءة مسرحية أمام التصفيق الحارّ. قدّم له بائع كيسَ أرز، وواحد آخر سمكةً صغيرة، فجمع الصبيُّ غنائمَه في صرّة قماشية، وربطَ الأرهو بظهره، وتمشّى خارجًا من القاعة يصفّر نغمة مرِحة. حسدته سان سان على سلوكه الهانئ، وعلى مهارته وسحره، ومعدته التي سرعان ما ستمتلئ. تساءَلت عما إذا كان يعزف هنا كل يوم وكم من الطعام يجمع ولمَ لم يكن عليه الذهاب إلى المدرسة! وعندما انعطف إلى الممشى الممتد على طول المياه، لحقت به.

قرفَص الصبيُّ تحت شجرة وارفة، وأخرج عودي طعام من جيب قميصه، وراح يقحم السمكة بين خديه دون أن يتوقف إلا ليبصق بضع عظامٍ دقيقة. وعندما التهمَ نصف السمكة بالضبط، لفّ البقايا بعناية وانتقل إلى الأرز.

اقتربَت سان سان بحذرٍ: «أليس لديك مدرسة اليوم؟» فكاد الصبيُّ يُسقط كيس الأرز: «لقد موّتّني رُعبًا».

«آسفة».

رفع الكيس إلى ذقنه وجرف المزيد من الأرز إلى فمه في ضربات سريعة سلسة، وقال بفم ملآن: «نحن في الصيف».

كان قد فاتَ سان سان من المدرسة الكثير ونسيَت ذلك، فقالت بسرعة: «صحيح، وأنا ليس لديّ مدرسة أيضًا»، وجثَت على العشب بجواره.

فنظر إليها مليًّا: «ماذا تريدين؟»

هزّت رأسها على نحو غامض. لم تُرد إلا الدردشة.

«جائعة؟»

وبينما تنظر إلى بقايا السمكة، اعترفت أنها كذلك، لكن الصبيّ نبش في جيبه ومدّ يده بحفنة من التفّاح البرّي، الذي تقبّلته على حدّ سواء. أغرقَت لذاعة الفاكهة فمها باللعاب، وتمتمت: «شكرًا لك» وهي تمضغها.

سأل الصبيُّ وهو يحمل حفنة أخرَى: «المزيد؟»

فأومأت برأسها ودفعت الكرات التي بحجم البليات إلى فمها.

لا بدّ أنه لاحظ استمرارها بالنظر إلى السمكة لأنه قال: «عليّ أن أعود بهذه إلى ماما».

قالت سان سان: «أوه».

فقال بنبرة واقعية: «إنها مريضة للغاية. لديها كتلة في رئتها ولا علاج لها».

جاء دور سان سان لتكشف عن شيء ما: «لقد قتل داء السلّ عائلتي. أنا يتيمة». كم كان سهلًا اختراعها الكذبات.

وضع الصبي كيس الأرز: «إذًا أين تعيشين؟»

ترددت سان سان. لم يبدُ الصبيُّ شخصًا قد يُبلغ عنها إلى مجلس التسجيل المدنيّ: «ليس لديّ منزل فعليًّا».

بدا الصبيّ يقلّب هذا في رأسه.

فغيّرت الموضوع بسرعة: «غناؤك حسنٌ للغاية. من علّمك؟ أمك؟»

أومأ الصبيُّ برأسه: «اعتدتُ وإياها أداء الثنائيات. هي تعزف الأكورديون، لكن مرضها يمنعها من الخروج من المنزل الآن».

قرأت سان سان مدخلًا: «أتحتاج إلى شريك؟»

عبَسَ الصبيُّ: «أتعزفين على الأكورديون؟»

«أعزف على البيانو، وإنني بارعة. يمكنني بسهولة تعلّم الأكورديون». كانت قد رأت مرةً عازف أكورديون يعزف مع جوقة مسرحية عسكرية ولاحظت كيف أن زرًّا واحدًا على الآلة يُنتج كوردًا كاملًا. بدا الأكورديون مثل بيانو مبسط، وأمِلَت أنها لم تكن تبالغ في تقدير قدراتها.

«ويمكنك الغناء؟»

ابتلعت سان سان آخر تفاحةٍ وصدحت تغني أول أغنية مرّت ببالها: «أفضال الحزب الشيوعي أكثر من أن تُحكى». ومقارنةً بصوت الصبي، لم يكن صوتها مميزًا البتة، لكنه كان عاليًا وواضحًا وعلى الطبقة المناسبة تمامًا.

أغمضَ الصبيُّ عينيْه وأنصت باهتمام شديد، وعندما وصلت سان سان إلى اللازمةِ رفع يده: «حسنًا، هذا كافٍ».

لم يستفِض في الكلام، فسألَتْ بخجل: «ما رأيك؟»

فكّر بالأمر مليًّا: «ليس بالغ السوء. أيمكنك غناء الهارموني؟»

لم تكن قد جربت من قبل في الحقيقة: «بالطبع. غنِّ أي شيء وسأريك».

فابتسمَ: «سأعلّمك الهارمونيات. ليس عليك ابتداعها بنفسك».

قالت: «أوه، هذا أسهل بكثير».

«سآخذك إلى المنزل لتجربي أكورديون أمي».

كانت عاجزةً عن تصديق حظها. حالما تصير في منزله، ربما يمكنها طلب البقاء هناك، لفترة وجيزة فقط، وقالت: «أقسم أنني لن أخيّب أملك»، وأضافت بخجل: «غور»، أي أخي الأكبر.

أعطاها بقايا الأرز، التي قبلتها على الفور.

«بعد أن نجتزئ حصة أمي، سنقتسم الطعام بنسبة 40 مقابل 60 بالمئة لأني أكبر منك. اتفقنا؟»

كان انشغالها بالأكل يمنعها عن المفاوضة: «اتفقنا».

فأعاد ربط صرته القماشية: «انهضي إذًا. لدينا عمل نقوم به».

في ذلك المساء، بعد أن راقبت سان سانْ غور يؤدي أمام استحسانٍ مشابهٍ في محطة القطار وفي ساحة كوميرشال، قادها عبر شوارع ضيقة متعرجة مرورًا بمبانٍ متداعية كانت لتنهار منذ زمن بعيد لو لم تكن مرصوصة ببعضها بإحكام شديد.

توقّف غور أمام مبنًى متضعضعٍ بلون السُّخام وقال: «لقد وصلنا».

تبِعَتْه عبر درَج معتمٍ رطبٍ يعبق برائحة البول، وغطّت أنفها بكمّها ولم تخفضه إلا لتسأل: «أتسكن في الطابق الأخير؟»

«نوعًا ما».

كادت أن تُضيف أنّ منزلها القديم كان في الطابق الأخير أيضًا، لكنها منعت نفسها في الوقت المناسب.

في الطابق الخامس، بدلًا عن الانعطاف إلى الردهة الكئيبة لواحدة من الشقق، فتح غور بابًا كشفَ عن درَجٍ أكثر ضيقًا من سابقه.

فسألت سان سان: «إلى أين نحن ذاهبون؟»

«كدنا نصل».

عند رأس الدرَج، فتح غور بابًا آخر. وطئت سان سان السطح، وكان في مركزه تمامًا خيمة مصنوعة من قطعة قماش قنبٍ متسخة، بدت أصغر من أن تتسع لشخص واحد حتى.

صاح غور: «لقد عدتُ يا أمي»، مثلما كانت سان سان لتفعل عقب دخولها شقتها.

حدّقت إلى قفا رأس غور. كانت لتحسبه ليام في ضوء الغسق.

كرر غور نداءه: «ماما؟»

خرج صوت مبحوح مُجهد من الخيمة: «لقد رجعتَ يا بنيّ. هل أكلت؟»

قال غور: «انتظري هنا»، ورفع طرف الغطاء ودخل يحبو: «ماما، لقد جلبت صديقة. إنها يتيمة».

- أوه؟

- لا تملك مكانًا تعيش فيه. أيمكنها البقاء هنا؟

دُهشت سان سان أشد الدهشة لعدم اضطرارها إلى إثارة السؤال بنفسها حتى، وانتظرت ردًا، لكن كل ما سمعته كان سلسلة من السعلات المشرّبة بالبلغم. خرج غور من الخيمة، وكشف غطاء جردل ماء في الركن، ثم غمس فيه كأسًا وعاد إلى الداخل، فتراجعت سان سان إلى مدخل الباب كما لو أرادت منحهما الخصوصية، لكنها اقتربت لتسترق السمع بعد أن عاد إلى الخيمة.

سألت أمه: «كيف لها أن تبقى؟ تخيّل فقط الورطة التي سنقع فيها إذا ما بلغ أحدهم عنا إلى مجلس التسجيل المدني».

- لقد ماتت عائلتها بأكملها بداء السلّ.

- الأمر غير وارد على الإطلاق يا بني.

تراجعت سان سان مبتعدة. كان عليها توقع هذا، وتساءلت عما إذا كان ثمة أي فرصة في أن يكون قاربها المسروق ما يزال على الشاطئ، وكم ليلة يمكنها قضاؤها فيه قبل أن تثير الريبة.

قال غور: «إن غناءها جيد جدًّا، وهي تجيد عزف البيانو، وسأعلمها الأكورديون. أنتِ تعرفين ألّا جدوى من خروجي بمفردي».

لم تفهم سان سان قصده، فقد كان غور يعزف عزفًا بديعًا لوحده، بل أكثر من بديع. قُوبلت التماساته بالصمت، وبدأ المزيد من السعال.

قال غور: «اشربي بعض الماء».

بعد أن تلاشى السعال، قالت أمه: «أحسبُ أن بإمكانها البقاء الليلة، إذا وعدتني بأن تكون في منتهى الحذر».

وثبَت سان سان على رؤوس أصابع قدميْها ورفعت ذراعيْها انتصارًا.

قال غور: «سأفعل. ستشعرين بتحسن كبير حالما أتمكن من شراء شايك».

«في منتهى الحذر».

فقال: «أمي، أقسم على ذلك».

أرسلت سان سان نظرها إلى بُيوت الخيَم النابتةِ من الأسطح المحيطة، وبالنظر إلى الألبسة المعلقة على حبل الغسيل، فقد أوَى السطحُ المجاور أشخاصًا أكثر بكثير من هذا.

«أتعزف صديقتك على البيانو؟ لا بد أنها من عائلة ثرية».

جذبت سان سان كُفّةِ كُمّها لتغطّي ساعة أبيها.

قال غور: «لقد ماتوا».

«هذا مؤسف جدًّا».

قال غور: «كدتُ أنسى، لقد جلبتُ لك سمكة»، لكن أمه ردّت أنها لا ترغب بالطعام وأصرّت أن يأكلها هو.

خرج غور من الخيمة أخيرًا وجلب لسان سان بساطًا من قشٍّ وبطانية رقيقة.

وقال: «ستنامين هنا الليلة».

شكَرَته بجدية، ساترةً الفرحة التي كانت تخفقُ بعنف داخلها، وارتفع نسيمٌ رائقٌ نفَش شعرها، فقالت: «الجوّ مليحٌ هنا».

فقال غور: «أفضّله على مكان معيشتنا السابق؛ كان ضيقًا إلى حد خانق. من المفترض أن يجري نقلنا، لكن السلطات تقول ذلك منذ سنوات ولم يحدث شيء بعد».

سُمعت أنّةٌ خفيضة من الخيمة.

فتكلمت سان سان بهدوء: «أمكَ بحاجة إلى طبيب».

«لقد فات الأوان. لا شيء يمكنهم فعله».

تمنّت سان سان لو كان الدكتور لي هنا ليساعد المرأة المريضة. سيكون قادرًا على إبرائها من دون ريب، فقد كان ذكيًا جدًّا، وهادئًا جدًّا. ازدحم رأسها بالشتائم المجنونة الصادرة عن حشد معتوه، شتائم لم تكن موجهة إلى الدكتور لي والخالة روز، بل إليها، سان سان أونغ، الفتاة التي تسببت بإعدام آخِرِ المتبقين من أحبائها على الجزيرة، وتدفّقت الدموع إلى عينيْها.

وضع غور يده على كتفها: «ماما مريضة منذ زمن بعيد. لا تبكِ، سيو بيه».

جعل سماعُه يشير إليها بصفة «أختي الصغيرة» سان سانَ تبكي أكثر. كانت قد كذبت طوال اليوم من غير تكلّفٍ أو تردد بخصوص

عائلتها، ولم ترَ الحقيقة خلف هاته الكذبات حتى الآن، ففي الأيام الماضية، اختبأت عن الشرطة وفرّت من الخدم وعبرت القناة، وكل ذلك بمفردها، لأنها كانت مضطرةً إلى ذلك، لأن لا أحد معها إلا نفسها.

حاولت الابتسام لغور رغم دموعها.

قال: «في الليالي الصافية مثل هذه، أنام في الهواء الطلق»، وجلب فرشته الخاصة التي مدّها، بجوار الخيمة، «كي أسمعها إذا ما احتاجت إلى أي شيء».

رتّبت سان سان فرشتها على الطرف الآخر من السطح، وعندما أدار غور وجهه، نزعت الحافظة الجلدية من حزامها ودفعتها تحت البساط القشي. لم تكن تشعر بالنعاس البتّة، لكنها استلقت بأي حال. مرخيةً يديْها على فخذيْها، راحت تحرّك أصابعها كما لو كانت تحرّكها على لوحة مفاتيح، كما لو كانت تعزف واحدةً من إبداعات باخ خاصتِها. كانت أفضل طالبة لدى أفضل معلمة بيانو على جزيرة دزم ويف، ولا شكّ أنها ستتمكن من تعلم الأكورديون.

راحت تنقر بأصابعها بحماسة أكبر، وامتلأت أذناها بالنغمات المنسجمة. سَمِعَت صوتَ التيك.. تيك.. تيك.. من بندولِ إيقاع الخالة روز، وشمَّت رائحة خشب الصندل الحلوة خاصتِها، شاعرةً بيديْها القويتيْن المتضامّتيْن تضبطان الإيقاع على كتفها. عزفَت سان سان بريلود وفوغا باخ على سلم دو صغير مرارًا وتكرارًا، حتى خلعت صورةُ الخالة روز بقيةَ المترقّبين في الظلام وحلّت محلهم، وعندئذٍ غلبها النوم.

23

دفع تشاي البابَ، ومنخراه يرتعشان ترقُّبًا لرائحة الطبخ المنبعثة من النِجادة العتيقة لفندق هابي فالي الرثيث الذي اعتبره منزَله للأيام الثلاثةِ الأخيرة. كان عرضٌ آخرَ على المنزل قد أخفق، والآن، لا يمكنه إهراق فلس آخر على المكان مهما أصرّ سمساره العقاري، الذي كان يضغط عليه ليُجري ما سمّاها «تجديدات بسيطة» من شأنها زيادة اجتذاب المنزل للشراة المستقبليين. قال تشاي للرجل المتفّل الشكّاك: «احسم خمسةً بالمئة مرةً أخرَى. افعل أي شيء يتطلبه بيعُه».

أومأ برأسه لموظفة الاستقبال الصارمة وتسلق الدرَج الحلزوني إلى الطابق الثاني، ثم أولج المفتاح النحاسي الثقيل في القفل ودفع الباب بإصبع قدمه. كانت الغرفة المتقشّفة مثلما تركها تمامًا، بطلائها المتقشر وسريرها الفردي المتكتّل وحجيرة حمامها الضيقة التي لا يمكن دخولها إلا مُجانَبةً، ولم يعد يلحظ الرائحة العفنة الفطرية وجلجلةَ المروحة السقفية إلا قليلًا.

من دون أن يكلّف نفسه عناءَ خلع حذائه، سقط تشاي على ظهره فوق مفرش السرير الوخّاز ومدّ أطرافه مثل نجم البحر. شعر بدمه

يتدفق في كل الاتجاهات واصلًا إلى رؤوس أصابع يديْه وقدميْه حتى.
وأغمض عينيْه آملًا أن يُحرّره النومُ رغم ضعف احتمال ذلك - ومهما كان لحظيًا - من متاعبه، لكن دماغه راح يطنّ في الظلمة مسرّعًا دقات قلبه.

أجفلته دقةٌ مترددةٌ على الباب، فانتصب في جلسته. لم يعرف أحد أنه هنا، ولا حتى سكرتيرته، وكان على موظفة الاستقبال الكسولة الاتصال للتأكد من أنه يستقبل ضيوفًا.

ثم دقةٌ أخرَى أكثر إلحاحًا.

«قادم». نظر من ثقب الباب إلى الجسم الأغبش لزوجته وتراجع مذعورًا، لا يمُكن أن يُرى هنا، كيف تقفّت أثره؟ الشيء الوحيد الذي أرادته منه هو ما لم يكن يملكه. حثته غريزته الأولى على الهرب من النافذة، فقد كانت نعمةً بزيّ نقمة أن الفندق أخفى غرفةً في طابق أعلى.

قالت سوك كون يِلين: «تشاي؟»

كان ليقول إنه كان في الجوار من أجل اجتماع عمل، وإنه شعر بتوعك – بسبب تسمم طعام على الأرجح – فقرر حجز غرفة لبضع ساعات ريثما يتحسّن حاله بما يكفي للذهاب إلى المنزل، وفتح الباب بعض الشيء.

كانت يداها ممسكةً كلٌ بالمرفق المقابل وكأنها تحمل شيئًا بينهما: «آسفة على إزعاجك. أيمكنني الدخول لو سمحت؟» واتّسعت عيناها وقتما حدقت إلى الغرفة التعِسة.

شرع بالقول: «كنتُ في اجتماع».

فقالت: «دعنا نتكلم في الداخل».

«سيكون المال بحوزتي قريبًا جدًّا».

فتجاوزته وبحثت حولها عن مكان لتجلس فيه، وجثمت على حافة السرير: «ألن تجلس؟»

«سأبقى واقفًا».

قبضت على محفظتها بكلتا يديْها، وظهرت على وجهها ابتسامة شجاعة: «لدي أخبار حسنة. لقد عرض شخص ما إقراضنا المال».

«قلتُ لكِ إني سأحصل عليه قريبًا»، وأدار وجهه عازمًا على إنكار كل شيء. متى علمَت بأمر إفلاسه؟ لكم من الوقت تركته يتفوه بتلك الأعذار البائسة بينما جلسَت تنصت وتراه أحمق بينها وبين نفسها؟

تكلمت سوك كون بأناةٍ كما لو كانت تخاطب طفلًا: «إنه واحد من أصدقائك اسمهُ فرانسِس لو، وهو مجرد قرض، ستُرجعُ كلَّ فلسٍ في اللحظة التي يطلقون سان سان فيها».

طاف دماغه بالمزيد من الأسئلة. كيف تواصلت زوجته مع ذاك الرجل المتغطرس الأصلع جاحظِ العينيْن، الذي كانت لولو موعودةً له ذات مرة؟ في آخر مرة ظهر تشاي في منزل سينثيا، أخبرته مدبرة المنزل أن لولو قد انتقلت، فافترض أنها كانت تحاول حمله على الرحيل وحسب، لكنه بات يعرف الآن إلى أين ذهبت عشيقته، حتى لو لم يمتلك أدنى فكرة عن كيفية مصادقتها سوك كون.

«لستُ بحاجة إلى قرض. لم يكن ينبغي لكِ سؤاله، ولم يكن ينبغي لك القدوم إلى هنا».

مسّت رؤوسُ أصابع زوجته لوحَ كتفه برفق: «تشاي، كلنا نحتاج إلى المساعدة بين الحين والآخر».

انفجرت شرارةٌ متأججةٌ داخله إلى لهيب، والتفّ مستديرًا مادًّا ذراعه، فضربَ قفا يده فكَّ زوجته مصدرًا صوت طرقعةٍ صامٌّ للآذان، وسقطت سوك كون على السرير ماسكةً وجهها بيديْها، ولم تحتجّ.

نفضَ يده المتألمة، وكانت كلماته التالية تذرّعًا: «أخبرتُك ألا تتدخلي في شؤوني». سرّه أنها لم تنظر إليه، فكيف صارت صورته في عينيْها؟ أضحوكةً متزعزعةً عديمةَ الفائدة وسخيفةً. كان يعادل نصف رجولة فرانسِس لو، فقد حافظ فرانسِس لو على ثروة أبيه على الأقل، وفرانسِس لو لم يكن ليفقد طفله أبدًا. لم يكن بمقدور تشاي لوم لولو على اتخاذها قرارها أكثر من قدرته لوم سوك كون على احتقاره.

لم يملك ما يقوله للدفاع عن نفسه؛ لذا قال: «لا تخبري أحدًا عن هذا المكان».

أنزلَت يدها لتكشف عن الأثر الذي امتدّ عبر خدها وأومأت برأسها من دون أن تنظر في عينيْه.

أراد السؤال عما إذا كانت لولو مَن عرض المال، إذا ما نطقت اسمه، إذا ما شبكَت يديْها البيضاويْن حول عنقها كما تفعل دائمًا عندما تكون مرتبكة.

قال: «غادري الآن».

وقفت سوك كون وسوّت فستانها، وانسحبت عبر الباب من غير كلمة.

التقط تشاي الهاتفَ وطلب مكتب الاستقبال، مستعدًّا لصبِّ جام غضبه على هدف سهل.

24

يومًا بعد يوم، تدرّب غور وسان سان على برنامج أدائهما الأول. بدآ بـ «شروق الهلال» تتبعها «مو لي هيوا»، وفي الختام، تُنفذ سان سان أداءً منفردًا لـ «الراعية الصغيرة». بقليل من المساعدة من أم غور، كانت قد تعلمت الأكوردیون بسرعة، لكن رغم ذلك، لم تكن متحمسةً حول اضطرارها إلى العزف والغناء بمفردها.

سألَتْ غور: «لمَ لا يمكنك فعلها أنت؟»

فدوّر عينيه: «لقد أخبرتك أيتها السخيفة، يجب أن تغنيها فتاة».

- لمَ لا يمكننا عزفها عزفًا ثنائيًا؟

- إنها أفضل على الأكورديون وحده.

- ماذا لو ارتكبتُ خطأً؟

فقال: «توقفي عن القلق مثل مخصيٍّ. سيحبك الجميع».

جاء صوت الخالة المُجهَد من داخل الخيمة: «إنه محق، كما تعلمين، لديك الموهبة».

احمرّت سان سان خجلًا. بعد الليلة الأولى، قال غور إن بوسعها البقاء حتى نهاية الأسبوع، فتجهّزت للعودة إلى الميناء وابتكار خطة جديدة، لكن غور لم يُشِر إلى انتهاء وقتها، وهي لم تذكّره. لفّقت قصصًا مستفيضةً لتفسير مروءة هذه العائلة المُعدمة. ربما طال توق الخالة إلى طفل آخر، شقيق لغور، لكن مرضها كان يمنعها من الحمل، وربما لخشيتها من دنوّ أجلها، أرادت الخالة رفيقًا لابنها. تصوّرت سان سان أنه مع تدهور صحة الخالة، كان غور يشعر بالخذلان إزاء الشواغل التافهة لرفاقه في المدرسة. ربما كان ينتظر صديقًا مثلها، شخصًا كان يعي بحقٍّ معنى خسارة عزيز. تساءلت أين كان والد غور، لكنها لم تسأل بالطبع، رغم توقها إلى مشاركة أنها لم تعرف والدها حقَّ المعرفة أيضًا.

في إحدى المرات، استيقظت في منتصف الليل غارقةً في العرق، عاجزةً عن إزالة صورة أبيها من رأسها وهو يأنُّ ألمًا وينادي باسمها. عالقةً في هذا المشهد الضبابي بين النوم واليقظة، استشاطت سان سان غضبًا على أمها لتسميمها حتى رقادها بتلك الكذبات.

عندما لم تكن وغور يتمرنان، كانت سان سان تعمل لتكون على أقل قدرٍ ممكن من التطفل. مهما كانت جائعة، كانت تأكل القليلَ ولا تقبل الزيادة أبدًا، وتعلّمت الطبخ والتنظيف وغسل ملابسها، كي يتمكن غور من تكريس وقت أكثر لتسكين ألم الخالة بالكمّادات الساخنة وتقنيات التدليك التي كان قد تعلمها من طبيب غير مختص.

في غضون أيام، ستصل السفينةُ ذاتُ الراية الخضراء لتحملَ سان سان إلى هونغ كونغ. كان التحرّق لمجيء تلك اللحظة يضرب أعماقها أحيانًا إلى درجة خشيَت معها الانهيار، وأحيانًا أخرَى كان منظر الشمس الغاربة على المدينة من السطح يملؤها عن آخرها. تخيّلت البقاء

والصيرورة فردًا من هذه العائلة، كانت لتنسى أنها كانت من آل أونغ في يوم من الأيام.

أخيرًا في أحد الصباحات، بعد أن عزفت سان سان «الراعية الصغيرة» ثلاث مرات من البداية إلى النهاية، واستجمعت الخالة قوتها لتمدّ رأسها من الخيمة وتمنحها بعض الإرشادات «تمهّلي عند تلك الجملة»، «مُطّي الوقفة تكّةً إضافية»، أعلن غور أنهما جاهزان.

ربطا آلتيهما على ظَهريهما وهبطا الدرَج نتنَ الرائحة، وعند مدخل المبنى، جلست امرأتان عجوزان على الدرجات الأمامية وأرجلهما على الشارع.

تجاهلت الاثنتان تحيةَ غور المهذبة وحدقتا إلى سان سان: «إلى أي عائلة تنتمين؟»

كان غور وسان سان قد توقعا هذا السيناريو، وأجاب بهدوء: «إنها البنت الرابعة لعائلة تان، وهي تعيش في ذاك المبنى هناك»، وأشار على نحو مبهم إلى آخر الشارع.

أومأت واحدةٌ من النسوة برأسها: «آه، نعم، آل تان. أنت تشبهين أمك أيتها الصغيرة».

أسرع غور وسان سان عبر الشارع كابحيْن ضحكتهما حتى صارا خارج مدى السمع.

وصلا إلى ساحة كوميرشال في أكثر أوقات النهار ازدحامًا، وقتما كانت طوابير المتسوّقين القابضين على تذاكر المؤن تمتدّ متعرّجة عبر السوق وخارج المتاجر. لكن الرفوف في زوجيْ المتاجر العامة التي تبيع الأحذية والملابس كانت خاويةً تمامًا تقريبًا، وبدلًا عن اللحم، باع باعة السوق أرزًا رديئًا قصير الحبة جرَى خلطُه مع الذرة البيضاء

بكميات كبيرة، وتلك الخضروات مفرطة الحجم التي كان كوك يتذمر من كونها قاسيةً وليفيّةً إلى حدّ أن لا قدر من الغَلي يمكنه منعها من الالتصاق بالحلق.

تبعت سان سان غورَ إلى منتصف الساحة، وعندما فكّ رباط الإرهو خاصتِه، سوّت آلتها الضخمة أمامها – كي لا تحزّ الأشرطة كتفيها – ومررت أصابعها على لوحة المفاتيح. في البداية، لم يعرهما أحد أي اهتمام، وتابع المتسوقون المصطفون تذمرهم حول فترات الانتظار والمخزون الشحيح، لكن عندما بدأ غور بضبط أوتاره، استدار بعض المتسوقين ليواجهوا الساحة، وأخفض الرجال الجالسون يدخنون على مقاعد أسفل شجرات اللهب الصفراء السابغة، جرائدَهم بالقدر الكافي لتظهر أعينهم.

عمّ سان سان شعورُ التنميل المألوف الذي دائمًا ما كان يُداهمها قبل حفلات عزف البيانو. كان الأمر كما لو أن أحدهم قد أشعل مصباحًا إضافيًّا، أو رفع مفتاح الصوت درجة إضافيّة؛ دخل العالم دائرة تركيز أكثر حدة، ووقفت أكثر استقامةً بقليل.

حرّك غور شفتيه راسمًا كلمة: «جاهزة؟»

فردّت عليه: «جاهزة».

شرع بالأغنية الأولى، وذُهلت سان سان بصوته مرةً أخرَى رغم أنها كانت قد سمعته يغني مرات عديدة بحلول الآن، ومثل كل المؤدّين العظماء، ادّخر غور أفضل ما عنده للوقتِ الذي سيشكل فيه فرقًا، وقد وجد اليوم مرونةً مضافةً، ونغمةً جديدة.

استعادَت تركيزها في الوقت المناسب لتنضمَّ إليه، وفي بضع العلامات الأولى، ركّزت باهتمام فائق على تحريك أصابعها إلى النقاط

الصحيحة، لكنها سرعان ما رأت أن أصابعها كانت تجد الأزرار والمفاتيح بسهولة، فقد كانت هذه الأغاني الشعبية أسهل بكثير من شوبان وباخ.

وصلا إلى اللازمة مجددًا، وهذه المرة غنَّت الهارموني لأغنية غور، ما كان أسهل من عزف الأكورديون حتى. عندما غنّت مع غور، بدا أن صوته الساحر يُغلّف صوتها العاديّ بعض الشيء، مشرّبًا إياه بجماله حتى انمزج كلا الصوتيْن والآلتيْن في جدار أغنية خالصٌ لا يمكن اختراقه.

عند خاتمة «شروق الهلال»، انتقل غور وسان سان مباشرةً إلى «مو لي هيوا» دون توقف. (كان قد وجهها في اليوم السابق قائلًا: «إياكِ أن تمنحي الجمهور سببًا للتفرُّق») ومن ثم جاء دور أدائها المنفرد.

أعطاها غور إيماءةً مشجّعة وتنازل عن المسرح. بحلول هذا الوقت كان حشد هائل قد تجمَّع، وظلّ بعضهم ممسكًا بتذاكر المؤن رغم هجرهم أماكنهم في الصف.

أخذَت سان سان نفَسًا عميقًا، وعزفت مقدمة «الراعية الصغيرة»، وغنّت: «أجوب هذه التلال من الفجر حتى الغسق، رفاقي الوحيدون، قطيعُ خرافي».

خرج صوتُها مهزولًا وضعيفًا في البداية، لكنها تخيَّلت بعدئذ صوت غور يتدفق منها، واتخذ صوتُها عمقًا لم تسمعه من قبل. أغمضت عينيْها وشعرت بمنفاخ الأكورديون ينتفخ ويُفرغ تحت ذراعيْها مثل رئتيْن، وراح جسدها يتموّج معه. (كان غور قد قال: «الغناء لا يشبه عزف البيانو، لا يمكنك التراجع إلى نفسك. عليك أن تبتسمي، وتنظري في عيون الناس، وتحكي قصة»).

فتحت عينيْها عن آخرهما، وابتسمت لغور الذي اندمج مع الصف الأول من الحشد، لكنه بدلًا عن مجاوبة ابتسامتها، اجتمعَ حاجباه في

منتصف جبهته، للحظة فقط، وتزعزت ثقتها بنفسها. تابعت الغناء، متساءلةً ما الخطأ الذي ارتكبته، وكان آنذاك أن رأت أصابع غور تنسلّ إلى جيب بنطال الرجل البدين إلى جواره وتسرق محفظته، وبعد جزء من الثانية كانت المحفظة قد اختفت، تاركةً إياها محتارةً فيما إذا كانت قد تخيّلت الأمر برمته.

ارتعَش صوتُها، وضغطت أصابعُها على علامة خاطئة. قرأت هذه المرة الجزع على وجه غور، وبطريقة ما، هدّأت رؤية مخاوفه ظاهرة بوضوح من روعها، فتوقفت لحظةً وأعادت الجملة ووصلت إلى نهاية الأغنية من دون ارتكاب أي غلطة أخرَى.

بعد أن تفرّق الحشد، ربّت غور على ظهرها: «ليس سيئًا بالنسبة إلى المرة الأولى».

نظرَت إليه مشدوهةً. أكان يتوقع منها أن تلعب دور الغبية؟ أكان يتحداها أن تواجهه؟ لقد عرفت الحقيقةَ أخيرًا: لم تكن النخوة، ولا الطيبة، ولا حتى الشفقة ما دفع غور والخالة إلى إيوائها، بل كانت صفقةً ماليةً بحتة. لقد تعرّضتْ للخداع والاستغلال.

لا بدّ أن غور ظنّ صمتَها إحباطًا: «أنتِ تقسين جدًّا على نفسك؛ لم يكن ذلك الكورد الخاطئ بالأمر الجلل».

انطلقَت نحو السوق، مهزوزةً إلى حدٍّ منعها من الكلام.

سأل: «لمَ العجلة؟»

فتوقّفت فجأةً، واصطدم بظهرها: «بالطبع لم يكن غلطي بالأمر الجلل بالنسبة لك، فأنت لستَ مهتمًّا بالموسيقى»، وأخفضت صوتَها: «أنت لصّ».

ابيضَّ وجهُ غور، وجرّها إلى بقعة هادئة بجوار سورٍ حجري منخفض: «سيو بيه، يمكنني التفسير».

- لستُ سيو بيه بالنسبة إليك. نحن بالكاد نعرف بعضنا.
- حسنًا، دعيني أفسر.
- بطريقة ما، أنا مسرورة لأنك كنتَ تستغلُّني فحسب، لأنني في هذه الحالة لستُ مضطرةً إلى الشعور بأنني مدينةٌ لك بالكثير. الآن نحن متعادلان.

توقّعتْ أن يردّ غور الصياح بالصياح، لكن كل ما قاله كان: «إن كان هذا ما تظنيه حقًّا، فمن الأفضل لك أن تجدي مكانًا آخرَ تعيشين فيه».

قالت سان سان: «حسنًا»، وحتى وقتما استدارت لتذهب، عرفت أنها كانت تتصرف بغباء، بغباء ونفاق. ألم تكذب على غور والخالة لتقنعهما بإيوائها؟ وكانت لتختفي في نهاية الأسبوع من دون أن تنبس ببنت شفة، ولن تراهما مجددًا أبدًا. فلمَ تهتم بأسرارهما ومخططاتهما؟

استدارت مجددًا، وكان غور يمشي برشاقة في الاتجاه المعاكس، فأسرعَت خلفه مستعدةً لمناداته، لكن شيئًا ما في مظهره – البروز الجريء لذقنه، والعَزم في مشيته – أسكتها، وبعد بضع خطوات، أبطأت مشيها واستمرّت في تعقبه.

عند التقاطع الرئيس، انحرف غربًا بدلًا عن الانحراف شرقًا باتجاه المنزل، وحثّت خطوَها. متمايلًا بين المارة والدراجات الهوائية وبعض الأطفال الذين يركلون علبةً من الصفيح جيئةً وذهابًا، قادها عبر زقاق حُجبت سماؤه بصفوف من الغسيل الملقى على قضبان من الخيزران، وقرب نهاية الزقاق، انسلّ عبر فتحة بين مبنيَيْن ليخرج إلى شارع ضيق إلى حد تلامُس مظلات المباني المتقابلة. التفّ غور حول نفسه ليتأكد من كونه وحيدًا، وقفزت سان سان إلى مدخل منزل في الوقت المناسب.

انتظرت بضع لحظات واستأنفت ملاحقته. عند الجانب الخلفي لواحدة من المباني كان ثمة بابٌ بدا أنه يقود إلى شقة في الطابق الأرضي، ولا بدّ أنه قد دخل بالفعل. نظرت عبر دَرفاتِ الزجاج المصنفر على النافذة التي بجوار الباب، لكن ملاءة مزهّرة مبهوتة كانت قد ثُبّتت بالدبابيس لتكون ضمانًا إضافيًا ضد العيون المتطفلة. رصّت أذنها على الدرفات، وسمعت أصواتًا مكتومةً وضحكًا مهذبًا، ولم تتمكن من استيضاح ما يُقال. لم يذكر غور قبلًا أي أقارب أو أصدقاء، لكن بالطبع لا يمكن أن يكون والخالةُ وحيدَيْن تمامًا في هذه المدينة الكبيرة. وبعد بعض الوقت، جثمت على الحصاة أسفل النافذة لتنتظر.

أنهضها دويٌّ حادٌّ على قدميْها.

صاح صوت: «ترحّم أرجوك!».

كان الصوت عاليًا ومتهدّجًا، ولا يمكن أن يكون صوت غور. ربما لم يكُن داخل الشقة حتى، ربما ذهب إلى وحدة غيرها تمامًا.

هدَر أحدهم قائلًا: «أمسك الصبيّ قبل أن يكسر شيئًا آخر»، ثم سمعت سان سان أصوات ضربة ثقيلة تلتها ضربةٌ أخرَى.

كانت صرخة غور هذه المرة لا ريب فيها، فركضت سان سان إلى الشارع باحثة عن نجدة، لكن الشخص الوحيد الذي رأته كانت امرأةً عجوزًا مقوّسة الظهر بقدميْن مطويّتيْن تُهوّي نفسها في مدخل منزلها.

«جدتي، من يعيش في تلك الشقة هناك؟»

التمعت عينا المرأة، وتمتمت: «لا فكرة لدي».

قالت سان سان: «أخي في ورطة، أحتاج إلى المساعدة».

فتراجعت إلى شقتها: «لا يمكنني مساعدتك».

توسّلت سان سان: «أثمة غيرك في المنزل؟»

«لا يمكنني مساعدتك»، كررت المرأة ذلك وأغلقت الباب.

فقالت سان سان: «أرجوك»، وهي تخبط على الباب، لكنه بقيَ مغلقًا، مثلما فعلت بقية الأبواب المجاورة كلها. في الحقيقة، لم تكن قد رأت من قبل شارعًا مهجورًا بهذا القدر في هذه المدينة المكتظة.

ركضت عائدةً إلى المبنى، حائرةً فيما تفعله. أعليها الطرق على الباب والمطالبة بالدخول؟ الصراخ طلبًا للنجدة آملةً أن يسمعها أحد ما؟ لكنها لم تُضطر إلى اتخاذ قرار، لأن هناك، راكعًا على الحصاة ورأسه بين يديْه، كان غور.

فشهَقت. كان الجلد حول عينيه أحمرَ ومنتفخًا ويسودّ متحولًا إلى البنفسجي بسرعة.

وقف: «أتبعتيني إلى هنا؟ أكنت تتجسسين عليَّ؟»

فقالت: «أردتُ القول إني آسفة».

أخذ بيدها وجذبها ناحية الشارع. كانت راحته ساخنة وقاسية، وأمِلَت أن تعني هذه البادرة غفران كل شيء.

لكن عندما رجعا إلى الشارع، ترك غور يدها وقال: «هذا ليس مكانًا مناسبًا للأطفال».

فلمسَت كمّه: «من فعل بك هذا؟»

أدار وجهه، فأمسكت بيده: «غور، أخبرني بما حدث».

نتَر يدها وانطلق في الشارع: «لا تتبعيني. من الآن فصاعدًا، أنا وأنت غريبيْن».

جذبت ذراعه بكل قوّتها حتى أبطأ أخيرًا.

سألته مجددًا عن مَن ضربَه.

«شخص ما أدين له بالمال، فهمتِ؟»

فسألت: «ألهذا سرقت؟ هل أنت في ورطة؟»

لوّح بيدٍ إلى وجهه المتهتّك: «قد يبدو هذا سيئًا، لكنه لا شيء بالمقارنة مع معاناة أمي».

أمالت سان سان رأسها مرتبكةً.

مسح بنظره الشارع الخالي ثم اقترب منها: «أتعرفين ما هي السوق السوداء؟»

أومأت برأسها. كانت قد سمعت جدتها تقول إن قطع البيتي فور خاصة وجبة الشاي اليومية كانت مشتراة «من السوق السوداء»، رغم أنها لم تفكر كثيرًا في المصطلح.

شرح غور أن الرجل في شقة الطابق الأرضي يبيع أعشابًا طبيةً، وقد ذهب لشراء مسحوق خاص لتسكين آلام أمه، وهذا بصرف النظر عن حقيقة أنه ما يزال يدين له بالمال من المرة السابقة، وقال: «كنتُ آملُ، بكل غباء، أن يمنحني الأعشابيُّ استثناءً هذه المرة».

تمنّت سان سان لو أمكنها التراجع عن اتهاماتها السابقة، ولو أن ثمة شيء ما يمكنها فعله لمساعدة الخالة.

تابع غور كلامه: «لقد حذّرني قائلًا إني لو عدتُ من دون المال، سيكون مضطرًا إلى منحي عينيْن سوداوَين»، وأشار إلى وجهه وابتسم بوَهن، «لذا حقيقةً، ليس لديّ من ألومه إلا نفسي».

سألت سان سان عن مبلغ المال الذي يحتاج إليه.

«وما الفرق؟ إنه أكثر مما لديّ».

سحبت كُمّها، وانتزعت الأسوارة من مرفقها عبر يدها، وقدمتها لغور.

فنظر شزرًا إلى الزخرفة اللولبية الدقيقة للأسوارة ولم يُقدم على أي حركةٍ لأخذها: «سيو بيه، أهذا ذهب حقيقي؟»

«أجل. أعطتني إياها جدتي قبل أن تموت». دسّت الأسوارة في راحته، فحاول إعادتها قائلًا: «هذا كثير جدًّا».

فوضعت يديْها خلف ظهرها: «إنها لك».

«لا يمكنني قبولها، هذا متجاوزٌ الحد».

قالت سان سان: «نحن عائلة».

تدفّقت دمعة إلى طرف عين غور المتورّمة وسالت على وجنته المشوّهة، فمسحها بكمّه وأجفلَ ألمًا: «لا يمكنني شكركِ بالقدر الكافي يا سيو بيه».

«لا يشكر أفراد العائلة بعضهم». شعرتْ برغبة عارمة في الحديث دون تفكير عن خطتها لركوب السفينة ذات الراية الخضراء. يا ليتَ بإمكان غور والخالة القدوم معها إلى هونغ كونغ.

ابتسم تحت دموعه، ومسح أنفه بحافة قميصه، ثم عادا معًا إلى شقة الأعشابيّ.

طلب غور من سان سان الانتظار في الخارج لأن الرجل يصير سريع الاهتياج بوجود الغرباء.

فهمست: «كُن حذرًا».

طرق غور الباب، وفُتح نتفة، فقال: «التفتُّح ليس تفتُّحًا، والغشاوة ليست غشاوةً»: السطر الأول من قصيدة شهيرة من شعر تانغ كان قد تعلمها في المدرسة.

فُتح الباب عن آخره، ودخَل إلى الشقة.

من تحت النافذة، أنصتت سان سان مترقبةً أي صوتٍ ينمُّ عن مشكلة وشعرت بالارتياح وقتما لم تسمع شيئًا. كانت تعني كلَّ كلمة قالتها لغور، ولبضعة أيام تالية على الأقل، كان عائلتها، وكانت عائلته.

25

بعد حرِّ شوارع المدينة وسخامها، كان هواء فندق بينينسولا البارد المطيّب بلسمًا. كانت الساعة الثالثة إلا نتفة، وقاعة الشاي محشوة بسيدات يرتدين فساتين ممشوقة وشعورهن مسرّحة مثل قلنسوات. كنّ يثرثرن كالطيور المغرّدة بأصوات مرتفعة غنّاءة ويقعقعن بالفضّيّات الثقيلة على الخزف المزجّج البديع. على منصّةٍ مرتفعة في مركز الردهة، راحت عازفةُ بيانو تعزف لحنًا شجيًا من ألحان غيرشوين، ووجد تشاي نفسَه يُهمهم مع اللحن.

قادته نادلةٌ ذات وركيْن مرتجّيْن إلى طاولة في الركن، فأخفض حافة قبعته فوق عينيْه ليتحاشى التوقف والمحادثات القصيرة، ثم جلسَ مديرًا ظهره للقاعة، حتى لو كان ذلك سيكلّفه رؤية دخول لولو.

تواثب مزاجه بين الحدود القصوى في الاثنتيْن والسبعين ساعةً المنصرمة؛ فقبل ثلاث ليالٍ، مترنحًا إثر زيارة زوجته وأنباء ما فعلته عشيقته، ثبّتَ تشاي نفسَه على مَشرب مطعم باريجان غريل، آملًا أن يلمح جانب وجه لولو المزوّى في المرآة الطويلة فوق رفوف القناني، أن يسمع ضحكتها المبحوحة تهبّ عبر الرواق إلى غرفة السيدات، وكلما

طال جلوسه على ذاك الكرسي القاسي عديم الرحمة، زاد اكترابه حول ما سيقوله إذا ما أُجبر على التحدث مع فرانسِس لو. لم يخفّف همّه إلا الوِسكي، وراح يبتلع كأسًا تلو الآخر، حتى انطمست الموسيقى المنبعثة من أوركسترا السوينغ في أذنيه وصارت أضواء الثريا المتدلية ترقص مثل قطرات المطر.

خرج متعثرًا في الوقت المناسب تمامًا ليستفرغ في البالوعة، مسليًا بذلك السائقين المتسكّعين.

لكنّ حظّه انقلب في اليوم التالي، إذ أن مصرفيًا إنجليزيًّا أبدى اهتمامه بالمنزل، وحتى رغم معرفة الجميع بكون البريطانيين بُخلاء أدنياء، طلب تشاي من سكرتيرته دعوةَ لولو إلى وجبة شاي على الفور. كان يعرف أنها لم تُحب فرانسِس لو، والآن ما عليه إلا إقناعها بأنه ما أن يُباع المنزل، وإن كان بسعر منخفض بسُخف، ويصير المال في حسابه، وتُنقذ سان سان أخيرًا، بعد كل ذلك، يمكنهما البدء من جديد. سيشتري شقة خاصة متواضعة لكن مجهزة تجهيزًا جيدًا في المستويات الوسطى، وسيبدأ في سداد ديونه، وسيعمل أخيرًا بنصيحة أولد وو ويخفض عمالة مصانعه. سيستغرق بعض الوقت لإعادة جمع ثروته السابقة – وفي الحقيقة، قد لا يسترجعها أبدًا – لكن يمكنه وعدَ لولو بأنهما سيعيشان بيُسر دائمًا وأنه لن يغشها مجددًا. وحالما تعبر سان سان الحدود، سيطلّق سوك كون ويتزوج لولو، وستحظى بطفل آخر، ويكونون عائلة حقيقية.

شعر بغصّة في صدره على ابنتيه: التي لم يحملها بين ذراعيه إلا بضع مرات، والأخرَى التي لم يلمحها قط. حتى أنه فكّر بتحبُّبٍ في ابنه المتطاوِل. كان الأوان قد فات على أن يكون أبًا كيسًا لسان سان وليام، لكن الطفل الجديد سيمنحه الفرصة ليحاول مرةً أخرَى، وفي هذه

المرة، بوجود لولو إلى جانبه، سيكون الأب الدافئ العطوف والصارم عند الضرورة فقط. سيتطلّع الطفل إليه ويعشقه.

جذبت الطقطقة النشيطة لحذاء بكعب عالٍ على الرخام انتباهه، والتقط أنفه نفحةً من عطر لولو المُسكِر. وهناك كانت، طيفًا في فستان طويل زمرّدي من الحرير والشانتونغ وقبعة بيلبوكس متناغمة جاثمة فوق موجات شعرها المنحوتة. وقفَ ولمسَ طرف كتفها برفق، محاولًا ألا يولي اهتمامًا للكيفيّة التي تيبّسَت بها عندما انحنى مقتربًا ليقبل خدها المليح الأملس.

قال: «تبدين مذهلةً يا أرنبتي».

«شكرًا لك»، أبهجه صوتها الخفيض القويّ، «آسفة لتأخري، كان الازدحام شنيعًا. آملُ أنني لم أُبقكَ منتظرًا وقتًا طويلًا؟»

نظر إليها غير مصدقٍ. لمَ كانت تتكلم إليه مثل واحد من معارفها، مثل واحد من أولئك الأصدقاء الذين كانت تتظاهر بأنهم يعجبونها فحسب؟

جاءَت النادلة لتأخذ طلبهما.

لم تُلقِ لولو أي نظرة على لائحة الطعام: «أرغب بِقدر من شاي أورانج بيكو».

كان تشاي يتطلّع إلى الكعكعات الصغيرة المدورة والقشدة المتخثرة، لكنه قال: «المثلُ لي».

تمايلت النادلة مبتعدة.

مدّ لها علبة سجائره، التي ملأها بماركتها المفضلة، فرفعت سيجارة بال مال من دون تعليق، وعندما اقترب حاملًا قداحته قالت: «شكرًا للطفك».

كان مصممًا على جعلها تتوقف عن التصنّع: «لقد اشتقتُ لك جدًّا يا أرنبتي، أخبريني كيف مرّت بك الأيام». كان قد قرر مسبقًا أنه لن يتكلّم في أمر فرانسِس لو.

«لقد انتقلتُ من منزل سينثيا».

شدّت ابتسامته زاويتي فمه: «بالطبع».

برمَت لولو خاتم كوكتيل اللؤلؤ على إصبعها من جانب إلى الآخر: «أعرف أن هذا مُحرج يا تشاي».

فقال: «مُحرج؟ إنني سعيد جدًّا لرؤيتك، ألا تبادلينني الشعور؟»

«سوف أقولها لك بصراحة وحسب: أنا أعيش مع فرانسِس الآن».

انحنى إلى الأمام، صادمًا ركبتيْه بحافة الطاولة المنخفضة، وغطّى يدها بيده وقال: «لا بأس. لا يهمني. كلانا ارتكبنا أخطاءً».

سحبت يدها: «هذا ليسَ ما عنيتُه».

كان عليه السيطرة على زمام المحادثة قبل أن يفوت الأوان، فقال مندفعًا: «سأُطلّق».

فحدّقت إليه: «لا».

قال بحماسة: «نعم».

- لا.

- لقد اتخذتُ قراري.

قالت: «لا أريده. ألا ترى؟ لقد فات الأوان».

لكن أنّى لذلك أن يكون حقيقة؟ لا يمكن أنها انتقلت للعيش مع فرانسِس قبل أكثر من أسبوع. فقال: «سنبدأ من جديد. لن أكذب عليكِ مرةً أخرَى».

سحقت عقب سيجارتها بعنف: «لا يمكنني نسيان ما صرتُ أعرفه».

لم يُردها أن تستفيض بالكلام، لذا قال: «أحبك. عودي إلى المنزل».

رفعت منديلًا إلى زوايا عينيها: «كُفّ، لو سمحت».

لو كان بوسعه احتضانها بين ذراعيه وتقبيلها ماسحًا دموعها. لمَ انتظرَ كل هذا الوقت ليتصرّف؟ كان عليه المحاربة بضراوة أشدّ لرؤيتها في منزل سينثيا، كان عليه أن ينام على الأرض بجوار سريرها في المشفى ريثما تتحسن صحتها بالقدر الكافي لترجع إلى المنزل: «أنا بحاجة إليك يا لولو».

التقت عيونهما، وللحظة، ظنّ أنها فهمته.

فتحت محفظتها، وأخرجت ظرفًا أزلقته عبر الطاولة.

«ما هذا؟» في كل سنينهما معًا، لم تكتب له لولو رسالةً عاطفية مزوّقة مثلما كان يكتب لها أبدًا. كانت تترك له ملاحظات صغيرة ورسائل تذكير بالطبع، لكن لا شيء أكثر من ذلك.

قالت: «لك ولعائلتك».

صعد الضغط إلى أذنيْ تشاي.

«مني ومن فرانسِس».

استحال صخب المقهى طنينًا من ضجيج أبيض، ودفع الظرف بعيدًا كما لو كان دنسًا: «لا، أبدًا. لا».

- تشاي، إنه مجرد ديْن.

- قلتُ لا.

وصلَ شايهما، وراح يراقب النادلة تضع قدريْ الشاي والسكّرية وكوزَ الحليب، وتضبط المصفاتين فوق الفنجانين، وأخيرًا، بعد طول

انتظار، تصب شايهما، وخلال كل ذلك الوقت كان يقاوم الرغبة في قذف كامل العدّة المتقنة لتتكسر على الأرض.

ما أن تراجعت النادلة حتى قال تشاي: «لستُ بحاجة إلى هذا المال. ثمة مصرفيّ إنجليزي يريد شراء المنزل».

قالت لولو: «أوه، يسرّني سماع ذلك. متى ستوقع العقد؟»

«جرى الاعتناء بكل شيء البارحة». عرِف أنها عرِفت بكونها كذبةً.

«هذه الأمور تتطلب وقتًا طويلًا لإبرامها»، ولمسَتْ الظرف، «خذ هذا الآن».

اضطرمت النار في قفا عنقه: «أخبريه أنني لستُ بحاجة إلى ماله».

«إنه ليس لك، إنه لبنتك الصغيرة».

كان كل شيء في لولو، من عينيْها بلون الشاي الخفيف إلى فمها الناعم اللدِن وصولًا إلى يديْها البيضاوين المطوّقتيْن أسفل عُنقها، ينزُّ شفقةً. عرِفَ عندئذٍ أنه قد نجح بمحو أي آثار متبقية للعاطفة التي كانت تحسّها تجاهه بفشله في إنقاذ سان سان. ربما لم تحبّه لولو بحقّ قط، ليس مثل حبه لها، وربما عبر السنين، تحوّرت مشاعرها من شغفٍ بناتيٍّ لمراهِقةٍ إلى عاطفة رفاق عُمر محدودة – ومستقيلة – متغاضية عن الحب بأسره. تساءل عما إذا كان حب زوجته نقيًّا غير مشوبٍ بالواجب والعُرف قط، وإنْ كان ذلك لا يشكّل فرقًا، فهي أيضًا صارت تكرهه.

قالت لولو بلُطف وسُلطوية: «حالما تبيع المنزل وتسدّ دينه، سينتهي الأمر برمّته. لن يعرف أحد أبدًا، سأحرص على ذلك».

حاوَل مجددًا: «أحبّكِ».

هذه المرّة هزّت رأسها ببساطة.

فكّر بابنته في تلك الفيلا الضخمة المعرّشة. في آخر رحلة له إلى الجزيرة، ركضت سان سان ناحيته، وهو رجلٌ لا يمكن أنها استطاعت التعرف عليه، بأقصى سرعة مكنتها ساقاها الصغيرتان الممتلئتان منها، قاذفةً جسمها الليّن الغضّ بلا خوف ومن صميم قلبها إلى حضنه. صارت بعد لحظاتٍ خجولةً، لكن تشاي سيتذكر دائمًا ضحكتها الزاعقة وهو يرفعها في الجو، وفرحتها الجامحة. صغيرته سان سان، الشخص الوحيد الذي لم يتسنَّ له جرحه وإبعاده بعد.

زحفت أصابعه ناحية الظرف، وراح يراقب يده كأنها منفصلة عنه. أمسك الظرف بإبهامه وإصبعيه التاليين، موازنًا الكلفة الكليّة لدسّه في جيب صدره. هبطت كفّةٌ من الميزان تحت ثقل زوجته وأمه وابنه وبنته، إلى جانب أبيه وجده وكل بقية أسلافه الذين لم يعرفهم إلا من صورهم القاتمة الكئيبة، وحملَت الكفّة الثانية لولو.

تمكن من قول: «شكرًا لك».

أدمعَت عيناها: «لم أستطع تحمّل فكرة أن تخسرها سوك كون».

لم يرَ طائلًا من الدفاع عن نفسه. ربما كانت لولو تفكر بماريغولد في تلك اللحظة، لكن لم يكن بمقدوره التفكير إلا فيها، جميلته المتعنّتة المندفعة التي هجرته إلى الأبد.

26

حالما صار تنفُّس غور أعمق وتأكدت سان سان من أنه نائم، تناولت رسائلها من تحت البساط وحلّت شريط النسيج المضلع الذي كان يربطها معًا. بالكاد تمكنت في الظلام من تبيُّن خط أمها الأنيق، لكن ذلك لم يشكل فرقًا يُذكر، فقد كانت تحفظ الكلمات عن ظهر قلب. مررت رؤوس أصابعها على الورق السميك الحُبيبيّ مثل أعمًى يقرأ لغة بريل. وصفت أمها غرفة سان سان بسريرها المقبب ورديّ الأسدال والبيانو الصغير من طراز برودوود الذي لن يمسّه أحد حتى تصل، ثم كتبت عن رجل في المستعمرة، شخص ما صارت تحترمه وتثق به. طمس الرقباء بعض السطور، لذا لم تكن سان سان واثقةً ما إذا كانت أمها تشير إلى أبيها بطريقة مواربة، أم إلى شخص آخر تمامًا، كتبت: *إنه ذكي وفي غاية اللطف، وسيساعد في لمّ شمل عائلتنا.*

طوَت سان سان الرسائل بحذرٍ على خطوط طوياتها وأعادتها إلى مكان إخفائها تحت بساطها. من الواضح أن هذا الرجل الذي أشادت أمها به لم ينجح في إنقاذهما، لكنها لم ترغب بالتفكير في كل أساليب خذلانهم لها في تلك الليلة الدافئة عديمة النجوم، وقبل أقل من اثنتي

عشرة ساعة من ركوبها السفينة التي ستأخذها إلى عائلتها. تشقلبَت لتستلقيَ على ظهرها وبسطت ذراعيها وساقيها، متخذةً الوضعية التي قدمت الحمايةَ الأفضل لعظامها البارزة من الأرضية الخرسانية. علقَ شعرُها المتشابك الذي لبّده العرق بالنسيج القشّي، وخلّصت جدائلها بأصابعها. قريبًا، قريبًا جدًّا ستقايض هذه الحياة التي بدأت تعتادها بواحدة ملؤها الحمامات الساخنة والفُرش الوثيرة واللُّحف الدافئة خفيفة الوزن. في مثل هذا الوقت غدًا، إذا ما اختارت ذلك، فستدفن وجهها في طراوة بطن أمها، وتُرخي كل عضلة في جسدها، وتترك شخصًا آخر يحمل الثقل عنها.

وقتما انفتحت عيناها للمرة التالية، كانت السماء تخبو من الدُّكنة إلى اللون الأرجواني الشاحب. رقدَت في غاية السكون، فسرعان ما ستنهض وتُعدّ الفطور بتسخين بقايا البطاطا الحلوة من البارحة على الموقد الخشبي الصغير، وبعد الفطور، ستخرج حاملةً طشتَ الأطباق المتسخة، لكن بدلًا عن الذهاب إلى الصنبور العمومي، سوف تضع الطشت على بسطة الدرَج كي يجده غور وقتما يخرج أخيرًا للبحث عنها، وسوف تكون سان سان بحلول ذلك الوقت قد وصلت إلى الميناء واختفت على متن السفينة. حينما تصل إلى هونغ كونغ سترسل المال والدواء وتلك السكاكر الملونة التي ملأت طرود أمها. تصوّرت غور يفتح العلبة ويهتف بينما تنهمر الحلوى في حجره.

تحرّك غور في الطرف المقابل من السطح، فمطّطت ذراعيْها فوق رأسها وتثاءبَت بصوت مسموع، ودفعت نفسها مستويةً في جلستها. وكأنه أيُّ يوم عادي، طوَت بساطها القشي ووضعته في مكانه ثم أشعلت نارًا في الموقد وغلَت قدرًا من الماء من أجل شاي الخالة. في البداية، بدَت الأعشاب المسحوقة التي اشتراها غور مقابل أسوارة جدتها

علاجًا سحريًا، فقد تحسّنت الخالة إلى حدٍّ سمح لها بالجلوس خارجًا تحت أشعة الشمس، والاستحمام بالإسنفجة. لكن في اليوم السابق، فقد المسحوق فجأةً كلَّ قدراته الشافية، وبقيت الخالة في خيمتها رافضةً الطعامَ وعروض غور المتكررة لتدليك قدميْها.

ومع ذلك، مزجَت سان سان بكل إخلاص قُبصةً من المسحوق بالماء الساخن وأخذت الفنجان إلى غور. كان مقرفصًا أمام بطن الموقد ينفخ على جذوة الخشب لتضطرم النار من جديد. تلاشى التشوه حول عينيه إلى لون مَغريّ داكن، أدكنُ من بشرته ببضع درجات، وسألها: «ألا تعتنين بها؟»

توقفت سان سان قليلًا عند مدخل الخيمة التي لم تدخلها قبلًا، وفي الحقيقة، عادةً ما كانت تحجم عن النظر في الداخل، لأن جسد الخالة الممتقع الضامر ورائحته الآسنة كانا يفزعانها، بل وحتى ينفّراها.

نادَت برِفق: «خالتي.. جلبتُ لك الشاي يا خالتي».

ردّت الخالة بأنّةٍ، فسحبت سان سان طرف الغطاء بحذرٍ شديد، وداهمت نتانة التفسّخ وجهَها مباشرةً. كانت الخالة راقدةً على جنبها، وأطرافها الهزيلة مكسوّة بالبطانيات.

حابسةً أنفاسها، جثمت سان سان عند مدخل الخيمة وقدمت لها الفنجان، لكن الخالة في هذا الصباح كانت أكثر ضعفًا من أن تجلس، ولم يكن أمام سان سان خيار إلا الحَبو إلى الداخل، وإسناد رأسها المرتخي ووضع الفنجان على شفتيْها الشاحبتيْن المقشّبتيْن.

قالت الخالة وهي ترمش: «أشكرك يا طفلتي»، وكان بياض عينيها قد اصفرّ مثل مفاتيح بيانو قديمة.

سُمع صوت خبْط موجة من دعسات الأقدام على الدرَج وصُفق باب السطح مفتوحًا. تمكنت سان سان من تثبيت يدها قبل أن تدلق كل الثقل الساخن على بطانية الخالة.

قال صوتٌ غليظ: «مجلس التسجيل المدني».

تخشّبت سان سان، ولولا أن رفعت الخالة طرف بطانيتها بإصبعها مشيرةً إليها بالاختباء تحتها، لما عرفت ما عليها فعله.

تهدّج صوت غور وهو يتكلم: «كيف يمكنني خدمتكم أيها الأعمام؟»

تساءلت سان سان كم كان عددهم.



- أين أمك يا ولد؟

- في الخيمة. إنها سقيمة.

انقلبَت الخالة على جنبها وهي تتنفس بصعوبة، وعشّشت سان سان في حنية ظهرها بارز العظام. كان الهواء تحت البطانية ساخنًا مثل فرن، وانتشر طفح عنيف هائج قفا عنق سان سان تاقت لحكّه.

«لقد وردتنا تقارير تفيد بأنكم تأوون فردًا غير مسجل في منزلكم».

«لا بدّ أن ثمة خطأ ما، فلا أحد يعيش هنا سوى أنا وأمي»، أطلق غور ضحكةً مرتجفة، «وكما ترون، بالكاد ثمة مساحة تكفي كلينا».

حالما يعثرون على سان سان، لن يستغرقوا الكثير من الوقت ليكتشفوا هويتها الحقيقية، وربّما قد قدّم أي كان من بلّغ عنها وصفًا، وجمعوا خيوط الموقف بالفعل.

اقترب وقع الخطوات من فم الخيمة، وقال الصوت الغليظ: «أيتها الرفيقة، ربما تكونين مريضة، لكن لا بدّ لنا من القيام بعملنا».

ضغطت سان سان بخدها على البقعة أسفل لوح كتف الخالة، وترددت دقات قلب الخالة القوية على نحو مدهش عبر كل جسدها كإشارة تحذير.

قالت الخالة بصوت مبحوح: «بالتأكيد. تفضلوا».

رفع الضابط الغطاء، سامحًا بدخول هبّة هواء، وصار يتنفّس بصوتٍ عالٍ عبر فمه، فأغمضت سان سان عينيْها عاصرةً إياهما كنعامة تحشر رأسها في الرمال.

بعد برهة، قال الضابط بلين: «اعذري إزعاجي لك أيتها الرفيقة. آمل أن تتحسن صحتكِ».

جمع الضابط فريقه.

قال غور: «آسفون على إهدار وقتكم أيها الأعمام».

قال الضابط: «لا تمنحونا سببًا يضطرنا إلى العودة»، وحث وفريقه الخطى هبوطًا على الدرَج.

فرّ التوتّر من سان سان في هيئة ارتعاشة، وتلاشت النتونة والحرارة والحكّة. كانت حاضنة أمها في سريرها الوثير الفسيح، وأخوها في الطرف الآخر. نفخَت ريح باردة في الخارج، لكن دفء أمها كان أكثر راحةً من أي لحاف.

أنزلت الخالة البطانية: «طفلتي، هل أنت على ما يرام؟»

فتحت سان سان عينيْها، تكاد تتحسّر على اضطرارها إلى النهوض، ثم رُفعت زاوية الغطاء، وحشر غور نفسَه في المساحة الضيقة، وأطلق ضحكة جنونيّة بعد أن أحاط كلتيْهما بيديْه النحيلتيْن القويتيْن. أزعجَ الصوت الغريب الصارّ سان سان في البداية، لكن حينما انضمّت الخالة

إليه، أطلقت سان سان سراح ضحكة قوية متقطّعة، وراح الضحك يندفع موجةً تلو الموجة من أعماق جوفها مرجرجًا صدرها وكتفيْها.

سأل غور: «من بلّغ عنا برأيكما؟»

جفّت ضحكة سان سان.

وقالت الخالة: «قد يكون أي شخص في المبنى، لكنني أراهن على تلك المتطفّلة، السيدة تشان».

دمدمَ غور موافقًا، وحاولت سان سان تذكُّر أيٍّ من الجارات هي السيدة تشان.

قالت الخالة: «أخبرتُ كليكما أن يحذر. لا يمكن أن يحدث هذا مرةً أخرَى».

تسرّب ضوء الشمس عبر ثغرة في الخيمة، وجلست سان سان. كم من الوقت انقضى؟ إذا ما استعجلت، فهل ما زال بوسعها الوصول إلى القارب؟

«سنكون حذريْن، أعدك» ونظر غور إلى سان سان: «لن نغادر المبنى في نفس الوقت أبدًا، ولن تستخدم هي إلا المدخل الخلفي والدرَج الخلفي».

فقالت سان سان بأقصى ما أمكنها من عاديّة: «حسنًا. والآن عليّ غسل الأطباق».

قال غور: «اتركيها لوقت آخر».

«لا، إن وصلتُ إلى هناك في وقت متأخر، فسأنتظر دهرًا في الصف»، زحفت فوق بلبلة الأطراف وخرجت من الخيمة: «سأرجع عاجلًا»، قالت بحذر آملةً ألا يلحظ أيهما تكسّر صوتها.

داخل الدرَج، ألقَت سان سان الطشتَ على البسطة وطارت على الدرجات وعبر الباب الأمامي. عبرت الجسر المؤدي إلى الميناء تمامًا في وقت إقلاع أكبر سفينة كانت قد رأتَها في حياتها عن الرصيف. كانت السفينة بطول واحدٍ من مباني المساكن الحديثة تلك وهو نائمٌ على جنبه، وكان ظهرها يعجّ بسحاحير معدنية متطابقة مكدّسة بعناية في ثلاثات، مثل أحجار لعبة بناء الأطفال. بكل تأكيد، لا يمكن أن تكون هذه سفينتها، لأنها لو كانت كذلك، لحرص طالب الجامعة ذو قلادة الصليب على ذكر حجمها.

اكتسبت السفينة سرعة والتفَت بعكس حركة عقارب الساعة مُزبدةً المحيط في أعقابها، وهناك، كان علم أخضر فاقع جاثم على أقصى طرف السطح الخلفي. انكمش قلبها بعنفٍ كما لو أن يدًا خفية انغمست في تجويف صدرها وغمرت العضو النابض وراحت تعصره. ضيّقت عينيْها محدقة في ضوء الشمس، متتبعة مربع القماش المرفرف بينما يتضاءل حجمه ويختفي أخيرًا في المسافة. بكل هدوء، وتعقّل، مثل محض مراقب لهذه المأساة، فكّرت في السقوط على الأرض ولعن أمها وجدتها وأخيها وندب قدرها المسموم، وبدلًا عن ذلك، طأطأت رأسها وتثاقلت المشي راجعةً عبر الطريق الذي جاءت منه.

وقتما التفتت لتنظر مرةً ثانيةً، كان سطح المحيط المنبسط غيرَ مشوبٍ إلا بتموّجات رقيقة تنساب مع النسيم. كان الأمر كما لو أن السفينة العملاقة لم تأتِ قط.

عبرت ساحة كوميرشال، حيث جعلها انعكاسها على مرآة عكِرةً تُبطئ مشيتها حتى تتوقف. كانت غُرّتها المزيّتة النامية أكثر مما يجب ملتصقةً بجبهتها، ووجنتيْها اللتيْن كانتا ناعمتيْن مدورتيْن صارتا عبارةً عن منعرجات وكشوط، وفقدت بشرتها كلَّ رونقها وصارت عراءً شاحبًا

مخططًا. ومع ذلك ومضَت عيناها مثل حجارة سوداء مصقولة، وأحسّت أن هذه الصرامة كانت وجهها الحقيقي، وقد نُبش من تحت طبقات لحمه القديمة.

خارج السوق، مرّت من أمام حلّاقِ رصيفٍ، ثم استدارت عائدةً: «عمي، ألا تقصّ شعري؟»

قذف الحلّاق عقب سيجارته على الأرض وأشار لها بالجلوس على مقعده: «كيف تريدينه؟»

قالت: «قصّه كلّه. إلى أقصر حدّ يمكنك».

«هل أنتِ متأكدة أيتها الأخت الصغيرة؟»

«متأكدة جدًّا»، قالت قبل أن يسعها تغير رأيها.

فقال: «حسنٌ إذًا، إنه مجرد شعر في النهاية».

كان مجرد شعر، دغلٌ من ألياف ميتة تحيط برأسها، لا تختلف في شيء عن الشعر المستعار، ما لا يختلف عن وجهها القديم الذي تبيّن أنه قناع.

رفع الحلّاق مقصّه الصدئ، جذب خصلة سميكة من شعرها، وجزّها.

لم تتمالك نفسها، واغرورقت عيناها بالدموع كما لو أن شفرات المقص قد اخترقت جلدها.

جذب خصلة أخرَى وقصّ مجددًا.

فقالت: «انتظر. لا أملك أي مال». راحت تبحث حولها عن مرآة وتتساءَل عن قدر ما قصّه، وما إن كان بوسعها إخفاء المناطق القصيرة أسفل جدائلها الطويلة.

أخفضَ مقصّه وتنهّد: «حسنًا، لا يمكنني إرسالك إلى المنزل وأنتِ تبدين مثل معتوهة، أليس كذلك؟»

التفتَت ونظرت إليه، فالإجابة الصحيحة بعيدة عن متناولها.

«هذه المرة فقط، الحلاقة مجانية».

جلست ساكنةً تمامًا، وراحت تنصت إلى كلّ ضربة مقصٍّ حادة من شأنها تقريبها من نفسها الحقيقية.

رفع مرآةً عندما انتهى، فمررت أصابعها على القصة القصيرة وأطلقت ابتسامة. لم تعُد بنتَ آل أونغ المفقودةَ بعد الآن، بل بنتَ شوارع تحمل أي اسم تختاره.

عند مبنى غور، دخلت عبر الباب الخلفي وتسلقت الدرج الخلفي، وعلى بسطة الطابق الأخير، جلس غور في الظلام إلى جانب طشتِ الأطباق المتسخة وركبتاه مضمومتَيْن إلى صدره.

«سيو بيه، ما الذي فعلته بشعرك؟»

جلست بجواره: «لا أريد أن أتسبب بأي متاعب لك ولخالتي، وبهذه الطريقة لن يتعرف عليَّ أحد».

فركَ رأسها براحته: «تبدين مثل صبيّ».

قالت: «وهو المطلوب».

- لم أكن متأكدًا أنك سترجعين.

- لم أكن متأكدًا أنك تريدني أن أرجع.

لكزها بمرفقه في جنبها: «إلى أين ستذهبين؟ أنت ضئيلةٌ جدًّا على الانطلاق بمفردك».

فحصت شحمة أذن غور، ريّانة وطويلة، من النوع الذي قيل إنه يجلب حُسن الطالع. في خضمّ كل الكآبة المحتشدة من جميع الجهات، كان هو شرارة الحظ اللامعة الوحيدة.

قالت: «نحن أخوان الآن».

«لا بدّ أنك تمزحين. ما زلتِ تركلين مثل فتاة».

فلكمَت ذراعه: «ما رأيك بهذا؟ أشعرتَ أنها لكمة فتاة؟»

ضحكَ وردّ لكمتها بخفّة.

لن ترجع سفينتها إلى الميناء لأسبوعين آخرَين، وهي أبدية بالنسبة إليها، فأي شيء قد يحدث خلال ذلك الوقت. قد يُقبض على غور وهو يسرق، وقد تضعف الخالة أكثر، وربما تستسلم لمرضها حتى. ورغم أحسن جهودها، قد يجري اكتشافها وإرسالها إلى الجزيرة من جديد، إلا إن وجدت وسيلة أخرَى للوصول إلى هونغ هونغ.

وقفت وحملت طشت الأطباق.

فقال غور: «سآتي معك».

هزّت رأسها: «ابقَ أنت واعتنِ بالخالة».

في الوقت الحالي، كان ما تريده أكثر من أي شيء آخر هو أن ترجع حياتها مع هذه العائلة، عائلتها الموقتة، إلى وضعها الطبيعي، وأيضًا، لا طائل من انتظار كليْها في الصف.

27

وضَعَتْ بي كيم قماشةَ التطريز من يدها وتناولت الهاتف الآخذ بالرنين: «نعم؟»

«مساء الخير، أنا سكرتيرة السيد أونغ. أيمكنني التكلم مع السيدة أونغ؟»

عرفت بي كيم أن الفتاة قصدت سوك كون، لكنها تصنّعت التباس الأمر عليها: «أنا السيدة أونغ».

ترددت الفتاة ثم كان واضحًا أنها قررت عدم تحدّيها: «طلب السيد أونغ إعلامك بأن المال في حسابه».

شكرتها بي كيم على عجل وصفقت الهاتف.

صاحت: «كنّتي، لقد أخذ القرض. تشاي أخذ القرض. ستكون سان سان على ما يرام».

ركضت سوك كون إلى الغرفة: «ماذا؟ مستحيل! من أخبرك؟»

أحصتا مجددًا الأيام التي انقضت. يُفترض أن رسالة سوك كون التي تشرح وجوب تحصيل سان سان لميراثها شخصيًا قد وصلت إلى الفيلا

منذ حوالي أسبوع، ما يعني أن ردًا من كوك؛ على أملٍ أن يُفيد بأن البنت قد حصلت على تصريحها وستغادر على متن القطار القادم، قد يصل في أي يوم الآن.

قبضت سوك كون على كتفي بي كيم وعيناها تتلألآن: «لن تكون قد حزمت إلا حقيبة صغيرة، لذا علينا طلبُ حياكة بعض الملابس الجديدة».

ضغطت بي كيم على يديْ كنتها: «من الأفضل أن ننتظر حتى تصل، فالبنت تنمو مثل عشبة».

دسّ ليام رأسه في غرفة الجلوس وسأل: «ما الذي يجري؟»

أعلنت بي كيم وسوك كون أن الخطة كانت في موضع التنفيذ أخيرًا، ثم تبادلتا الأدوار في تقريب الفتى إليهما، وتسوية شعره، متلعثمتيْن بالكلمات بينما تسابقتا لتنهي كلٌّ منهما جملةَ الأخرَى وتسيطر على القصة.

قالت بي كيم: «ما أدرانا، قد تكون سان سان في طريقها إلى هنا بينما نتكلم».

بدا حفيدها مبهورًا بعض الشيء، وقال بنبرة مدروسة: «هذه أخبار رائعة».

خَبَت حماسة بي كيم، وتبادلت نظرة مع كنتها. كان الصبي على حق، فالوقت مبكر جدًا على الاحتفال، ولا ينبغي لهما ترك نفسيْهما تنجرفان خلف إثارتهما.

قالت سوك كون: «لا يمكننا إلا الانتظار الآن».

عرجت بي كيم إلى كرسيها وأشارت إلى ليام أن يجلس، لكنه رفض معللًا ذلك بأن عليه العودة إلى وظيفته. كان مدرسو مدرسته الصيفية

قساةً، وكان تشاي على حق: مدارس هونغ كونغ أكثر مطالبًا من قريناتها على الجزيرة بكثير.

قالت بي كيم: «إنه فتًى صالح».

قالت سوك كون: «كلاهما صالح».

مرّ يوم تلاه آخر ولم يأت ردٌ من كوك وسان سان. خشيت سوك كون أن يكون الرقباء قد أتلفوا رسالتها، أو أن تكون ضاعت بطريقة ما قبل أن تبلغ الجزيرة حتى. تعلمت بي كيم تهدئتها بترديد أن الرد سيصل في اليوم التالي على الأرجح بنبرة مطمئنة. كانت تغير الموضوع بسرعة إلى وصول سان سان. كيف ستكون ردة فعل البنت على شقتهم الجديدة؟ ما هو أول شيء سترغب بأكله؟ ما الذي سيأخذونها لتراه؟ الإطلالة من ذه بيك؟ الشاطئ؟ حديقة الحيوانات، التي قيل إنها على مستوىً عالمي؟ كان بوسع كلتيهما إمضاء ساعات طوال في غرفة الجلوس، تخمنان وتخططان، وعلى عكسهما، نادرًا ما سأل ليام عن أخبار سان سان. كان يقضي المزيد والمزيد من الوقت في غرفته، وفي إحدى المرات، وقتما ذهبت بي كيم لترى ما إذا كان يريد وجبةً خفيفةً، وجدت بابه مقفلًا، وهي صدفة، مثلما ادّعى.

لكن لم يكن ثمة وقت للقلق حياله، فقد وصلت رسالة بعد ظهر اليوم التالي. راقبت بي كيم كنتها تمرر فتاحة الرسائل على طول حافة الظرف بلَهوَجة بالغة جعلتها تجرح يدها وتنزف دمًا، وقدمت لها منديلها لكن سوك كون لوّحت بيدها رافضةً. جذبت الرسالة مفسدةً الورقة المصفّرة الرقيقة بقطرات قرمزية.

قالت بي كيم: «ما الذي تقوله؟»

مرّرت سوك كون عينيْها بسرعة على الورقة، وأطلقت صيحةً مجلجلةً ثم قذفتها على السجادة الفارسية.

طقطقت ركبتا بي كيم بينما انحنَت لتلتقطها، وأسرعت عبر السطور ثم عادت إلى البداية، وجزء ضئيل منها يعتقد أنها قادرة بطريقة ما على حمل الأحرف على إعادة ترتيب نفسها لتقول شيئًا جديدًا. لكن ظلّت رسالة كوك المريعة نفسها، والمكتوبة بمساعدة كاتب رسائل محترف من دون شك: *أخبركم بقلبٍ مفطورٍ أن سان سان قد اختفت من غرفة نومها في ليلة الرابع عشر من يونيو. ارقدوا مطمئنين أن قسم شرطة جزيرة درَم ويف يعمل من دون كللٍ على القضية.*

هزّت بي كيم رأسها حتى اربدّ بصرها، وأغمضت عينيْها وتجهزّت لقراءة الرسالة مجددًا. سيكون الخطاب مختلفًا هذه المرة!

«أمي»، فتحت سوك كون يدها بالقوّة واستردت الرسالةَ منها ثم أعانتها بالعودة إلى كرسيها: «إن كوك يبخّ الكذبات. كنت أعرف أننا أخطأنا في الوثوق به».

حدّقت بي كيم إلى عينيْ كنّتها اللامعتيْن، محاولةً حلّ شيفرة ما إذا كانت مصدقةً ما قالته حقًا. تابعت سوك كون: «انظري هنا، تقول الرسالة إن سان سان اختفت منذ أسابيع، ما لا يمكن أن يكون صحيحًا، فكيف لها أن تختفيَ من دون أن يلاحظ أحد غيره؟ كانت روز لتخبرني على الفور».

تمايل رأس بي كيم.

«ماذا يا أمي؟ ما الأمر؟»

لم تُجب. ربما أخطأت في إخفاء أنباء الإعدام، ربما لو أخبرت سوك كون، كانت لتكتب إلى الجيران والأصدقاء، لتحرص على أن يراقب آخرون غيرُ الخدم التعساء البنتَ.

ركعت سوك كون أمامها وقبضت على يديْها: «هل تعرفين أي شيء عن هذا؟ ماذا سمعتِ؟»

تحررت بي كيم من قبضتها بطريقة ما. إن كانت قد شكت بقدرة كنتها على التعامل مع الأخبار في ذاك الوقت، فهذا الوقت أسوأ.

«أجيبيني يا أمي».

حزّ صوت كنّتها قلبَها. ما كان أمامها من خيارات! «أخشى أن صديقتك ميتة».

سقطت سوك كون خلفًا على مقعدها، ووجهها قناع أبيض: «أين سمعتِ بشيء كهذا؟»

«لقد أعدموها وتشين كونغ لمحاولتهما الفرار».

قالت سوك كون: «هذا مستحيل! من قد يلفّق إشاعةً وضيعةً كهذه؟»

«آسفة يا كنتي، آسفة جدًّا». حدقت بي كيم في السجادة الفارسية حتى انطمس النقش الأحمر والأزرق الداكن في كتلة قاتمة.

قالت سوك كون: «لا. لن أصدّق أيًّا من هاته الكذبات».

فقالت بي كيم: «سأتصل بتشاي».

«لمَ؟ ألم تعرفي بعد أنه عاجز مثل بقيتنا؟ نحن تحت رحمة الحزب. يا ليتنا تقبّلنا هذا منذ البداية».

قالت بي كيم: «حسنًا. إذًا ما الذي علينا فعله برأيك؟»

فجَأرت سوك كون: «وما أدراني؟ ألم أثبت مرةً وإلى الأبد أنني لا أعرف شيئًا على الإطلاق؟ أنني لا أصلح لأن أكون أمًّا؟»

لم تحاججها بي كيم. ضربت جبهتها بكعب راحة يدها لتطرد الصور الآخذة بالتجذر، صور مروّعة تتضاعف أضعافًا مضاعفةً لجسد حفيدتها النحيل نُحلًا مؤلمًا يطفو في القناة، أو مخفي خلف عُلّيقة، أو مدفون على عجل في الأرض ليمزّقه أي وحش بريٍّ يعثر عليه ويقطّعه إلى أشلاء.

«أراكِ في الأسفل»، قال غور وهو يشد رباط الأرهو إلى ظهره.

ثبتت سان سان آخر قطعة من الغسيل المبلل بملقط على حبل الغسيل. منذ زيارة مجلس التسجيل المدني، توقفت وغور عن التمرّن على السطح، وتحاشيا أن يُرَيا معًا في البناء أو حوله، ولم تأتِ أو تذهب إلا عبر الدرَج الخلفي المتداعي. لم تعرف ما إذا كانت إجراءاتهما الاحترازية مرضيةً للخالة، التي صارت ضعيفة إلى حد يمنعها من إبداء رأيها.

صاح غور: «إلى اللقاء يا أمي». توقف قليلًا آملًا سماع رد، وطأطأ رأسه عندما لم يسمع شيئًا.

خلال الأسبوع الماضي، تدهورت صحة الخالة تدهورًا شديدًا. لم تُبقِ الطعامَ في جوفها منذ أيام، وكان تنفُّسها خشنًا وثقيلًا، ويداها وقدماها باردتان مثل الجليد. لم يناقش غور حالة أمه إلا ليقول: «وقتما يصير معنا مال كافٍ، سنرجع إلى الأعشابيِّ لشراء أقوى ما لديه». وبحلول الآن صارت سان سان تشكّ في خبرة الأعشابيّ، لكنها أبقت شكّها لنفسها.

بين الحين والآخر، كانت تجبر غور على الاستراحة وتتولى تدليك أطراف الخالة، وفي بعض الأوقات، كانت تجلس معها ممسكةً يدها فقط.

اختفى غور في الدرَج، وحملت سان سان الأكورديون وذهبت إلى الخيمة. همست: «خالتي؟»، واسترقت النظر إلى الداخل، فجعل وجه الخالة الأرمد وفكّها السائب نبضَها يقفز تحت جلدها، لكن الخالة أطلقت خرخرة طنّانة.

«إلى اللقاء يا خالتي». فتحت سان سان بابَ الدرَج وأنصتت لتتأكد من خلو المكان قبل أن تهبط بضع درجات وتركض عبر الرواق إلى الدرَج الخلفي. التقَت غور عند نهاية الحارة وانطلقا معًا.

كان صباحًا صيفيًا عاديًا، ومع ذلك كان المارة يملؤون الشوارع. بينما اقتربا من ساحة كوميرشال، سدّ جدارٌ من الناس الواقفين كتفًا إلى كتفٍ طريقهما.

فسأل غورُ امرأةً صغيرة الحجم، تقترب من حجم الأطفال، واقفةً على مقعد: «ماذا يجري؟»

فقالت: «موكب».

علا فوق الثرثرة صوت تقارع صنوج ودويُّ أبواق. كان قصر قامة سان سان يمنعها من الرؤية من فوق المشاهدين، لكن غور أخبرها أن ثلاثة رجال يرتدون قلانس مخروطية طويلة وأروابًا ورقية يجري اقتيادُهم عبر الشارع من أيديهم المقيدة.

سألت سان سان من كانوا وما الجرائم التي ارتكبوها، فخبأ غور آلتيهما تحت المقعد ورفع سان سان على كتفيه كي ترى بنفسها. من الأحرف المخربشة بحبرٍ أسود على أرواب الرجال الورقية، فهمت أنهم كانوا أطباء في مشفى المدينة ارتكبوا فِعالًا معاديةً للثورة. اصطف

زملاء الأطباء وطواقمهم خلفهم، يصرخون بالإهانات ويصوّتون بآلاتهم، كان من الواضح أن الطبيب المُسنّ في مقدمتهم هو صاحب الذنب الأكبر، لأن قلنسوته كانت أطول من بقيتهم بطول رأس كامل، وعاملته الممرضة التي تقوده عبر الطريق باحتقار خاص، مذبذبةً قيده لتجعله ينحني أكثر أمام الحشد.

أمام سان سان وغور مباشرةً، جذبت الممرضة القيد بعنفٍ مفاجئ جعل الطبيب يتعثر بقدميْه وينبطح على الأرض. صفّق المشاهدون وهزأوا، واهتز كتفا غور ضحكًا، ففقدت سان سان توازنها، وكانت لتسقط على الرصيف مثل الطبيب التعِس لو لم يتمكن غور من التقاطها.

سألها ما إذا كانت على ما يرام، لكنها عجزت عن الكلام. وجدت القوقأة والتهكّم وأصوات الأبواق المصمة للآذان تلك طريقها تدريجيًا عبر أذنيْها إلى عمق جمجمتها، حتى بدا النشاز غيرُ المحتمل منبعثًا من داخلها.

«سيو بيه، ماذا أصابك؟»

بلعت ريقها بصعوبة، واثقةً أنها ستشعر بالغثيان، ثم شقّت طريقها دافعةً المشاهدين، فارةً من الموكب.

«إلى أين تذهبين؟ سيو بيه، توقفي!»

هتفَ الأطباء والممرضات: «طهروا بحزم كل مُعادِي الثورة! التسامح مع العدو وحشيةٌ على الشعب!»

بطريقة ما، وجدت سان سان نفسَها على بُعد بوصات من المتظاهرين، وحمل زوجٌ من الممرضات لافتةً كُتب عليها: «ممرضات جزيرة درَم ويف يقفن متضامنات مع مشفى شيامن الشعبي». كانت واحدة من الممرضتيْن شابة وجميلة وثمة دمامل في وجنتيْها، وحدّقت

سان سان لعدة دقائق إليها قبل أن تتعرف عليها: كبيرة ممرضات عيادة الأمومة في الطرف المقابل من الفناء أمام منزلها.

وقتما مرّ طرف ذيل الموكب، تفرّق الحشد لكن سان سان تبعت ممرضات درَم ويف. تجمّعن تحت شجرة تينٍ هندي، وراحت واحدةٌ منهن تمرر بيضًا مسلوقًا بينما تصب ثانيةٌ الشاي من ترمس كبير.

وبدلًا عن تناول وجبتها مع البقية، طرّفت كبيرة الممرضات الجميلة نفسها جانبًا، واستدارت حاثة خطاها بعيدًا بينما كانت زميلاتها غافلات.

تعقبتها سان سان إلى حديقة بيبلز. كان في جعبتها الكثير من الأسئلة لها، لو كان بوسعها الكشف عن هويتها فقط. أكانت الشرطة ما تزال تبحث عنها أم استسلمت؟ هل تكلمت الممرضة مع كوك وموي قط؟ هل أبلغ شخص ما أمها عن اختفائها؟ أما زالت رسائل أمها تصل كل يومين؟

في منتصف الحديقة، كان ثمة بركة تغطيها زنابق الماء، وجلس رجل على مقعد حجري مواجهًا البركة. اقتربت الممرضة من المقعد خلسةً وثبتت يديْها بإحكام على عينيْ الرجل، فوثب على قدميه مطلقًا قهقهة ابتهاج. كان طويلًا حسن الشكل يرتدي نظارات سوداء الإطار. ابتسمت الممرضة وصديقها واعتصر كل منهما يديْ الآخر. جلسا معًا على المقعد، وأراحت الممرضةُ رأسَها على كتفه، للحظة فقط، قبل أن تتلفّت حولها لتتأكد من أن أحدًا لم يرَ. لم تُلحظ سان سان، وهي تتظاهر بأنها معجبة بالزهور الورديّة الوافرة لشجيرة أزالية.

لمست سان سان شعرها الصبياني القصير، وفحصت راحتيها المتقرّحتيْن وأظافرها المحشوة بالتراب، والدُروزَ المفتوقة لبيجامتها المهترئة. حتى لو كانت حمقاء بالقدر الكافي لتذهب إلى الممرضة وتكشف عن اسمها، فلن تصدّق الممرضة أبدًا أنها البنتُ من الفيلا

الماسية. صارت تنتمي إلى الأحياء الفقيرة الآن، مثل غور، ومثل الخالة، الذابلة في خيمتها السطحيّة. إذا ما كان بوسع الممرضة معاينة الخالة، فهل ستقدر على مساعدتها؟ هل تعرف أطباء يقدرون؟ في الحقيقة، كان رفيقها يبدو مثل طبيب إلى حد ما.

نقر شخص ما على كتف سان سان، فاستدارت حول نفسها.

قال غور: «ها أنتِ ذا». كان يحمل الأرهو على ظهره وأكورديونها مربوط على صدره: «كيف انتهى بك المطاف قاطعةً كل المسافة إلى هنا؟»

قالت سان سان: «آسفة، لم أستطع تحمّل الجلبة».

حدّق إلى وجهها: «كنت تتصرفين ببالغ الغرابة. أنا مسرور لمجرد أنني وجدتك».

فقالت: «أشعر بتحسن. لمَ لا نعزف هنا؟»

قيّم غور جمهورهما المحتمل ووافق، ثم اتخذا موضعهما عند كعب الجسر الممتدّ عبر البركة وبدآ بـ «شروق الهلال».

توقف زوج من السادة المحترمين المسنين يدخنان الغليون أمامهما، وأومأ واحدٌ منهما باستحسان وقتما أدت هي وغور الطبقات العالية على أكمل وجه.

شرعا بعدها بـ «لحن الخيزران الأرجواني»، عزفت سان سان المقدمة على أكورديونها وغنّى غور سطر الافتتاح، وعندئذٍ تمشّت الممرضة ورفيقها باتجاههما، مثلما أرادات تمامًا.

توضّحت معالم آمال سان سان المبهمة من أجل الخالة متحولة إلى مخطط وأخفقت في تتبُّع يدها اليسرى ضاربةً نغمة خاطئة، مستجلبة نظرة من غور. أعادت التركيز على الموسيقى، وشدّ غور قوسه على

الأوتار في حركات قصيرة وسريعة، حاقنًا جرعة إضافية من المَرَح إلى تقفيلة الأغنية. ممسكًا بالعلامة الأخيرة، تمتم قائلًا إنهما سيعزفان «الراعية الصغيرة» بعدها، أداء سان سان المنفرد.

كانت تعرف ما عليها فعله. أنزل غور آلته وانضم إلى الجمهور، وعزفت سان سان السطر الأول، وعندما اقترب دخولها الصوتي، ملأت رئتيْها، وفتحت فمها، وأرخت كل عضلة في جسمها، ثم سقطت على الأرض. ارتطم كتفها أولًا، مرسلًا موجةَ ألمٍ سريعة في صميمها، وتبعه أكورديونها وانضغطت مفاتيحه مصدرةً نغمات ناشزة صامَّة. بينما كانت عيناها مغمضتيْن، شعرت بكفّي غور الخشنتيْن على كتفيْها، وسمعت صوته، عاليًا ومحمومًا، يحثها على النهوض. شعرت بالأسف لأن الطريقة الوحيدة التي مرّت ببالها لمساعدة الخالة انطوَت على وضعه في هذا الموقف.

جاء صوتٌ آمر: «توقف عن هزّها، تنحّ جانبًا، تنحوا كلكم. امنحوها بعض الهواء».

وقتما استمرّ الحشد بالتضييق عليها، قال الصوت هاتفًا بإيعاز: «دعوني أمرّ، أنا ممرضة».

انحنَت الممرضة فوق سان سان. ضغطت أذنها على صدرها وتحسست نبضها، ووضعت سبابةً تحت أنفها وقاست تنفسها.

سأل غور: «هل أختي الصغيرة بخير؟». كان تهدّج صوته جليًا، ما لم يزد سان سان إلا تصميمًا على إكمال خطتها.

قالت الممرضة: «لا مشكلة في تنفُّسها».

رفّشت سان سان أهدابها وسألت بوَهن: «ماذا حدث؟»

قالت الممرضة: «لقد غبتِ عن الوعي، ربما يكون تجفافًا، أو انخفاضًا في سكر الدم، أو ربما فقر دم».

خفَّ الحشد، وربما خيّبت النهاية المحبطة أملهم.

فتحت سان سان عينيْها على ملئهما. كانت الممرضة منحنية في غاية القُرب، ولمَحَت لطخة أحمر شفاه ورديّ على سنّها الأمامي، وبجوارها كان غور، شاحب الوجه مسيحًا بالدموع. في غضون ذلك، قدم بعض المشاهدين المتبقين نظرياتهم الطبية الخاصة. ربما شربت مياهًا ملوثة، أو استهلكت أكثر مما ينبغي من الأطعمة المدفئة في هذا الطقس الحار.

سألت الممرضة: «أتظنين أن بمقدورك الوقوف؟»

قالت سان سان: «أظن ذلك». لم تُرد أن تبدو مريضة جدًا، خشية أن تودع في المستشفى.

قبضت الممرضة على ذراع سان سان اليسرى وطلبت من غور أن يأخذ اليمنى، الرضيضة بشدة جراء السقطة، ونكصَت سان سان على نحو مقنع بينما رفعاها على قدميها.

قال غور للممرضة إنه يمكنه إيصال سان سان إلى المنزل، وأنهما يعيشان على بُعد بضعة مربعات سكنية فقط.

عند سماعها ذلك، مالت سان سان جانبًا قائلة: «أشعر ببعض الدوار».

فعرضت الممرضة حالًا أن تمشي معهما إلى المنزل، وقبل أن ينطلقوا، أرسلت الممرضة رفيقها إلى صيدلية المشفى الشعبي ليحصل على بعض الأعشاب المغذّية.

تسلّق ثلاثتهم الدرَج الخلفيَّ للبناء، الذي كان ضيقًا إلى درجة أن الممرضة اضطُرت إلى ترك ذراع سان سان والمشي خلفهما.

قالت سان سان وقتما وصلوا إلى السطح: «أشعر بتحسن كبير».

استقبلهم سعال الخالة المتقطع الجاف.

فسألت الممرضة: «من هذا؟»

قال غور: «إنها أمي. هي ليسَت على ما يرام».

- ما خطبها؟

- كتلة في رئتها.

قالت الخالة آزّة: «بني؟ أرجعتَ مبكرًا؟»

أنصتت الممرضة بحذر إلى سلسلة السعلات المتصاعدة وقالت: «أتمانع أن ألقيَ نظرة؟»

ذهب غور ليخبر الخالة بأن لديها زائر، وأخفت سان سان غبطتها، قالت: «يقولون لا يوجد علاج»، آملةً أن تعارضها الممرضة.

«قد يكون هذا صحيحًا إلى حد بعيد، لكن يمكننا أن نحاول جعلها مرتاحةً أكثر».

تذكرت سان سان أنها يُفترض بها أن تكون مريضةً أيضًا، فعرَجت إلى بساطها القشيِّ، وبسطته واستلقت.

في منتصف معاينة الممرضة، وصل رفيقُها حاملًا علبةً من الصيدلية، فطلبت الممرضة من غور أن يغلي ماءً من أجل دواء سان سان، وذهب ليُشعل الموقد.

وهي منكمشة على نفسها فوق بساطها، سمعت سان سان الممرضة تقول للخالة: «أنت محظوظة جدًّا بوجود أولاد طيبين مثل أولاء ليعتنوا ببعضهم، وبك».

لا بدّ أن ألمَ الخالة قد عتّم على عقلها، لأنها أجابت: «البنتُ ليسَت طفلتي. إنها يتيمة. توفيَت عائلتها بمرض السلّ».

انتصبت سان سان جالسة.

قالت الممرضة: «أتقولين يتيمة؟»

أعليها أن تصرخ، أن تركل دلو الماء، أن تفعل أي شيء لمقاطعة هذه المحادثة الخطيرة؟ لكن ربما كانت تبالغ في ردة فعلها، فثمة احتمال كبير أن تفترض الممرضة أن الخالة قد سوّت كل الأمور مع مجلس التسجيل المدني.

قالت الممرضة: «من الطيّب منكِ أن تؤويها».

سُرّت سان سان لأنها لم تقاطعهما، وانتظرت رد الخالة.

«فعلتُ ذلك لأجل ابني. وإلا سيكون وحيدًا».

اقترب غور حاملًا فنجانًا ينبعث منه البخار. لا بدّ أن التوتر كان واضحًا على وجه سان سان لأنه جثم بجوارها وقال: «قالت الممرضة أن لا شيء لديك لتقلقي حياله. ستكونين بخير عاجلًا جدًّا».

رشفت سان سان رشفة صغيرة من المنقوع المر.

عقب انتهاء معاينة الخالة، خرجت الممرضة زاحفة من الخيمة وجاءت إليهما، فارتعشت يد سان سان وهزّت الفنجان لاذعةً لسانها.

قالت المرضة: «أعرف أن طعمه سيئ، لكنه سيجعلك قوية».

شربت سان سان رشفةً أخرَى، وأبقت رأسها منخفضًا فوق الفنجان.

فقالت الممرضة: «فتاة صالحة»، وأعطت غور جذاذةَ ورقٍ: «املأ هذه من صيدلية المشفى. ينبغي أن تجعل الأقراص أمك تشعر بتحسن».

أخذ غور الورقة بكلتا يديه وانحنى بشدة: «أعجز عن التعبير لك عن قدر امتناني».

قالت سان سان: «نعم، شكرًا لك»، وقررت أنها يجب أن تكون أضعف من أن تقف.

فقالت الممرضة: «لم يكن ذلك شيئًا يُذكر». بدا أن نظرتها تلكأت على سان سان قليلًا، ثم أخفضت رأسها وحكّت قفا عنقها.

وبينما مشت الممرضةُ ورفيقها خارجين من الباب، قالت الممرضة: «تذكرني الفتاة الصغيرة بشخص كنت أعرفه على الجزيرة».

التفتت عينا سان سان إلى غور لترى إن كان قد سمع، لكنه كان يحبو إلى الخيمة ليتكلم مع الخالة.

قال رفيقها: «أوه؟ يا لغرابة ذلك».

فقالت الممرضة: «البنت الصغيرة التي عرفتها عاشت في القصر المقابل للعيادة. ما كانت لتنجوَ في مكان كهذا أكثر من دقيقة».

ابتلعت سان سان بقية الشاي بجرعة واحدة، وغلّفت المرارة العنيفة لسانها وحلقها وجعلتها تغص، لكن على الأقل لم يرجع شيء منه.



29

ازدادت سوك كون حنقًا في سيارة الأجرة. كم كانت حمقاء لتعتقد أن بوسعها التغلّب على دهاء الحزب. ما الذي يميّزها عن بقية الأمهات اللاتي خسرن أطفالهن في الحرب أو المرض أو ضنك العيش؟ ما الذي جعلها تعتقد أنها تستحق أكثر؟

جاءها صوت الأب ليونغ مجددًا، وكأنه يتمتم في أذنها: «*عديني أنك ستصلّين. عديني أنك لن تحاولي مواجهة هذا بمفردك*».

قالت سوك كون للقس: «لقد فعلتُ كل ما قُلتَه».

فنادى السائق: «ها؟»

تجاهلته واستأنفت محادثتها: «كنتُ آتي إلى الكنيسة كل أحد. وأصلي ليلًا ونهارًا».

«أتكلمينني يا مدام؟»

همس الأب ليونغ في أذنها: «*هو ملاذنا وقوتنا، والعون الحاضر أبدًا في مشاقنا*».

لكن لا شيء من ذلك كان حقيقيًا. أي صنف من الأرباب يترك بنتًا صغيرة تؤخذ من عائلتها؟ أي صنف من الأرباب يترك أناسًا طيبين وصالحين يُعدمون أمام همجٍ معتوهين؟

قال السائق: «مدام؟ لقد وصلنا يا مدام».

دفعت سوك كون أجرة التوصيلة، وانطلقت عبر الأبواب المزدوجة للكاتدرائية، الخالية في ظهيرة هذا اليوم من الأسبوع إلا من الأب ليونغ وعازف الأُرغن، اللذَيْن كانا يتحادثان في شرفة المنشدين.

صاح القس من الأعلى: «مدام أونغ، أثمة أخبار؟»

دسّت خصلات شعرها المعاندة خلف أذنها، وارتجّ صوتها: «نوعًا ما».

«سأنزل حالًا».

نزل وعازف الأُرغن من شرفة المنشدين، وما إن غادر العازف حتى صعد الأب ليونغ المذبح قائلًا: «أخبريني بما يجري».

تضافر كل غضبها وارتباكها ويأسها على هذا الرجل اللطيف العطوف، فطارت إليه وخبطت صدره بقبضتيْها صارخةً: «كاذب!». تردد صدى الكلمة عبر صحن الكنيسة المرتفع: «قُلتَ لي أن أُصلي، قلتَ لي أن أتحلى بالإيمان، قلتَ لي أن الرب لن يُحمّلني ما لا طاقة لي به».

حمى القس نفسه بيديْه: «أرجوك اهدئي».

انتشرَ ألمٌ على طول ذراعيْها، واستمرت قبضتاها بضرب صدره.

- مدام أونغ، أرجوك، لا يمكننا الحديث على هذا النحو.

- كاذب! لقد كذبتَ وأنا صدقتُك.

أمسك القس برسغيْها وأخفضهما بهدوء: «أخبريني ماذا حدث».

أرخت سوك كون قبضتيْها: «فُقدت سان سان».

«يا إلهي!»، أخفض القس رأسه وأداره.

فقالت بحدّة: «انظر إليّ! لا أحد غيرك يمكنه مساعدتي. انظر إليّ».

فعاد بنظره متمهّلًا: «لستُ أنا من يمكنه مساعدتك، إنه الرب. سلّمي حزنك للذي 'يشفي القلوب الكسيرةَ ويضمد جراحها'».

«ما الذي يفترض أن يفعله هذا؟» سمعت نفسها تزمجر: «ابنتي مفقودة! أخبرني بشيء سيحدث فرقًا حقًّا».

«أعرف أنك تتألمين، لكن لا يمكننا فرض مطالبنا عليه، هذه ليست طريقة عمله».

تراجعت سوك كون، مرتابةً: «إذًا لمَ أنا هنا؟ لمَ أي منا هنا؟»

«ألمك لا يُطاق، وتشعرين بأنك وحيدةٌ تمامًا، لكن ثقي أنه سيكون منتظرًا إياك متى ما كنتِ جاهزةً للالتجاء إليه».

أقحمت أصابعها في أذنيْها: «توقف، أرجوك توقف، ما كان يجب أن آتي»، ومشت من حوله متجهةً إلى الباب، لكنه أمسك بمرفقها.

«لا، كنتِ محقةً بالقدوم».

جعلتها لمستُه ترتعش، وحالما تركها، اشتاقت لثِقل يده. متى كانت آخر مرةٍ لمسها فيها زوجُها مدفوعًا بأي شعورٍ سوى الغضب؟ مسّدت أصابعُها خدَّها وفكَّها، آخرَ ما لمسه زوجُها، وكانا ما يزالان يؤلمانها عندما تضغط عليهما.

ورغم ذلك، ابتلع تشاي كبرياءه ووافق على القرض صادمًا إياهم جميعًا. في يوم تسلّمهم الأخبار الحسنة، كانت سوك كون قد قررت أنه إذا ما كان الرزوح تحت وطأة سخط زوجها هو ثمنَ إنقاذ ابنتها؛ فستدفعه بسعادة مراتٍ ومرات، وفي حقيقة الأمر، التزمت هي وتشاي

كلٌّ بجانبه من الصفقة، لكن أي نفع حققه ذلك؟ فابنتها مفقودةٌ، وليست لديْها أي طريقة لإيجادها.

سقطت على مقعدٍ كنسيٍّ من الخشب الصلب وراحت تحدق إلى الأشكال البدائية المصورة على الزجاج الملوّن في الأعلى.

سأل القس: «ألا نصلّي؟»

كانت قد نسيَت أنه هناك، وقالت: «دعني وشأني، أرجوك».

فامتثل لطلبها.

انتقلَت عيناها إلى الصليب في أعلى المذبح: قطعتان من البرونز المطليّ بالذهب مسمّرتان معًا. لم تستطع الصلاة، لم تستطع حتى البكاءَ على ابنتها، على روز. كان رأسُها كهفًا أجوَفًا، وجسدُها قوقعةً متصدّعةً وواهية.

30

كانت الأقراصُ صغيرةً وبيضاءَ وشكلها عاديّ تمامًا، لكن في غضون ساعات من ابتلاعها القرصَ الأول، توقّف أنين الخالة، وصارت أنفاسُها الجشّاء سلسلةً وثابتة. وفي اليوم التالي، بعدما قالت إنها كانت أول ليلة تنامها كاملةً منذ وقت أطول مما يمكنها تذكره، تمكنت الخالة من الجلوس والتهام لُقمةٍ أو اثنتيْن من البطاطا الحلوة. وبحلول نهاية الأسبوع، كانت قد قهَرت سعالَها شبه المستمر وخرجت من خيمتها لتنتقع في الشمس.

نظرًا إلى التحسّن الإعجازي، لم يكن يجدر بسان سان أن تتفاجأ وقتما استيقظت في أحد الصباحات لتجد جسدًا طويلًا أشبه بطيف في ضوء الصباح الباكر يقف أمام الموقد. لم تكن قد رأت الخالةَ منتصبةً من قبل، وأذهلها الطول الكامل لجسدها، والشكل السماوي لأطرافها الهيفاء من دون ضماد البطانيات الواقي خاصتِها.

كان غور يراقبها بزهوٍ وحُبور، وعندما انتبه إلى سان سان، قسمت ابتسامته وجهه إلى نصفين: «لقد استيقظتِ، تعالي كُلي».

أصرّ أن تجلس سان سان والخالة على زوجيْن من الدلاء المقلوبة، بينما جلسَ هو القرفصاء بجوارهما. جعلت إضافة بضع قطعات من الكرنب المملح طعم العصيدة الخفيفة لذيذًا.

فقالت الخالة: «لقد نسيت كيف يكون الشعور بالجوع»، وبصرف النظر عن ضعف بُنيتها، كانت بشرتها بهيّة.

قال غور: «كل هذا بفضل سيو بيه»، وأخفضت سان سان نظرها برزانة، «فلو لم تغِب عن الوعي، لما جاءت الممرضة إلى هنا بأي حال».

جلسوا معًا يحكون ويضحكون، وعندما وضعت سان سان الزبادي المتسخة في الطشت، قالت الخالة: «اتركيها. لقد فعلتما الكثير من أجلي أيها الأطفال، فاخرجا والعبا».

مشّطت أنامل الخالة شعر سان سان المقصوص مدغدغة فروةَ رأسها، وحارب قلبُها للتحرّر من قفص أضلاعها. يومًا ما في المستقبل، بعد أن تعزّز مكانها في هذه الأسرة، ستعترف أخيرًا كيف استدرجت الممرضةَ إلى السطح لمعاينة الخالة. سيُعجب غور والخالةُ بدهائها، وسيُبهتون أمام تمثيلها المقنع. سيقول غور للخالة: «*لقد سقطت على الأرض سقطةً شديدة، وبقي كتفها رضيضًا أيامًا!*». ستكون حيواتهم متواضعة لكن ملؤها السعادة.

لم يبقَ إلا خمسة أيام على عودة السفنية ذات الراية الخضراء، لكن ملأت التخيُّلات المشابهة رأس سان سان. حالما تصل إلى هونغ كونغ، ستجد طريقةً لإنقاذ غور والخالة. ربما يمكنهما ركوب السفينة نفسِها بعد أسبوعين والمجيء للمعيش مع عائلتها في هونغ كونغ؛ ألا تدينُ أمها لها بهذا القدر؟

أصرّت الخالة: «هيا، اذهبا والعبا».

تذكرت سان سان ملصقًا كانت وغور قد رأياه قبل بضعة أيام، يروّج لأداء جوقة مسرحية عسكرية لـ «الفتاة بيضاء الشعر»، وهي أوبرا مبنية على قصة سُردت في واحد من كتب أخيها المصورة، فاقترحت أن يذهبا إلى الساحة ليحضرا الأداء، وغور وافق.

هبطا كلٌ درَجًا والتقيا آخر الحارة. كان الصباح نضرًا وباردًا، وكان بطن سان سان ممتلئًا وشعرت بخطواتها خفيفةً وهيّنةً. كانت أمها وجدتها وأخوها الحقيقيّ بعيدين، بعيدين جدًّا.

وصلت وغور عند بداية الأوبرا. أطلقت العلامات السريعة والمرتجفة للكمانات في الأوركسترا الصغيرة الملتفة حول المسرح نغمةً مشؤومة، وصعد رجل عجوز محنيّ الظهر متشحٌ بالأطمار بمساعدة ابنته الجميلة إلى المنصة. انكبّ الاثنان على وجهيْهما أمام مالك أراضٍ ثريٍّ وتوسلا إليه أن يعفوَ عن ديونهما، لكن الرجل الهمجيّ لم يُبد أي رحمة، وانتزع البنت الجميلة من بين ذراعيْ والدها بعنف وجعلها أمةً له.

شاهدت سان سان بصمتٍ ذاهلٍ البنتَ تودّع والدها الوداع الأخير، ومسحت عينيْها بكُمها عندما شنق الرجل نفسه بعد أن أفقده الأسى صوابه.

بعد وقتٍ غير طويل من اختطافها، صارت البنت الجميلة حُبلى، وبدلًا من أن يتزوجها، باعها مالك الأراضي المتوحّش لبيتِ دعارة. لكن في ليلتها الأولى هناك، تمكنت من الهرب مع طفلها والعودة إلى قريتها، لا لشيء إلا لتكتشف أن اليابانيين قد احتلّوها. وكي تتفادى المزيد من الوحشية، اختبأت البنت الجميلة وابنها في كهف. مرّ عامان، واستحال شعر البنت الأسود الملبّد الطويل حتى خصرها أبيضًا مثل الثلج.

في النهاية، وقتما استسلمت الفتاة لعيش أيامها وحيدةً مع طفلها في الكهف، وصل الشيوعيون ليحرروا القرية. قُدِّم مالكُ الأراضي المتوحش للمحاكمة، وتجمع الفلاحون يصرخون بُحكم: عقوبة الإعدام!

هلّلت سان سان وغور بجنون وتعانقا.

قال غور: «يا له من عرض! أردتُ القفز إلى المسرح وخنق مالك الأراضي».

لكن أفكار سان سان كانت متوقفةً عند الأب الذي لم يقدر على الاستمرار بالحياة من دون ابنته الحبيبة. تساءلت ما شعور أن يكون المرء ضروريًا بحق، مثلما كان ليام بالنسبة إلى جدتها وأمها، مثلما كان غور بالنسبة إلى الخالة. أن تكون ضروريًا يعني أن تُثمَّن أكثر من كل شيء، يعني عدم الحاجة إلى إثبات استحقاقك أبدًا. لن تكون سان سان ضروريةً بالنسبة إلى عائلتها الحقيقية أو إلى الخالة أبدًا، لكنها تساءلت ما إن كانت تصير ضروريةً شيئًا فشيئًا بالنسبة إلى غور. لم يبقَ غاضبًا منها وقتما عزفت علاماتٍ خاطئة، وذرف دموعًا حقيقيةً عندما تظاهرت بالإغماء.

سألها، ناظرًا إليها بارتياب: «بماذا تفكرين؟»

فقالت: «لا شيء».

ركضا إلى المنزل ليُخبرا الخالة عن الأوبرا، وليَريا ما إن كانت تشعر أنها قادرة على حضور إعادة العرض في ذاك المساء.

وقتما وصلا إلى البناء، دخل غور عبر المقدمة بينما التفّت سان سان إلى الخلف. شدّت الباب مراتٍ ومرات، لكنه لم يتزحزح. لم يكن المطر قد هطل منذ أيام، لذا لا يمكن أن الخشب قد انتفخ منحشرًا بالأرض.

تساءلت ما إن كان شخص ما قد أقفل الباب، وإن كانت لم تقابل شخصًا آخر على هذه الدرجات الخلفية قط.

لم يكن أمامها من خيار إلا استخدام المدخل الأمامي، حيث قابلت مباشرةً السيدة تشان الفضولية في الطابق الأول. صعدت سان سان الدرَج درجتين درجتين، متجاهلةً المرأة التي كانت تصرخ: «أنت، أيها الصبي، لقد رأيتك من قبل. إلى زيارة من أتيت؟ ومن أين أنت؟»، ولحسن الحظ، أبقى عرجُ السيدة تشان الشديد إياها واقفةً على الدرجة السفلى.

على السطح، كانت الأرضية الخراسانية قد كُنست ومُسحت، والبطانيات والمفارش قد دُلّيت على حبل الغسيل، وكانت البُسُط القشية مُسدلةً على الدرابزين لتهويتها.

نادَت سان سان: «خالتي، هل أنت من فعل كل هذا؟»

سمِعَت الخالةَ وغور يتمتمان داخل الخيمة، ثم قالت الخالة: «أمهلينا لحظةً يا سان سان».

قلّبت نظرها في المساحة النظيفة متعجبةً، فقد كان تعافي الخالة إعجازيًّا بحق، وعندئذٍ باغتها الأمر: لم تستخدم الخالة اسم سان سان الأول قط، فبالنسبة إليهما، دائمًا ما كانت «سيو بيه».

انتقلت عيناها بسرعةٍ من بساطها القشيّ المطوي فوق الدرابزين إلى البقعة التي كان يُفرش فيها عادةً على الأرض، فركضت إلى البساط وربّتت كل بوصة منه، لتؤكد ما كانت تعرف أنه حقيقة بالفعل: لم تكن رسائل أمها موجودة.

جفّ فمها وحلقها، وصار جسدها باردًا لكن سال عرقٌ أسفل ذراعيها، وعاجزةً، من دون هدف، دارت حول نفسها آملةً أن يخبرها أحدهم بما عليها فعله.

خرجت الخالة أولًا، ثم اتخذ غور مكانه خلفها، وتدلّت من يده شريطة النسيج المضلّع الورديّ التي كانت تربط الرسائل.

قالت الخالة: «سان سان».

مع وقع اسمها، انهارت ركبتاها وسقطت على دلوٍ مقلوب. هل أرسلا شخصًا ما ليبلغ السلطات بالفعل؟ أكانت الشرطة في طريقها؟

«ألديك أي فكرة عن الخطر الذي تضعيننا في معرضه؟»

راحت سان سان تتأمل الصدع الشعريّ المتعرّج على الأرض. طوال كل هذا الوقت، كانت مركزة على نجاتها الشخصية إلى حد أنها لم تفكّر حقًّا بالمخاطر التي فرضتها على غور والخالة.

«هل فكرت بأي شخص سوى نفسكِ قط؟»

رفعت نظرها، مُحطّمةً. كانت تخشى أن الإجابة هي: لا.

أكملت الخالة: «لقد سمحنا لك بالبقاء لأننا صدقنا أنكِ يتيمة. أخبرتِنا ألّا مكان آخر لديك تذهبين إليه. أتعرفين ما الذي سيفعلونه بنا لتستّرنا على هارب؟»

تشرّبت سان سان كل كلمة من كلمات الخالة، وحبستها عميقًا في داخلها. كانت تعي أنها لا تملك الحق في الردّ.

رفعت الخالة رأسها إلى السماء: «ابنةُ رأسماليين معادين للثورة. يمكن أن نُعدَم. يمُكن أن يُعدَم ابني. هل مرّ ذلك في بالك قط؟»

هزّت رأسها أنْ لا، لأن تلك كانت الحقيقة. أيمكنها التسبب بإعدام آخر حقًّا؟ كيف انتهى بها المطاف تدمّر كل روح حاولت مساعدتها؟ أي سُمٍّ مميت كان يجري في عروقها؟ أي سوداوية مسمومة؟

نطق غور أخيرًا: «ماذا سنفعل يا أمي؟»، وكانت عيناه خافتتيْن وحزينتيْن.

عرفت سان سان أنهما لم يتواصلا مع السلطات، وأحبطها إدراك ذلك تقريبًا، فقد كان جزء منها يتعطّش إلى أن يُعاقَب، أن يُسجَن على

الجزيرة، ويُجبر على كتابة ما يكفي من النقد الذاتي لملء حائط من الموسوعات. كان جزء منها ليتخلى بسعادة عن أي أمل في جمع شملها بعائلتها إن كان ذلك يعني أن تكون وغور والخالة متعادلين، إن كان ذلك يعني أنهما سيسامحانها.

خطَت الخالة خطوةً إلى الأمام متخصّرةً، مشكلة حاجزًا بشريًا بين سان سان وغور، وبين سان سان وهذا السطح الذي كانت تعتبره المنزل.

لم يكن ثمة إلا أمر واحد تملك سان سان تقديمه: أن ترحمهما من أي عذاب إضافي.

قامت عن الدلو وذهبت لتجمع أشياءها، لكن فيما عدا الساعة على معصمها وتلك الرسائل، التي لم تعد ترغب برؤيتها مجددًا، لم يكن شيء في هذا المكان ملكها.

مشت على مهلٍ إلى الباب، موجهةً عينيْها إلى الأمام مباشرةً، مدركةً أنها إذا ما ألقَت أقل نظرة باتجاه غور، فستبدأ بالبكاء.

لمست يدها مقبض الباب.

«سيو بيه».

لم تتمالك نفسها، واستدارت. كانت وجنتا غور محمرّتيْن، وعيناه متسعتيْن قلقًا.

فقالت الخالةُ بهدوء: «دعها تذهب»، فغضّن وجهه وأشاح بنظره.

وحيدةً على الدرَج المُعتم، لم تتمكن سان سان من كبح جماح نفسها، وفاضت الدموع من عينيْها سارقةً نظرها، فوضعت يدها على الجدار، وراحت تتحسس طريقها هبوطًا على الدرَج، خائفةً من أن تتعثر وتسقط على الأرض وآملةً ذلك في نفس الوقت، لأنها آنذاك يمكنها الشتم والعويل والنواح على حالها البائسة، ولن يلومها أي شخص في العالم على ذلك.

31

عزيزتي السيدة أونغ،

قد لا تذكُرين اسمي، لكنني كبيرة الممرضات في العيادة المقابلة للفيلا الماسية. أكتبُ لكِ لأُعرب عن تعازيّ في اختفاء ابنتك. ما زلتُ لم أختبر شعور الأمومة بنفسي؛ لذا لا يمكنني إلا تخيُّل الأسى الذي لا بدّ تعيشينه. ارقدي مطمئنة أن زملائي في قسم شرطة جزيرة درَم ويف يعملون بلا كلل على إيجادها، وأؤمن بالغ الإيمان بأنهم سيعيدونها سالمة إلى المنزل.

في الوقت الحالي، أردتُ مشاركتكِ واقعة مثيرة للاهتمام وقعت بينما كنت في شيامن البارحة. كنت أتنزّه في منتزه بيبلز وقتما سمعت موسيقا في منتهى السحر يؤديها أخوان. كان الصبي يعزف على الأرهو، والبنت على الأكورديون، وكان لكليهما صوت غنائي مليح. لم تكن البنت في نفس سن ابنتك وحسب، بل كانت كذلك تشبهها شكلًا شبهًا بالغًا. (وإن كان من غير الممكن، من دون شك، أن تكون هي). في منتصف الأداء، أُغمي على البنت بسبب التجفاف، أو ربما بسبب انخفاض سكر الدم (كلاهما ليس حالة خطِرة). بعد أن اعتنيتُ بالبنت، رافقتُ الطفلين

عودًا إلى منزلهما. أسرتهما فقيرة لكنها مفعمة بالحب، وبدت البنتُ سعيدة وراضية.

أحكي لك كل هذا على اعتباره وسيلة لقول أينما كانت ابنتك، أنا واثقة أن واحدة من الأرواح الطيبة الكثيرة في أمتنا المجيدة قد احتضنتها وسوف تعتني بها ريثما يصير إرجاعها إلى المنزل ممكنًا.

آمل أن صحة زوجك قد تحسنت، وإنني منتظرة عودتك وعائلتك إلى أرض الأجداد بفارغ الصبر.

زميلتك الرفيقة،

الممرضة هو.

لم تكن الممرضة، وهي مجرد معرفة سطحية، موجودة في القائمة الطويلة من الأصدقاء والجيران التي كتبت إليهم سوك كون محاولةً استجداء أخبار سان سان. كانت سوك كون مدركة تمامًا المجازفة الخطرة التي حملتها الممرضة على عاتقها بوثوقها بصديق ليحمل هذه الرسالة عبر الحدود، ومن هناك، عثرت الرسالة على طريقها إلى الجمعية الفوجيانية وإلى يديْ واحد من أصدقاء بي كيم في الماه جونغ، السيد إنغ الذي أوصلها إلى الشقة بنفسه.

كان ينبغي أن تكون سوك كون ممتنةً لكل هذا، ممتنة لأن هذه المرأة التي بالكاد تعرفها تكبدت كل هذا العناء لتُبلغها هذه الرسالة، ممتنةً لأن ابنتها على قيد الحياة.

ومع ذلك، كان رأسها يعجّ بالأرقام والحسابات وماذا لو كذا ولمَ لا كذا. ما احتمال أن الممرضة قد صادفت سان سان لا طفلًا يشبهها؟ أمِنَ الأفضل للمرء أن يعرف أن ابنته حيةٌ وبعيدة إلى الأبد أم ألّا يعرف شيئًا البتة؟ أيمكنها تمزيق عائلتها إلى نصفين والذهاب للبحث عن ابنتها؟

أكانوا عائلةً حتى من دونها؟ أخبرت سوك كون نفسها أنها في النهاية ستتمكن وسان سان من الوصول إلى هونغ كونغ، لكن كم سيستغرق ذلك؟ شهورًا، ربما سنينًا؟ سيكون ابنها رجلًا حينما تراه المرة القادمة؛ وسيكون قد تعلم النظر إليها بازدراء أبيه. ربما كان ذلك ثمنًا عادلًا تدفعه لتحظى بكلا طفليها إلى جوارها، لكنها خاطرت أيضًا بأن ينتهي بها المطاف من دون شيء، من دون أحد. لمن ستوجه شكواها آنذاك؟ مِن مَن ستطلب التعويض؟

مزّقت الرسالة إلى نصفين، ثم النصفين إلى نصفين. قطعتها بانتظام إلى قطع أصغر فأصغر حتى لم تعُد أكبر من إبهامها، حتى اطمأنت أن لا أحد قادر على تجميع الرسالة مرة أخرى. لم تكن قادرة على مواجهة معادلة أخرَى مستحيلة الحل، مأزقًا متعذرًا آخر.

32

قضت سان سان أيامًا تجوب المرفأ، وتنقضُّ على فتات الطعام التي لم يتكبد الباعة عناء كنسها، حريصةً على ألا تبقَى في البقعة نفسِها وقتًا يكفي لجب انتباه دوريات الشرطة، وكانت في الليالي تتسلل خلسة إلى مؤخرة المبنى وتنام على عتبة الدرَج الخلفي، آملةً سرًّا أن يأتي غور بحثًا عنها.

لكن الشخص الوحيد الذي جاء لأجلها كانت السيدة تشان، التي وكزتها بقبضة المكنسة موقظةً إياها. وعندما وثبت سان سان واقفةً، قبضت السيدة تشان على ذراعها: «ربما يمكنك الاحتيال على مجلس التسجيل المدني، لكنك لن تحتالين عليّ».

وقبل أن تتمكن سان سان من معالجة ما كانت موشكة على فعله، أرجعت يدها الحرة، واستجمعت طاقتها، ولطمت المرأةَ على وجهها، فصرخت السيدة تشان وتركتها، وركضت سان سان مبتعدةً، من دون أن تركز على وحشية أفعالها، ولا على الثخانة المطاطية الغريبة للحم المرأة.

في الخارج، بطّنت السحبُ الكثيفة السماء، وكان الهواء مثقلًا بالرطوبة. لم تكن قد ركضت أكثر من بضع خطوات وقتما ضربت قطرات المطر البدينة تاجَ رأسها كالبِليات؛ فغطّت رأسها بيديْها؛ ما أبطأها إلى حد كبير، حتى صار عدم جدوى ذلك واضحًا، فأخفضت يديْها وتابعت الركض، وقطرات المطر الشديدة تلسع عينيْها وتغرّق شعرها وثيابها.

في المرفأ، ربضت في إحدى زوايا القاعة الرئيسة محاولةً اعتصار كنزتها ورجليْ بنطالها، فظهر رجل شرطة يلوّح بهراوته أمامها: «اغرُب. لا يمكنك المكوث هنا».

هرعت راجعةً إلى المطر، وخمّنت أن مسؤولًا مهمًّا سيصل إلى المرفأ. وإلا لمَ كانت منطقة الانتظار مرتبةً للغاية، والأرضية نظيفة جدًّا وخالية تمامًا من فتات الطعام الصالح للأكل؟

وبينما تتهادى أمام صفٍّ من الزوارق، تمنّت أن يمدّ صياد سمك ما رأسَه من النافذة ويدعوها لتدخل لبعض الوقت، وربما يُقدم لها لُقيمة تأكلها، لكن كل المصاريع كانت مغلقة في وجه هذه الزخة المطرية، ما خدمها خدمةً حسنةً نظرًا لكونها سرقت قاربًا من واحد منهم، فدسّت يديْها في جيبيْها وتابعت المشي.

استقرت على عتبات متجر منزليّ مهجور في الجانب الآخر من جادة الميناء الواسعة، وما إن استراحت حتى اغتمرها ألم عميق ناشئ عن رأس معدتها، فسقطت على جنبها ممسكةً ببطنها، متسائلةً عما إذا كان هذا ما يشعر به المرء حين يموت. ومرت لحظات قبل أن تستنتج أنها لم تكن تموت، إنما كان الألم جوعًا عميقًا شرسًا.

وهي تنظر إلى المدينة المنقّعة التي تلعب فيها الريح، شدّت ركبتيْها إلى جذعها، كما لو كان بوسعها خداع جسدها بطريقة ما ليظنَّ أنها

قد ملأت الفجوة الفاغرة، وعندما استمرّ الألم، خرجت من تحت طنوف المتجر، ورفعت وجهها إلى السماء، وراحت تبتلع المطرَ وَخْليَّ الطعم، بلعةً بعد بلعةٍ، حتى تمدد جلدُ بطنها وصار مشدودًا، ثم عادت واستقرت على الدرجات لتنتظر. كل ما فعلته في هذه الأيام كان الانتظار.

ملأ طنين الزمامير الهواء، وأسرعت سيارةٌ طويلة سوداء تحيط بها رُباعيّة دراجات نارية من كل جانب عبر الجادة باتجاهها. وصل المسؤول المهم.

توقفت الموكب عند إشارة المرور، مانحًا سان سان نظرةً جليّة على الرجل المهيب المُهندم في المقعد الخلفي. لا شك أنه كان يُسرع به إلى مأدبة فاخرة. لم تستطع منع نفسها من تصوّر الأطباق البديعة التي تنتظره: بطة محمّرة هشّة، وخضراوات غضّة برائحة الثوم، وصحونًا لا نهائية من الأرز الأبيض المنتفش.

حدق المسؤول بلا اهتمام من نافذته، ولم يبدُ أنه رآها، لكنه بعدئذٍ انحنى مبتعدًا وقال شيئًا ما لمُعاون وأشار إلى سان سان مباشرةً، ففكّرَت بالانكماش متراجعةً، إخفاض رأسها، إخفاء نفسها. وبدلًا عن ذلك، ردّت على تحديقته بمثلها.

عادت إليها ذكرى بعيدة: وقتما طالبت بالتوقف عن حضور دروس البيانو مثل أخيها، وركلت مزهرية من أغصان الصفصاف الهرّي وواجهت أمها من دون خوف. كان آنذاك أنْ قالت لها أمُّها أنها أكثر قُبحًا من أن تجد زوجًا، وانفجرت باكيةً، لا لأنها اشتهَت أن تكون أجمَل، بل لأنها لم تكن تعتقد أن مظهرها مهمٌّ لأمها.

استحالت أضواء الإشارة خضراء، وتحرك الموكب. لم يكن لدى المسؤول المهم سببًا ليولي أي اهتمام إضافي لطفلة رثة تشبه قليلًا بنتًا مفقودةً على ملصق منسيٍّ على جدار سوق جزيرة ضئيلة.

أخيرًا، تباطأ المطر وقطّر حتى توقف، فعادت سان سان إلى المرفأ. في الفترة الوجيزة التي انقضت مُذ وصل المسؤول، كانت القاعة الرئيسة قد عادت إلى حالتها الفوضوية الاعتيادية. تبعثرت على الأرض الأوراق وأعقاب السجائر بالفعل، وتلطّخت بالبُصاق والبلغم. أعاد باعةُ الطعام تعليقَ بضاعتهم مجددًا، مالئين الجو برائحة الدُسُومة السماوية، لكنها لم تتمكن من إيجاد فتاتٍ صالح. فانتشَت بدلًا عن ذلك بأعواد العجينة المقلية، وقشورها الدُرّية ذات اللون البنّي المُذهّب. استنشقت بعُمقٍ وشعرت بالخواء في بطنها يتّسع.

قال البائع: «كشّ! للزبائن دافعي المال فقط».

انسلّت سان سان عائدةً إلى ركنها. لم يطاوعها قلبُها أن تردّ بأنه على حد علمها، لطالما كانت الروائح مجانية.

وعندئذٍ، تدفق صوت أوتار أرهو من الطرف المقابل من القاعة، وغنى صوتٌ مألوف بصورة مؤلمة وجديد على نحو غريب: «نصف قمرٍ يرتفع في السماء».

كيف تغير صوت غور بهذا الشكل الدرامي خلال بضعة الأيام التي افترقا فيها؟ لم يعُد صوته السوبرانو النقيّ الحزين لصبيّ، بل صار الفالسيتو العميق المبحوح قليلًا لرجل. ومثل فاكهة بلغت أوج نضوجها للتوّ، كان صوتًا ساحرًا إلى حد يكاد يكون لا يُحتمل.

عندما اقترب غور من نهاية المقطع الأول، توترت يدا سان سان لا إراديًا مستعدةً لدورها، وحرّكت أصابعها على أكورديون تخيُّليّ، ولدهشتها، ملأت النغمات المتناغمة مع ذلك أذنيْها، فمدّت عنقها لترى الطرف الآخر من القاعة، وهناك، واقفةً بجوار غور وأكورديون سان سان مربوط إلى جذعها، كانت الخالة.

راح منفاخ الأكورديون ينتفخ ويُفرغ بين ذراعيْ الخالة النحيلتيْن في رقصة رقراقة لذيذة، ونظرت الأم والابن إلى بعضهما بينما اندمج صوتاهما في هارموني: «يا حبيبتي، استعجلي أرجوك، افتحي النافذة واقطفي وردةً وارمها بلُطف».

رأت سان سان أنها لم تكن إلا بديلًا مؤقتًا رديئًا، وموهومًا علاوةً على ذلك، فقد كانت هذه العائلة كُلًّا واحدًا كاملًا، ولم يكن هناك أي مكان لها قط.

خرجت من القاعة الرئيسة وظلت تمشي حتى لم تعد الموسيقى تصل إلى أذنيْها، وجلست لتستريح بقرب كومة قمامة غير بعيدة عن المراحيض العمومية. داهمت الرائحة الزنخة منخريها وأفقدتها توازنها. حتى رجال الشرطة كانوا سيضطرون إلى الموافقة على أن وجودها هنا لم يزعج أحدًا.

عند الغروب، أقبل ثلاثيٌّ من الفتية الشرسين ذوي المظهر البهيميّ يتسكعون باتجاه الكومة. أكبرهم صبيٌّ يبدو بعمر سان سان تقريبًا، والأصغر ربما لا يتجاوز الثالثة أو الرابعة. ظنت سان سان في البداية أنهم قد لمحوها من بُعد وأرادوا التكلم معها، لكنها بعد ذلك راقبتهم بذُعرٍ وهم يغامرون بدخول الكُدسة المتعفّنة مباشرةً وينقّبون بين القمامة عن أي شيء صالح للأكل ولو قليلًا.

على الرغم من أن الرائحة لم تعُد تضايقها، تشنّجت معدتها، وأشاحت بنظرها، عازمةً على الصمود يومًا إضافيًّا، على اختيار الموت جوعًا على أكلِ الزبالة.

قال أكبرهم: «لم يبقَ شيء جيد، لا بدّ أن أحدهم قد وصل إلى هنا قبلنا»، ونظر إلى سان سان، فانكفأت، لا رعبًا، لكن صدمةً من أنه اعتبرها واحدة منهم.

انتهى بها الأمر على شريط الرمال المكسوة بالحصاة بجوار المياه، تذرعه جيئةً وذهابًا، خائفةً من أن تغفوَ وتتسبب باعتقالها إذا ما جلست لتستريح. ظلّت تمشي وقتًا بدا ساعات، حتى تورّم كاحلاها إلى ضعف حجمهما وندّبت قدميْها البثور. صار جوعها بحلول هذا الوقت مستفحِلًا، وبدا أنه لا ينبع من أحشائها، بل من مكان أعمق، من لبِّ عظامها؛ وكان عليها إيقافه. سقط ذقنها على صدرها، ومشَت كما لو كانَ من غير هدى، عاجزةً عن الاعتراف إلى أين هي ذاهبة.

وقتما التفّت حول المراحيض، رأت نفس الصّبية يُخيّمون بجوار كدسة القمامة. كانوا قد أشعلوا نارًا وراحوا يركلون قطعة نفاية ذهابًا وإيابًا في وهجها، فاقتربت منهم بخوف شيئًا فشيئًا.

قوّس الصبيُّ كتفيه وتخصّر: «أنت مجددًا!».

وقفت سان سان بأقصى ما أمكنها من استطالة: «إنني أتمشى وحسب، وفي آخر مرة تحققتُ، لم يكن هذا الطريق ملكك».

انضمّ الأخوين الأصغرين إلى أخيهما، وقال الصبي ساخرًا: «امشِ أينما يحلو لك. لكن ابتعد عن زبالتنا».

نظرت بتلهُّفٍ إلى الكومة النتنة، والتي لم يُحدد معالمها إلا ضوء النار الخافت، والتقطَت عيناها خفق حركة على قمة الكومة قبل أن يعقِل دماغها أن ما كان منتصبًا أمامها هو كدسة ملتوية من الجرذان.

انطلقت الزعقةُ ذائبةً وقاتلةً من داخلها، واستدارت فارَّةً يمنعها تقززها من الرد على الضحكة الجامحة الخبيثة التي طاردتها.

33

من بيْن كلّ الكتب المصورة القائمة على رف كتب ليام في غرفته القديمة في الفيلا، كان الذي يتوق إلى تقليب صفحاته الآن هو *الصبيُّ الذي هزم جيشًا*. يروي الكتابُ قصةَ صبيٍّ من عمره تمكّن بمساعدة جهازِ طفوٍ مُرتجلٍ - صُمم عبر ربط بنطال لباسه الرسمي والنفخ فيه - من السباحة دون أن يُلحَظ إلى سفينة عدوه وإضرام النار فيها.

حدق إلى المطر الآخذ بالنقر على زجاج النافذة، نادمًا على كل المرات التي وبّخ فيها أخته لسرقتها الكتاب وتجعيدِها صفحاتِه. أكان منذ شهريْن فقط أن طرقت بابه في منتصف الليل لأنها حلمت حلمًا مزعجًا؟ وبدلًا عن السماح لها بتسلق السرير، ركل مفرشه طارحًا إياه على الأرض وجعلها تستلقي عليه! أصرّت أمه أنْ سيجري إيجاد سان سان، لكن في حين كانت هي والجدة تصرخان في الهاتف وتقذفان بعضهما باتّهامات مبطنة، كان هو الوحيد الذي يقوم بفعل حقيقيّ.

في الأسابيع الماضية، كان وأصدقاؤه قد خططوا لرجعتهم إلى البر الرئيسي. التقوا في منزل لي آن ليدرسوا ويناقشوا النشرات المحتوية آخر خطابات الرئيس ومقالاته، والتي حصّلها تيك من شيوعي متخفٍّ

في جامعة هونغ كونغ، ثم عادوا إلى منازلهم ليسرقوا مبالغ ضئيلة بالكاد تُلحظ من المال من أفراد عوائلهم ليدفعوها أجورًا لقطارهم. وعندما كان ادّخار المال بطيئًا جدًّا، عمل فاتي في مكتبة في شيونغ وان ونذر كامل راتبه للقضية، واحتال ليام على جدته لتمنحه مبلغًا ضخمًا من المال من أجل أجور المدرسة الصيفية، ورهنت لي آن خاتمًا من الياقوت كان أهلها قد أهدوها إياه في عيد ميلادها الخامس عشر، وأخيرًا، بلغوا هدفهم.

كانت الساعة على المنضدة تشير إلى الخامسة والربع. بحلول الوقت الذي سيضرب فيه الإعصار – بعد ظهر ذلك اليوم وفقًا لنشرة الأخبار المسائية – سيكون ليام قد عاد إلى البر الرئيسي لينضم إلى الثورة، وما إن يتسلّم منامته وواجباته المدرسية، سيطلب الإذن للعودة إلى الجزيرة واكتشاف ما حلّ بأخته. لا شك أن الجيران والخدم سيمتلكون معلومات مهمة لم يتمكن الكبار من الحصول عليها من هذا البُعد.

جذب معطفه المطري وجزمته المطاطية وألقى حقيبته على كتفه، ثم أعاد قراءة الخطاب الذي كان قد كتبه قبل دقائق وتركه مخيّمًا على مخدّته.

في الردهة المعتمة، توقف ليام قليلًا أمام غرفة جدته، وظنّ حينما رصّ أذنه على الباب أنه تبيّن شخيرها الخفيض المقرقر من هذه المسافة، وكان مطمْئِنًا مثل خرخرة قطة. على الرغم من أنه قد بذل قصارى جهده لتوضيح أفعاله في خطابه؛ كان يعرف أن لا شيء مما كتبه سيحملها على تصديق أن كذباته وخياناته لم تكن ضدها ولا متعلقة بها، وكان آسفًا بحقّ لهذا. يا ليتها كانت قادرةً على رؤية ما يرى: أن الثورة أكبر بكثير منه ومنها ومن بقية العائلة.

أسرع خارجًا من الباب الأمامي، وطنّ جرس المصعد وقتما فُتح ليخرجه في البهو، مُجفلًا الحارس الليلي الذي كان غافيًا وذقنه متكئ على يده.

فرك الحارس عينيْه: «إلى أين ذاهب في هذا الوقت المبكر من الصباح؟»، ولطم رأسه بسدارته لابسًا إياها.

أجاب ليام على الفور: «إلى تمرين كرة القدم».

انسلّ ليام من الباب قبل أن يتمكن الحارس من الإشارة إلى أن لا شخص سليم العقل سيحتمل التمرين في هذا الطقس. كان الشارع الضيق المتعرج خاليًا، والدوشة الوحيدة صادرةٌ عن المطر الضارب على قلنسوة معطفه. راح يمشي بنشاط قافزًا فوق برَك المياه، وهزيم الرعد فوق رأسه، فانكمش خوفًا ثم شعر بالخزي. لن يُظهر الصبيُّ الذي هزم جيشًا جُبنًا كهذا أبدًا.

حتى وسط المدينة كان هادئًا هدوءًا مخيفًا، وكانت الباصات وعربات الترام المترنّحة عبر الشارع المشجر صناديقَ جوفاء من الزجاج والصلب. لا بدّ أن العناقيش[1] الذين عادة ما كانوا يسدّون أقسامًا كاملة من الرصيف ليبيعوا خثارة دم الخنزير قد قرروا التأخر في النوم، وبدت الخيام المتقلقلة المشيدة من صفائح الألومنيوم وأكياس الخيش عرضةً لخطر الطيران مع الريح في أي لحظة.

بينما انتظر ليام ليعبر الشارع، رأى امرأةً مهزولة ترفع غطاءً من البلاستيك المُشمّع عن أربع أطفال رثي الهيئة نائمين من رؤوسهم حتى أخامص أقدامهم على الأرض مباشرةً، فعبسَ الأطفال وغطوا وجوههم وصاروا يرمشون تحت المطر باضطراب. هنا، أمامه تمامًا، كان ثمة

(1) العِنْقاشُ: الذي يطوف في القرى يبيع الأشياء، وجمعها عناقيش

دليل حيّ على شرور الرأسمالية. انظر! كيف يدلل الأغنياء – بما فيهم عائلته – أنفسهم خلف بوابات عالية وفي أبراج شاهقة، بينما يعاني الفقراء على بُعد خطوات فقط! تاق إلى أخذ أولئك الفتية من أيديهم وجرهم إلى المحطة، كان ليقول: «الجنة على الطرف الآخر من الحدود وحسب. سيعتني الحزب بكل احتياجاتكم، وستطول قامتكم وتصيرون أقوياء».

على عكس بقية المدينة، كانت محطة القطار في حالة من الفوضى، كما لو أن كل سكان هونغ كونغ قد هبطوا عفويًا إلى هذه البقعة الواحدة. كان المسافرون الجارُّون حقائب ثقيلة يهرعون بكامل سرعتهم من أقصى القاعة إلى أقصاها ويناشدون عملاء التذاكر ليتمكنوا من ركوب القطار الأول، ويندب بعضهم لبعض أن عليهم العبور بأي شكل قبل أن يُغلق كل شيء. كان ثمة عمال ذوو سواعد مفتولة العضلات يُمررون صناديق ثقيلة على طول سلسلة بشرية لامتناهية، ويبدو للناظر أنهم غافلون عن المطر المنهمر على وجوههم، وعتالون يرتدون بذلات رسمية ويدفعون عربات قطر مكدسة بالأمتعة يحاولون شق طريقهم بين أسراب الناس، ومجموعة من عمال البناء الجاثمون بجانب كشك شاي، يرشفون من كؤوس صفيحية يتصاعد منها البخار ويدخنون السجائر بينما ينظرون إلى السماء. تمتّع ليام بالنشاط، ولم يرغب بأي شيء من حياة أهله العريقة المنزوية، فقريبًا سينضم إلى غمرة العمال النابضة، المتعرّقين والناخرين واللاهثين كأنهم واحد. قريبًا سيصير نافعًا.

راح يتمايل بين الحشود حتى وصل إلى كشك الصحف عند نهاية المنصة، نقطة التقائهم المُحددة. كانت لي آن وتيك هناك بالفعل، قابضيْن على بطانيتيْن سميكتيْن مطويتيْن فوق صدريْهما. أخلى جذل ليام السبيل أمام نذيره، فقد نسي بطريقة ما مِفرشه، الشيء الوحيد

الذي طُلب من جميع الطلبة الخارجين إحضاره. تساءل عما إذا كان ثمة وقت كافٍ لركوب تريشو والعودة إلى الشقة، وكيف سيتفادى الخدم الذين كانوا مستيقظين من دون شك. كان ليطلب نصيحة أصدقائه، لكن إيماءات تيك الجامحة وسحنة لي آن الحزينة أبطآه. ما الذي يمكن أن يتجادلا بشأنه الآن؟ حتى في خضم سحابة قلقه، استحبّ ليام كنزة لي آن وبنطالها البسيطيْن باللون الأزرق البحري، الواضحين تحت معطفها المطري المفتوح. ما كان ليبدو مبتذلًا على أيٍّ غيرها، كان يبدو عليها عفويًا، وأنيقًا. كان قادرًا بالفعل على رؤية صورتها في صحيفة *بيبلز ديلي* فوق تعقيب: «طالبة خارجية قدوة ترجع إلى أرض الآباء». رُبما يُصوِّر أربعتهم معًا.

صرخ تيك: «ها أنت يا ليام! لقد جاء، إنه هنا، لقد جاء!»

لم يعرف ليام لمَن كانت هذه الطمأنات موجهة.

قالت لي آن وهي تلوّح له بالمجيء: «الحمدلله».

نظر ليام إلى ساعته، كان متأخرًا خمس دقائق فقط: «لم يأتِ فاتي بعدُ حتى».

تجهم وجه تيك.

رمَت لي آن نظرةً إلى تيك وقالت: «حسنًا يا ليام، سنكون نحن الثلاثة فقط».

سأل ليام: «ماذا تقصدين؟»

بصق تيك على الأرض: «تقصدُ أن فاتي جبان، رعديد تافه».

طوت لي آن بطانيْتها إلى نصفين مرةً أخرَى، وحشرتها تحت إبطها.

وقالت: «انظر، فاتي انسحب ولستُ ألومه، فليس الكل مخلوقًا لهذا. 'الثورة ليست حفلة عشاء'، صحيح؟»

لم يتمكن ليام من تسكين تهدُّج صوته: «متى غير رأيه؟»

قالت لي آن: «ليس مهمًا متى».

وقال تيك: «البارحة».

فزنَّرت بعينها إلى تيك: «المهم أن ثلاثتنا جاهز وملتزم».

قال ليام: «صحيح»، لكن شيئًا ما بداخله كان على وشك الانفجار. هل وجدت أمه الخطاب؟ هل اتصلت وجدته بأبيه؟ ربما بالشرطة حتى؟ أكانوا يحثون الخطا إلى المحطة ليمنعوه من ركوب القطار؟ تساءل عما إذا كانت الشرطة تتمتع بالسلطة التي تخوِّلها إيقاف كل القطارات المغادرة.

سوّت لي آن البطانية فوق الحقيبة بجوارها على الأرض ووضعت كلتا يديْها على كتفيْ ليام. مسّت سبابتها عنقَه برفق، وكل ما أمكنه التفكير فيه كان ثقل راحتيْها، وبرودة جلدها.

قالت: «يسرّني أنك جئتَ بدلًا عن فاني».

انطلق قطارٌ مسرعًا عبر السكة، ودوّت صفارته.

فقال تيك: «هيا بنا، هذا قطارنا».

تبع ليام رفاقه إلى الحشد، لكن عيناه تحدّتا دماغه، وراحتا تمسحان المحطة الطرفية بحثًا عن وجه أمه الشاحب المسعور تحت شعرها المتداخل الذي لم تكن لتحظى بوقت لتمشيطه. سمع لي آن تسأل عما إذا كانوا يظنون أن ممثلًا للحزب سيستقبلهم في محطة غواندونغ، لكنه لم يلتقط إجابة تيك.

زجّ مجموعة من الطلاب المتمسّكين ببطانياتهم أنفسهم أمام ليام، وكان يتبعهم من كثب زوجان غربيان متشحيْن بقميصيْن وبنطلونيْن مُهلهليْن من مقاس غير ملائم. نادت لي آن ليام ليبقى ملازمًا إياهما.

فصاح ردًّا: «إنني أحاول».

ارتطمت امرأة تحمل طفلًا نائمًا مربوطًا إلى صدرها بكتفه، في حين اقترب شاب يسندُ عجوزًا بعُكاز منه من الطرف الآخر، فتراجع ليام وتركهم يمرون.

توقف القطار، واندفع الجميع إلى الأبواب، ولم يكن أمامه من حلٍّ إلا الاستسلام للزحمة. غاب قفا رأس لي آن عن نظره، ولكزَ رأسٌ حادٌّ لمرفقِ أضلاعه، وكشط أخمص حذاء كعبه. وهو يصعد إلى القطار، زلّت قدمه على الدرجات التي زلّقها المطر وسقط على رجُلٍ، فشتمَ وأخبره بأن ينتبه إلى خطواته، وبدلًا عن التحرُّك إلى بطن القطار، وقف ليامٌ على الدرجة العليا مسطحًا جسده قبالة الدرابزين المعدني الرقيق.

قال أحدهم: «ما هذا بحق السماء!»، ومرّ متجاوزًا إياه.

وقال آخر: «توقف عن سدّ الباب اللعين».

زجّ ليام نفسه إلى الدرجة الأدنى، ثم شد قبضته على الدرابزين ورفع نفسه من فوقه إلى خارج القطار. وهو ينظر مضيِّقًا عينيْه إلى القطار، كان متأكدًا تمامًا أنه رأى قلنسوة شعر لي آن اللامعة من النافذة الأقرب، فصرخ: «لي آن، لقد نسيتُ مِفرشي، لي آن!» كان ذلك الشيء الوحيد الذي أمكنه التفكير بقوله.

قالت امرأة، وهي تضرب جانبه بحقيبة كتفٍ ضخمة مبللة: «ولد مجنون!».

لم تُجب رفيقته.

«لي آن!»

صفَّر القطار، معلنًا عن مغادرته الوشيكة.

وصاح الناس الذين ظلوا على المنصة: «إلى اللقاء! بالتوفيق!»

شدّ ليام نفسه عودًا إلى القطار، زارعًا قدميْه بأقصى ما يستطيع من ثبات على الدرجة السفلية الزلجة.

بدأ القطار يتسارع، وتعاظم تلويح الناس على المنصة. حتى الملأى عيونهم بالدموع منهم بدوا سعداء وهانئين على نحو غريب. ما أن يغادر القطار المحطة، سيسرعون إلى منازلهم ويبدلون بثيابهم ثيابًا جافة ونظيفة، ويملؤون معداتهم بالشاي الساخن والكعكات المطهوة بالبخار.

نادت امرأة، واتسع فكها ليكشف عن أضراس ذهبية: «لا تنسي الكتابة يا كنزي الصغير!»

تابع القطار التسارع، ووراء المنصة، هاج المسافرون وماجوا حول قاعة الانتظار، وتبيّن ليام شكلًا عكشًا يركض عبر المدخل الرئيس، وفمها فجوةٌ كهفيّةٌ أسفل عُشّ شعرها المنفلت. فانتفضَ قلبه، وأغلق عينيْه، وترك الدرابزين وقفز.

خبطت قدماه بعنف على الخرسانة والتوى كاحله الأيمن، مسقطًا إياه متشقلبًا على جانبه. ملأت الصرخات أذنيه واحتشد الناس حوله.

«هل أنت بخير؟»

«أأنت مجنون؟»

«أي نوع من الألعاب البهلوانية كان هذا؟»

مقويًا نفسه على الألم، نهض ليام وشق طريقه بين الحشد متجاهلًا أسئلتهم وإهاناتهم. مشى مرتين وهو يعرج كامل امتداد قاعة الانتظار، لكنه لم يجد أمه في أي مكان. ربما كان قد استحضرها في رأسه، وربما رأى شبحًا.

34

كانت السماء ما تزال مُعتِمةً وقتما تسلّقت سان سان، عمشاءَ ومنهكةً حدّ الهذيان، الجسرَ لتتتبَّع السفن الواردة. لم يغادرْ قاربُها المرفأ في المرة الماضية حتى أواخر الصباح، لكن لم يكن بمقدورها المجازفة بتفويته مجددًا.

بالكاد أمكنها في البدء التفريق بين نهاية السماء وبداية المحيط، لكن مع اشتداد خيوط الصباح، راحت تفحص كل مركب يقترب، من زوارق الصيد المتواضعة الجرداء حتى سفن الشحن مفرطة الحجم التي بدت مثل أبراج واقعة على أحد جانبيْها. لم تُرفرف من أيّها رايةٌ خضراء.

بعدما أشرقت الشمس فوقها مباشرةً، وصار ظلها شكلًا رابضًا يُحيط بقدميْها، بدأت بالتساؤل عما إذا كانت قد أخطأت التاريخ، أو كان طالب الجامعة ذو قلادة الصليب قد لخبط في جدول مواعيد القارب، أو إن كان القارب قد غير مساره. اتضح لها أن هناك عددًا لا متناهيًا من الأسباب لاحتمال عدم مجيء قاربها أبدًا، ومع ذلك، ظلّت ملتصقةً بالخرسانة الملتهبة.

على رقعةٍ من العشب الأصفر تحتَ الجسر، تراكلَ بعضُ الصِّبيةِ كرةَ قدمٍ، وجلست حلقةٌ من النساء يُصلحن الملابس. وبعد ساعاتٍ تحت الشمس الضاربة، صار ظمأ سان سان وحشًا هادرًا حرونًا، لكنها لم تجرؤ على مغادرة مكانها. تدفق عمالٌ يرتدون بذلات رسمية مغادرين المعامل ومواقعَ العمل متجاوزينها، وهبت نسمة باردة منحتها قدرًا ضئيلًا من الإنعاش. انتظرت وانتظرت حتى منعتها العتمة من فك رموز ألوان الرايات على آخر بضعة قوارب طافية، وآنذاك استدارت أخيرًا واتجهت ناحية كومة القمامة. إن حالفها أي حظ، سيكون الأولاد البهيميون قد انتقلوا.

بينما كانت تدلف عبر الممر غير المضاء باتجاه المراحيض، تعثرت بحجر وتفادت بشق الأنفس السقوط في بِركة مستنقعية نتنة. رشّ الطين وجهَها، وصرخ إصبعُ قدمِها المضروب ألمًا. دارت حول نفسها باحثةً عن أي شخصٍ أو شيءٍ لتلقي اللوم عليه، لكن هنا في الظلام لم يكن ثمة إلاها. حتى أولئك الأولاد بجوار كومة القمامة كان لديهم بعضهم، حتى الفتاة بيضاء الشعر كان لديها طفلها، حتى بائعة الكبريت الصغيرة كان لديها أعواد ثقابها.

هدهد عويل بوق سفينة سان سان أكثر في بؤسها. كم كانت منهكة. لمَ لا تستسلم وتنهار هنا تمامًا، وتترك الوحل يرشح عبر مسامها، تترك الأرض تحمل ثقلها. صدح البوق ثلاث مرات إضافية في تعاقب سريع، فاستدارت ناحية ندائه، ومن ثم مشَت بصعوبة عودًا إلى المرفأ، متحركة بأسرع ما قدرت ساقاها المتورمتان وقدماها المجرحتان على حملها به.

وصلت في الوقت المناسب تمامًا لتشاهد سفينتها – عملاقة مثل قلعة، وترفرف عليها راية خضراء – توغل عبر المرفأ من دون إبطاء،

فركضت خلفها برغم ذلك، لم يكن الوقت قد فات لتركض وتقفز وتغوص في المحيط كدولفين، ومن ثم تسبح للنجاة بحياتها.

توقفت فجأةً عند حافة الرصيف، كان اثنان من عمال الموانئ ينظرون إليها.

قالت: «تلك السفينة، تل التي تحمل راية خضراء، لمَ لم تتوقف؟»

تبادل العمال نظرة: «لا بد أنه تغيير في المسار».

«كيف يمكن ذلك؟ لمَ مرّت من هنا إذًا؟»

هزّ واحد من الرجلين كتفيْه وقال: «وفّري أسئلتكِ للرئيس»، وقال الآخر نصف ضاحكٍ: «والآن كشّ، لدينا عمل نقوم به».

اقتربت من الرصيف سفينة شحن أخرَى، أصغر من تلك التي غادرت وتركتها، لكنها ما تزال هائلة، فمشَت مبتعدةً، تجرّ النعال المطاطية المهترئة لحذائها القماشي على الأرض. كانت لتمشي كل الطريق عائدةً إلى الجزيرة لو كان ذلك ممكنًا فقط، كل الطريق وإلى الشرطة مباشرةً، وإن أرسلوها إلى معسكر عمل قسري، فعلى الأقل لن تكون وحيدةً، على الأقل يمكنها التوقف عن الاختباء أخيرًا. تساءلت عما إذا كانوا ليسمحوا لها برؤية كوك وموي مرةً أخيرة: أليسا أقرب ما تبقى لها من العائلة؟

برزت صورةٌ في ذهنها: هي مستلقية على وجهها في سريرها، وأمها جالسة بجوارها، تقسم أنهما لن تفترقا إلا بضعة أيام. قطعت الذكرى أنفاسَها، فانكبّت على الأرض خلف جدار من الصناديق الخالية التي أنتنتها رائحةُ السمك.

حتى آنذاك، شعرت سان سان أن أمها كانت تكذب، وتحاول الظهور أكثر ثقة مما كانت عليه. لمَ تركت عائلتَها تغادر؟ لمَ لمْ تقاوم وتفتعل شجارًا على الأقل؟

ثم عرفت الإجابة: لم يكن ثمة شيء يمكنها قوله من شأنه أن يغير رأي أمها. أمها هجرتها لأنها أحبت ليام أكثر، كانت تلك الحقيقة البسيطة. لطالما عرفت سان سان قدْرها مقارنةً بأخيها، ومتأكدة من ذلك كتأكُّدها من اسمها. لكن بطريقة ما، في خضم معمعة الأسابيع الماضية، غابت هذه الحقيقة الثابتة عن بصرها، وبطريقة ما، بسبب كل ما قاسَته ورأته، أقنعت نفسَها بأنها تستحق أكثر.

آن أوان الذهاب إلى المنزل حقًا.

خلف جدار الصناديق، تدفقت دزينة من أفراد الطاقم إلى ظهر سفينة الشحن، ووجهوا عمال الموانئ إلى دحرجة البراميل واحدًا واحدًا إلى الشباك المعلقة بأنظمة البكرات المعقدة. شكلوا بملابس عملهم الشاحبة وقصات شعرهم المتطابقة جيشًا من النُسخ.

مر زوج من أفراد الطاقم يجران عربة قطر مملوءة بكُدسة مرتفعة من أكياس الخيش من أمام مخبأ سان سان تمامًا، وكان ذراعا الرجل الذي في مقدم العربة مغطيَيْن بصور جميلة حُبِّرت بطريقة ما في جلده، فهنا كان تنِّين طويل متلوٍّ يطلق ألسنة اللهب من فمه، وهناك كانت عذراء جميلة استُبدل بقدميها النصفَ الأسفل من سمكة زمردية الحراشف. صرخ الرجل شيئًا بالكانتونية وأشار لشريكه أن يحث الخُطا، فوقعت عينا سان سان على الصورة المحبَّرة على الجانب الداخلي من ساعده: أجنبي ضامر نصف عارٍ معلّق على صليب. كانت مطابقةً تقريبًا للقلادة التي تدلّت تحت قميص الطالب الجامعي.

أمرت نفسَها أن تُقلع عن هذا، فقد اتخذت قرارًا نهائيًا بالعودة إلى الجزيرة، ومع ذلك لم تتمكن من إطفاء بصيص الأمل في داخلها. ستكون هذه المرة مختلفة، فهذه المرة هي تعرف موقفها. القوانين التي تحكم عالمها قطعية: ستكون دائمًا في المركز الثاني، ولا تدين لها عائلتها

بأي شيء، ولن تمنحها أي شيء إضافي. وإذا ما اختارت انتهاك هذه القوانين، مثلما ستفعل بمحاولة تكرار الرحلة مرةً أخرَى، فهي مدركة أنها قد تفشل. وعندما يحصل ذلك، إذا حصل، ستُودعها السلطات على الجزيرة لتواجه العواقب، وهو نفس الموقف الذي ستكون فيه إن سلمت نفسها اليوم.

والآن، يا ليتها كانت تعلم إلى أين ستتجه سفينة هونغ كونغ هذه تاليًا.

لعدة ساعات، عمل الرجال على إفراغ حمولة البراميل واستبدال براميل جديدة بها. كانوا يجرون صناديق خشبية وبراميل معدنية جيئة وذهابًا وهم يصيحون لبعضهم بالكانتونية، التي كانت تعاني من مشقة في فهمها. بين الحين والآخر، كان الرجل المُحبَّر يقود البقية عن طريق ألحان حماسية عن الشمس والبحر، من دون أن يعير أي اهتمام للوقت المتأخر. تساءلت عما إذا كان عليها محاولة ركوب السفينة حتى لو لم تعرف وجهتها، لكن ألن يكون الأمر أسوأ إن انتهى بها المطاف في مدينة ساحلية أخرى مثل تشوانتشو أو غوانزو؟ وكيف ستتسلل إلى السفينة بوجود كل هؤلاء الناس من حولها؟

وقتما اختلست الشمس النظر من فوق حافة الأفق، توقف أفراد الطاقم ليأخذوا استراحة شاي، وانضمت إليهم مجموعة من الصِّبية الواضح أنهم تابعون للسفينة، وكان بعضهم أكبر من سان سان ببضع سنوات فقط. جلس الصِّبية القرفصاء على الأرض وراحوا يدخنون – حتى أصغر واحد فيهم – على بُعد خطوات فقط من مخبأ سان سان.

حوّلت كل طاقتها إلى محاولة فهم المقاطع الغريبة المنغومة التي تدفقت من أفواههم. التقطت كلمات مثل «مطبخ» و«غسيل» و«أطباق». بدا أن الصِّبية يتجادلون حول من فيهم أحسن غاسلِ أطباق، واستنتجت

أنهم مسؤولون عن المطبخ على ظهر السفينة. كانت المعلمة لو قد أخبرتها أنه خارج البر الرئيسي، غالبًا ما كان الأطفال يُستعبدون ويُجبرون على العمل مثل البالغين، لذا لم تتفاجأ تمامًا.

بدا الصبيُّ الأكبر سنًا كبيرَ الطباخين. نخع كتلة من البلغم وبصقها عند قدمي الصبي الذي كانوا ينادونه تيرتل[1]، فوثب الأخير متراجعًا وصرخ: «انتبه أيها النغل!»

كادت شفتاها تتكشف عن ابتسامة، فقد ذكرتها سخريتهم العفوية اللطيفة بأخيها وزملائه في فريق كرة القدم. كم مرة جرجرت قدميها خلفهم بخجلٍ بعد المدرسة، متمنية لو كانت مشاركة في مزحاتهم، تزعجهم ويزعجونها! من شأن سفينة كهذه أن تمتلك وفرة من المخابئ المناسبة، وألن ترجع إلى هونغ كونغ في نهاية المطاف، مهما توقفت على طول الطريق؟

مثل أفراد الطاقم، كان الصِّبية يرتدون ملابس رثة بسيطة متسخة جدًا، وليست مختلفة كثيرًا عن ملابسها. مسحت براحتها على شعرها القصير الشائك ونفضت أطرافها مثل عدّاء يستعد للسباق، وعندما وقف أفراد المجموعة على أقدامهم استجابة لإشارة خفية ما، انسلّت سان سان من مخبئها واندمجت فيهم، حريصة على التلكؤ خلف الصِّبية بينما تظل على مسافة ملاصقة، وصارت تقلّد فشخاتهم الطويلة الوثّابة وأذرعهم المتأرجحة بتبختُرٍ.

ثرثر أفراد الطاقم وسردوا النكات، وبدا كما لو أن استيعابها قد تحسن بالفعل، على الرغم من احتمال أن يكون ذلك بسبب تكلُّم الرجال

(1) سلحفاة.

وإشارتهم بصورة معبرة جدًا. مشوا صاعدين على المعبر، وأصدرت أحذيتهم الثقيلة قرعًا موزونًا على المنحدر المعدني.

قال أحدهم: «لا تخبروا لينغ بالأمر».

فأجاب الآخر: «هه!»، بتعبير استهزاء عالمي.

فقال واحد آخر: «إنك نذل بحق».



«هه!»

حرّكت سان سان شفتيها بالكلمة، مشتهيةً أن تشعر بها تنفجر على لسانها. لاحظت متأخرةً جدًا أن الصّبية قد انفصلوا واتجهوا إلى تحت سطح السفينة، فهرعت خلفهم، فنزل الصّبية درَجًا صغيرًا ثم عبروا دهليزًا، فتبعتهم تخطو أخفّ ما يمكنها من خطوات. كان الصبي الأصغر يحكي حزورة معقدة حول فيلين في سيرك، وكان الصّبية الأكبر يقاطعونه دوريًا ليسخروا منه.

على الشاطئ، كان ينادَى على العمال في المساكن المجاورة لينهضوا إلى تمارينهم الصباحية، وصدحت مكبرات الصوت بـ «ترنيمة للرئيس ماو» في تكرار متواصل:

أوه! أيها الرئيس الأجلّ ماو، فلتطُل سنينك!

حررتَ الجميع بعبقريتك، صار الشعب سعيدًا، في وفرة من النِّعم!

كل الشعب يراك أمًّا رؤوفًا حارسة!

فلتعش في العالم إلى الأبد وترشدنا إلى طريق السلام!

لم تكن سان سان قد انتبهت من قبل إلى كلمات الأغنية، لكن الآن، بعد كل ذلك الهذر العويص، بدت كل كلمة تناديها. لم يكن الوقت مناسبًا لتسمح لنفسها بالتشتُّت. كان ما تحتاج إليه غرفةَ مؤن من نوع ما، غرفة قليلًا ما يزورها أفراد الطاقم. مرت من أمام باب وحاولت فتحَ مقبضه

لكنه لم يتزحزح. مرت من أمام باب آخر، وهذه المرة استدار المقبض، فقبضت عليه بكلتا يديْها ودفعت بكل ثقل جسمها، ففُتح الباب صارًا فوق الأرضية.

قفزت متراجعة، لكن الصّبية كانوا قادمين باتجاهها بالفعل.

صرخ كبير الطباخين: «هيه، أنت».

حثتها غريزتها الأولى على الركض، لكنه كان واضحًا أنهم سيمسكون بها على الفور.

«من أنت أيها الصبي؟ وكيف وصلت إلى هنا؟»

فتكلمت بالمندرينيّة، آملةً أن يفهموا كلامها: «دعني آتي معكم أرجوك». أرعبها صوتها العالي المرتجّ، فأخفضته فورًا: «أبي يُحتضر في هونغ كونغ، وبقية عائلتي هناك بالفعل».

سأل كبير الطباخين: «ماذا يقول؟»

لحسن الحظ، كان الصبي المسمى تيرتل يتكلم المندرينية، لكن بعد أن ترجم كلامها، لم يفعل كبير الطباخين إلا الابتسام المتكلف، وكأنه يقول: «وكيف تكون هذه مشكلتي؟»

قالت سان سان: «امنحني مكانًا للاختباء فقط. أقسم أنني لن أتسبب بأي مشكلة».

فقال الصبي الأصغر: «مستحيل، لا يمكن. إن اكتشف شخص ما فسنقع كلنا في مأزق عويص».

قال تيرتل: «ألا يمكننا تخبئته في المطبخ ربما؟»

سُمع وقع خطوات على السطح فوقهم، وقال كبير الطباخين: «لا يمكننا مناقشة الأمر هنا»، ومشى عبر الدهليز.

تبعه بقية الصِّبية، وفعلت سان سان المثل أيضًا. كان عليها إقناعه بطريقة ما أن يساعدها، أو على الأقل ألا يشي بها.

في المطبخ، قال الصبي الأصغر: «الأمر في غاية الخطورة. سيفصلوننا حتمًا. ستقتلني أمي إن خسرتُ وظيفةً أخرى».

قال تيرتل: «إن أباه يُحتضر. ماذا كنت لتفعل إن كان أبوك؟»

قال كبير الطباخين: «توقفوا عن الكلام كلكم. أحتاج إلى التفكير».

تكلم صوت بلغة مندرينية مشددة في الطابق الأعلى: «بعد أن أريك كبائن الطاقم، سآخذك إلى الأسفل لترى المطبخ وقاعة الطعام».

أجاب صوت آخر: «حسنٌ أيها الرفيق».

جحظت عيون الصِّبية: «تبًّا! تفتيش».

أمسك الصبي الأصغر سان سان من ياقة قميصها، وقال: «اخرج من هنا، الأمر في منتهى الخطورة»، وعارضه تيرتل في نفس الوقت قائلًا: «خبئوه في غرفة التخزين. لمَ قد يبحثان هناك؟»

نقل كبير الطباخين نظره بين الصِّبية. كان على سان سان ترجيح الكفة لصالحها، وعليها فعل ذلك الآن، فجذبت كمها ونازعت حتى فكّت إبزيم ساعتها.

دفعها الصبي الأصغر: «انصرف، اذهب».

فدفعت بالساعة إلى كبير الطباخين: «خذ هذه، إنها من الخارج، وتساوي الكثير».

نتشَ الساعةَ من يدها. لمَ لمْ تفكّر بتنظيفها؟ بصق على القشاط ومسح القذارة عنه ثم نعق قائلًا: «يا له من لون بناتيّ».

ملأت الدموع عينيْها – فقد كانت الساعة آخر شيء منحها والدها إياه – لكنها تمكنت من الرمش حتى كبحتها. صارت صبيًا الآن، وثمة أمر واحد متأكدة منه، هو أن الصِّبية لا يبكون، فغيرت أسلوبها.

«إن لم تساعدوني، فسأخبرهم أنكم سمحتم لي بالصعود، ومن ثم...» – أشارت إلى الصبي الأصغر – «إنه مُحق، ستُطردون كلكم».

ترجم تيرتل بسرعة، وسُمع وقت خطوات عبر الدهليز باتجاه المطبخ، يقترب أكثر فأكثر. بدأ الصبي الأصغر بالبكاء، وحثهم تيرتل مجددًا على إقحام سان سان في غرفة التخزين. لكن كبير الطباخين ظل حاملًا الساعة، محدقًا إليها وكأنها طلسمٌ مقدسٌ سيخبره بما عليه أن يفعل.

35

استيقظت بي كيم على صوت المطر المترشرش على زجاج النافذة. هذه الشقق الحديثة واهية للغاية، تمرّ فيها ضجة الخارج مرور الماء في الغربال. أخبرها شقٌّ في الستائر أن الظلام لم يزُل بعد، فأغلقت عينيها معتزمةً أن تغطَّ في النوم من جديد.

في الشارع، صاح بائع جوال لنسوة الحيّ أن يجلبن خزفياتهم المكسورة إليه: «لا ترموا أموالكم، يمكنني جعل خزفياتكم القديمة بجودةِ الجديدة».

في هذه الساعة؟ في هذا الطقس؟ ألا يُفترض أن إعصارًا سيضرب؟ تنهّدت ودفعت نفسها جالسةً وأرخت ساقيها عن السرير.

توقفت قليلًا في الردهة واضعة أذنها على باب غرفة حفيدها. ربما ضعُف سمعها، لكنها أقسمت أنها تمكنت من سماع أنفاس ليام الطويلة الثابتة، الرُقاد الرائق العميق لطفل لم يُعاني قط وسيظل محبوبًا أبدًا. أيّ صبي فاتن وسيم كان، يعشقه كل من يقابله، وأي شاب مُفكّر لبيب كان ينمو ليصيره. فكّرت بي كيم: *هذا، طالما لديّ هذا.*

دفعت الباب فاتحة إياه بهدوء، وكان سرير حفيدها الخاوي مربكًا جدًّا، استغرقتها ملاحظة الورقة على الوسادة دقيقة، فاندفعت إليها.

عائلتي،

لقد رحلتُ لأعيد بناء أرض الأجداد. بلادنا بحاجة إلى شبابها، وإنه من واجبي وحظوتي أن أنضم إلى أهم ثورة في زماننا.

أرجوكم لا تقلقوا بشأني، فأنا لست وحدي. أصدقائي ورفاقي معي، وسيرعى الحزب كل احتياجاتنا.

آسف لأني لم أودعكم، وآمل أن تؤمنوا يومًا ما بالثورة وتفهموا لمَ كان علي خداعكم. اعرفوا أن كل شيء فعلته كان نابعًا من حبي لبلادي، وأنني آسف على أي ألم سببتُه. بمجرد أن أستقر، سأبحث عن سان سان، وستسمعون أخبارًا مني آنذاك.

ابنكم وحفيدكم المُحب،

ليام.

صاحت بي كيم: «كنّتي، تعالي إلى هنا! حالًا!»

ظهرت سوك كون، مطبقة رداء نومها بيد واحدة: «ما الأمر يا أمي؟ هل تأذيت؟» وتلفتّت حولها: «أين ليام؟»

انطلق الخدم يعدون في الردهة باضطراب مرددين نسخًا متفاوتة من الأسئلة نفسها.

دفعت بي كيم بالخطاب إلى سوك كون.

قرأته وسحقته على صدرها: «علي الذهاب إلى محطة القطار»، والتفتت إلى الخادمة، «اذهبي وأوقفي سيارة أجرة، أسرعي!»، ثم ركضت إلى غرفتها وخرجت بمحفظة تتدلى من أحد معصميْها. شدّت

رباط ثوبها المنزلي ودلفت إلى الباب الأمامي مرتدية نعال غرفة النوم خاصتِها.

تبعتها بي كيم بعون عكازها: «سآتي أيضًا».

فقالت سوك كون بحدة: «لا!».

لم تكلم بي كيم بهذه النبرة من قبل.

«ابقِ أنتِ، لا يمكنني إهدارُ أي وقت إضافي»، كانت قد خرجت من الباب بالفعل.

قالت بي كيم: «دعيني أساعد».

التفّت سوك كون بعُنف ووكزت وجهها بإصبعها: «لقد سببتِ ضررًا كافيًا لهذه العائلة. لن أخسر ابني أيضًا».

ترنحت بي كيم حتى استندت إلى الحائط، وصُفق الباب. إذًا هذا كان رأي كنتها الحقيقي فيها، بعد كل اللُّطف الذي عاملتها به على مر السنين، بعد كل ما مرتا به معًا.

قالت الطباخة، التي حضرت المشهد بأكمله: «مدام، اجلسي أرجوك. سأجلب لك قدرًا من الشاي».

دفعت بي كيم يد المرأة وأغمضت عينيْها. كيف تمكن ليام من التخطيط لكل هذا الأمر من وراء ظهورهم؟ من أين حصل على المال ليدفع ثمن التذكرة؟ تحرّكت موجات الغثيان داخلها، وقبضت على معدتها. لا! رفضت تصديق الأمر. لا يمكن أن يكون حقيقة. لا يمكن أن يكون قد كذب وهو ينظر إلى وجهها.

«مدام، أثمة خطب ما؟»

اهتاجت دواخلها، واشتعلت وجنتاها وجبهتها.

«لا تبدين بخير، أتحتاجين إلى دواء؟»

«أنا على ما يرام»، ومسحت التعرّق عن منبت شعرها.

- ألنت متأكدة؟ أعلي طلب طبيب للاحتياط فقط؟

- لا.

- أعلي الاتصال بسيدي؟

بطريقة ما، لم يمرّ في بال بي كيم أن تتصل بتشاي، ثم تساءلت ماذا يمكن أن يفعل. لا يمكنه إيقاف القطارات، لا يمكنه عبور الحدود لإعادة ابنه، لا يمكنه حتى الاعتناء بعائلته. لمَ كان يعيش في ذلك الفندق الرخيص؟ لمَ لمْ يكن هنا حيث ينتمي؟

«بالطبع، اتصلي به، وأخبريه بكل شيء»، وراحت تعرج عبر الردهة: «لا أريد أن يزعجني أحد. ليس قبل أن يجدوا الصبي».

36

كانت نعال غرفة نوم سوك كون المشبعة بالماء زوجًا من الأصفاد الحديدية، فركلتها من قدمها وركضت إلى المحطة. لم تكن قد رأتها بهذا الازدحام من قبل، كان الأمر كما لو أن كل سكان المدينة قد هبطوا عفويًا إلى هذه البقعة. دققت في مواعيد المغادرة وراحت تدفع الناس من طريقها إلى منصة القطار المتجه إلى غوانزو، لكن الشخص الوحيد هناك كان البواب الذي كان يدلق المياه القذرة على الأرض بممسحة، وأخبرها أن القطار قد غادر منذ وقت طويل. تعلقت عينا البواب عليها بنظرة فضولية، فعقدت ذراعيها فوق صدرها. حافيةً وبلباس نومها، لا بدّ أنها بدَت فارّةً من مصحة عقلية.

في القاعة الرئيسة، وقف شرطي يبدو ضجِرًا في الركن يستعرض الحشد ويدخّن، فأسرعت باتجاهه غريزيًا، ثم توقفت فجأة. ماذا تنتظر منه أن يفعل؟ أن يعبر الحدود ويجرّ ابنها عودًا إلى هنا؟

لاحظت أن معظم المسافرين بدوا يتحركون في اتجاه واحد إلى هدف مشترك ما، فتعقبت طرقاتهم بينما انضموا إلى الطابور الأفعواني أمام شباك التذاكر الوحيد المضاء ضوءُه، وخلف الزجاج، تدلّى مصباح

فلوريّ مكشوف فوق يافوخ الموظف المنهك الأصلع، وحدقت إلى الهالة الوقّادة كما لو كانت نجمًا هاديًا بعيدًا. انضمت إلى مؤخر الصف، كانت لتصعد على متن القطار التالي، وتتبع ابنها إلى البر الرئيسي، وسيذهبان معًا إلى شيامن ليجدا سان سان.

غرزت نفسها خلف زوجين شابين معهما وليدٌ باكٍ. كانت الزوجة تهزّ الطفل بين ذراعيْها وتصدر أصواتًا لتسكته، لكن الصياح استمر.

فقال الزوج: «لا يمكنني احتمال ذلك أكثر، اذهبي إلى هناك حيث لا يمكنني سماعها».

حدجت سوك كون المرأة بابتسامة متعاطفة، ومدت رأسها لترى ما إن كان الصف قد تحرك، لكن الرجل أحمر الوجه نفسه كان يصرخ على الموظف ويخبط بتذاكره الشباك.

شعرت بالأسف على الموظف المسكين، والأم الشابة، وحتى على الأب المتذمّر والرجل أحمر الوجه في مقدم الصف. شعرت بالأسف على الناس المسعورين المسرعين أمامها وعلى القلة البائسة الذين استسلموا وجلسوا الآن مكوّمين معًا على الأرض القذرة. تدفّق العطف منها، نقيًّا وعارمًا، وفيّاضًا بالقدر الكافي ليغطي المحطة بأكملها. في ذهنها، كانت قد عبرت الحدود بالفعل ووجدت أطفالها، كانت لتقول: «سنكون نحن الثلاثة فقط حاليًا»، خانقة إياهم بالقبلات. لم يعُد ثوب نومها المهلهل يُحرجها، وسَرها أنها لم تجلب شيئًا معها، إذ أنها لم ترغب بأي تذكرات من حياتها السابقة. ستبدأ وابنها وابنتها من جديد. مرّ وقت طويل لم تعلّم فيه البيانو، لكن الشهادة تبقى شهادة، وكانت متأكدةً أن بوسعها إيجاد طلاب. زحفت جهشةٌ إلى حلقها وقتما فكرت بروز العزيزة.

صاح الموظف: «التالي».

جمعت سوك كون شتات نفسها، وتقدمت إلى الشباك وطلبت تذكرة للقطار المغادر التالي.

«ستكونين أفضل حالًا إن غادرتِ غدًا، أو حتى بعد غد»

قالت: «لا، سأقف طوال الطريق إن اضطُررت إلى ذلك».

«بقي كرسيٌّ واحد، لكن المطر يزداد سوءًا، وفرصة هذا القطار في الانطلاق تكاد تكون معدومة».

قالت: «سآخذه»، ودفعت كل مالها عبر الكوة الزجاجية.

هز الموظف كتفيْه ومرر لها التذكرة.

للمرة الأولى منذ وقت طويل حقًّا، شعرت سوك كون بكامل جسدها يتنهّد.

بقيت عدة ساعات قبل أن يصل القطار، فبحثت عن مكان لتجلس فيه، لكن الأجساد المرهقة ملأت كل بوصة من المقاعد الخشبية الطويلة. تجوّلت باتجاه الجدار الخلفي، ودعتها امرأة مسنة لمشاركتها الحقيبة التي كانت تستخدمها مقعدًا، وبالنظر إلى مظهر سوك كون الغريب العكِش، صدمها أنْ عرضت المرأة ذلك.

قالت: «أشكرك». كانت قدماها الموجوعتان سوداويْن ووسختيْن، فطوتهما تحتها: «نقع الماء حذائي تمامًا، فركلته من قدمي حتى أتمكن من الركض أسرع».

«أكنتِ تحاولين اللحاق بالقطار الأول؟» أخرجت المرأة برتقالة وبدأت بتقشيرها.

قالت سوك كون: «نعم». أشعلت الرائحة الطازجة شرارة جوعها، لكنها رفضت بتهذيب وقتما قدمت لها المرأة فَصًّا.

مضغت المرأة وأومأت برأسها إلى محفظة سوك كون: «تسافرين بأقل قدر ممكن من الأمتعة».

فقالت سوك كون: «إنها قصة طويلة»، ثم أضافت: «كل ما أحتاج إليه موجود على الطرف الآخر.

أنهَت المرأة البرتقالة ومسحت أصابعها بمنديلها وطلبت من سوك كون مراقبةَ أغراضها ريثما تذهب إلى المرحاض. أسندت سوك كون ظهرها إلى الجدار وشعرت بجفنيْها يثقلان. كم مضى من وقت منذ أن نامت ليلة كاملة. مدت يدها إلى جيب ثوبها المنزلي ومسّت حافة التذكرة بأصابعها. حالما تصل وابنها إلى الجزيرة، ستذهب إلى الممرضة هُو وتطلب منها أخذها إلى البنت الصغيرة في المدينة. ماذا قالت الممرضة؟ أن البنت كانت تغني غناءً حسنًا ويمكنها العزف على الأكورديون. إنها سان سان بكل تأكيد، كيف أمكن سوك كون أن تشكك بذلك قط؟ كانت الخطة بأكملها بسيطة على نحو مضحك. لم تستطع تصديق حظها.

عادت صاحبة الحقيبة من المرحاض وأخبرتها أن الريح قد اشتدّت أكثر: «ماذا ستفعلين إذا ما توقفت القطارات عن الحركة؟»

قالت سوك كون: «سنغادر قبل توقفها».

هزت المرأة رأسها لتُظهر أنها لم تكن متأكدةً من ذلك، وتعاظم سخط سوك كون: «الإعصار قادم من الجنوب، ونحن ذاهبون إلى الشمال. هؤلاء البيروقراطيون يتلاعبون بنا، لأنهم لا يريدون أن يتحملوا المسؤولية إذا ما حدث خطأ ما».

هزت المرأة رأسها مجددًا: «كل شيء يعتمد على الوقت الذي ستضرب العاصفة فيه».

كانت سوك كون متعبةً وسئِمةً من الاستعداد للأسوأ، لذا كان عليها الابتعاد عن هذه المرأة وتشاؤمها، فوقفت ومططت ساقيها وحاولت التفكير بطريقة مهذبة لتفرّ فيها. حرّكت رأسها حركة دائرية لتُرخي عنقها، ورأت بطرفِ عينها صبيًا يجاهد للمرور بين الحشد.

«ماما!» خزقت تلك اللفظة الوحيدة الحُلوة قلبها.

فراحت تدفع الناس من طريقها لتلاقيه: «ابني!»

قذف ليام بكل جسده إليها، ودفنت أنفها في شعره متنشقة رائحة العرق الآسنة كما لو كانت أطيب العطور.

- أنا آسف يا أمي.

- لا بأس يا بني، لا عليك.

- كيف عرفتِ أنني ما زلت هنا؟

قالت سوك كون، آخذةً وجهه بكلتا يديْها، وضاغطة جبتها إلى جبهته: «لم أعرف، لكنني أمِلت. ظللت آمُلُ وحسب».

اصطدم أحدهم بليام، ما جعله يلهث، فأخذت سوك كون بذراعه وسحبته إلى الخارج.

«أين حذاؤك؟»

قالت: «لا تقلق بشأن ذلك».

كان الشارع العام الواسع متعدد المسارات يزخر بأغصان الأشجار وسلات القمامة المعدنية وبدَن المظلة الغريبة. جلدَت الريح وجه سوك كون بشعرها، ورجم المطر ظهريهما حتى تحت الكُنّة. لكن على الأقل كانا وحدهما.

قالت: «إياك أن تفعل ذلك مجددًا أبدًا. عِدني».

تراجع ليام وبدأ بالبكاء: «إنني جبان».

طوّقته بذراعيْها وقالت بعنف: «أنت لست جبانًا. أيًا كان من أخبرك بالعودة إلى البر الرئيسي فقد ملأ رأسك بالأكاذيب».

كان الصبي يجهش بشدة جعلته بالكاد ينطق الكلمات: «سان سان مفقودة بسببي».

شدّت ذراعيْها حول جسده المرتجف وجعلت تهمس له بكلام مُسكّن.

راح يعبّ الهواء: «أنا مَن بلّغ عن جدتي وأوقع العائلة كلها في مأزق. ظننتُ أنني ثوري، لكنني مجرد جبان أنانيّ تافه».

قالت: «أنت طفل. إنها غلطتي؛ أنا مَن ترك سان سان».

قال بصوت هامس: «ماذا لو لم يجدوها؟»

انفتح شيء ما عنوة داخل سوك كون، وأدارت ابنها ليواجهها: «لا يمكنك أن تهرب مجددًا أبدًا، أتسمعني؟»

فأدار وجهه مجددًا، ربما متفاجئًا من احتدامها، فهزته مجددًا: «أتسمعني؟»

- أجل.

- أقسِم على ذلك.

- أقسم يا أمي، لن أهرب مجددًا.

تركت ابنها: «أنا مَن تركها، والآن عليّ العيش مع ذلك. هذا كل ما يمكننا فعله؛ العيش مع أخطائنا».

وضع يده على ظهرها وربّت عليه بصورة مُربكة، ورأت الحيرة على وجهه. كانت أسئلته نفس أسئلتها: ماذا لو كانت غلطةٌ ما أثقل من أن يعاش معها؟ ماذا لو حفر الشعور بالذنب طريقه مثل الديدان عميقًا في

اللحم وصار يشتدّ ويشتدّ ملتهمًا النسيج والدُّهن والجلد، حتى يأتي يوم تنظر فيه إلى نفسك وتراها كلُّها خَرِبةٌ لم يبق منها شيء؟

جذبت ابنها إليها وضغطت بشفتيها على جبهته الرطبة: «فلنذهب قبل أن يصل ذاك الإعصار».

مشيا إلى العاصفة متشابكي الذراعيْن، وانسلّت يد سوك كون إلى جيبها ووجدت أن تذكرتها قد تفرّقت، فسحقت الوريقة الرخوة المنقّعة إلى كرة وألقتها على الأرض وتابعت المشي.

37

والآن، ههنا كانت سوك كون، جالسة إلى طاولة الطعام، متظاهرة بقراءة الصحيفة. قالت لنفسها: اليوم الأحد، أنا أستمتع بصباح اعتيادي مع عائلتي، هذه عائلتي، هذا اعتياديّ.

انسكبَ ضوء الشمس من النافذة، لكنها لم تنهض لتسدلها. كانت السماء النقيّة ذات اللون الأزرق الخزفيّ تحمل بقايا من عاصفة البارحة. من خلف الصحيفة، راقبت ابنها يغرف من الخثارة ويرفعها إلى فمه ويمضغ وهو محدق في المسافة. أكان يفكر في الأصدقاء الذين رحلوا من دونه؟ سوف يكوّن صداقات جديدة، لم يكن لديها شكّ في ذلك. سينضم إلى فريق كرة القدم ويتعلم الإنجليزية ويتفوق في المدرسة. أكان يفكر في أخته؟ إن كان كذلك، فلا يوجد شيء يمكنها منحه إياه إلا قول: «هذه عائلتنا الآن».

قلب زوجها صفحة من قسم الأعمال التجارية وكحّ برِفق، ولم تفهم كيف أمكنه الجلوس هناك بهذا الهدوء، يقرأ آخر أرقام البورصة ويتشرّبها. كان قد نقل أغراضه في الليلة الماضية إلى غرفة الضيوف، وكانت ممتنة لذلك. كان يحوم في الخلفية ويعلو وجهه تعبير صدمة

فجائية معتدل بينما كانت تعتني بابنها وتطعمه مرق اللحم البقري المغلي غليًا مضاعفًا. أدركت سوك كون كيف كان زوجها يشعر بأنه زيادة عددٍ لا حاجة له، ومنحها ضعفه القوة. عرضًا للسلام، ظلت في المنزل بدلًا عن الذهاب إلى الكنيسة هذا الصباح، وفي الحقيقة، كانت تعرف أنها لن ترجع إلى هناك أبدًا.

كانت حماتها ما تزال نائمة. لم تغادر فراشها منذ عادت سوك كون وليام، وعندما ذهب تشاي إلى غرفة بي كيم ليبلغها الأخبار الطيبة، قالت ببساطة: «احرص على ألا يفعل ذلك مجددًا، والآن دعني وشأني». كانت حرارة جبهتها مرتفعة، لكنها لم تسمح للطبيب بمعاينتها، مصرة على أنها بخير: «عجوز، ومتعبة، لكنني بخير».

طَوت سوك كون الجريدة وقالت معلنة: «سأذهب إلى السوق. سنحظى بوجبة عائلية شهية اليوم».

نخر ابنها على نحو مُبهم، وقلب زوجها صفحة وقال: «حسنًا».

غسلت ولبست وغادرت الشقة. كانت تخوض عبر الوحل، أو ربما تسبح في الهواء، ودماغها منتفخ ومشدود مثل بالون مصقول، لكنها كانت لتشتري الأسماك الأكثر طزاجةً، وأسمن الدجاجات، وألمع الخضراوات، وشيئًا مميزًا للتحلية.

لاحظت بينما مرّت في البهو أن الحارس قد ترك مكانه، ولم تكن هذه المرة الأولى التي يختفي فيها في ساعات عشوائية من النهار. عليها تذكُّر أن تطلب من تشاي التكلم مع المدير.

جذبت صرخة نظرها إلى خلف الأبواب الزجاجية للبناء، فتوقفت ويدها على مقبض الباب، مشدوهة بالهياج القائم في الخارج. كان الحارس يقف هناك، ملوحًا بعصاه في دائرة فوق رأسه، وتهديده موجه

إلى مجرد صبي مشرد صغير جدًّا. حاول الصبي الهرب، لكن بعد بضع خطوات تشابكت قدماه ملقية به على الرصيف. راح الحارس يضرب الصبي مرارًا وتكرارًا، فأمسكت سوك كون بجمجمتها، عاجزة عن احتمال صرخاته الأشبه بصرخات حيوان جريح، ودفعت الباب وهرعت في الاتجاه المعاكس، وكانت ستوقف سيارة أجرة عند نهاية الطريق.

«ماما!»

طعنتها الكلمة بين لوحي كتفها.

«ماما، هذه أنا».

تابع الحارس هجومه، فانقضت سوك كون عليه عشوائيًّا، واندهش جزء منها من السهولة التي جرّته فيها بعيدًا عن ابنتها. لكن أيمكن أن تكون هذه سان سان حقًّا؟ أوه، لقد كانت هشةً جدًّا ومتضعضعةً جدًّا وماذا حدث لشعرها؟

«أيها الأحمق!» صرخت سوك كون على الحارس الحائر لأنها لم تعرف على من غيرِه تلقي اللوم: «أيها الوغد، يا ابن العاهرة!»... شتائم لم تنطقها بصوتٍ عالٍ من قبل.

انهارت على الأرض واحتضنت ابنتها، خائفةً أن تؤذي عظامها النفيسة: «سان سان، أهذه أنتِ حقًّا؟ كيف وصلتِ إلى هنا يا كنزي؟ من أين أتيت؟»

قالت ابنتها: «ماما»، وأغمضت عينيْها.

راحت سوك كون تمسّ راحتيْ البنت النازفتيْن ومرفقيْها وركبتيْها المكشوطتيْن بمنديلها. تحركت شفتاها باستمرار، مدمدمةً بعبارات حُبٍّ ومواساة مُسكِّنة، وإنْ كانت فكرة واحدة تسيطر على دماغها: ابنتها تستحق أفضل منها، تستحق أُمًّا كان بوسعها أن تنقذ ابنتها، أمًّا تعرف كل بوصة من وجهها.

تركتهم يبالغون بالاهتمام بها. تركتهم يكلمونها بأصوات ملؤها الدفء والإشفاق. تركتهم يغسلونها ويُضمدونها ويُطعمونها ويمسّدون شعرها ووجهها وذراعيْها. تركتهم يحملونها إلى سريرٍ فسيح أسفلَ أسدال ورديّةٍ شاحبة، وتركتهم يدسونها تحت لحاف وثير خفيف. في وقت قريب ما، ربما في الغد أو بعد غد، ستخبرهم عن الصُبية الذين رشَتهم ليُخبئوها في مطبخهم على متن سفينةٍ شحن، عن الإعصار الذي أجبرهم على الرسو في شانتو، عن الصبي اللطيف المسمى تيرتل الذي أوصلها بواسطة تريشو إلى هذه الشقة رقم 72 شارع فونتانا. أرهقها التفكيرُ في سرد كل التفاصيل، وفي كل الأسئلة التي ستتبادر إلى ذهنهم، وكل هذا كان قبل أن تتذكر حتى الصبي ذا الصوت السحري، وخَيمة السطح، وجلسة الإدانة التي سكنَت أحلامها، والشاحنة المحشوة بألواح الشاي التي حرّكت سلسلة الأحداث بأكملها. لذا سيكون على ذلك الانتظار إلى الغد، إن لم يكن إلى بعد غد. انغلق جفناها، واغتمرتها ظلمةٌ سميكة، تكاد تكون مُصمَتة. كان كَرَاها عميقًا وقاسيًا.

وقتما فتحت أمُّها الباب في الصباح، كان أول أسئلة سان سان: «أيمكنني رؤية جدتي الآن؟» لم تفهم لمَ كان عليها الانتظار كل هذا الوقت.

هزت أمها رأسها: «ما زالت نائمة. لقد أخبرتك أنها متوعّكة».

ركلت أغطيتها: «لن أزعجها، أريد أن أراها فحسب».

«تناولي الفطور أولًا. لقد أعدّ الطباخ خثارة البيض».

قرقعت معدتها، لكنها قالت: «لا، الآن». عرفت بطريقة ما أنها لن تُضطر إلى التوسّل أو النحيب أو رفع صوتها.

تبعت أمها إلى غرفة الجدة.

طرقت أمها الباب بِلين: «ماما، هل أنت صاحية؟» ودفعت الباب فاتحة إياه برِفق.

كانت الستائر مُحكمةَ الإسدال، والغرفة مُعتمةً كما لو أن الشمس قد أغفلت بطريقة ما هذه الركنَ الضئيل من هذه المدينة الغريبة، المتراصّة بعددٍ ضخم من الأبنية الشاهقة إلى درجة حجبه مرأى السماء. رمشت جدتها وفتحت عينيْها وكافحت لتجلس، وركضت سان سان إليها: «جدتي».

قالت جدتها بصوت ناعب: «بي ليان! هل هذه أنتِ حقًا يا أختي الصغيرة؟ من فعل هذا بشعرك؟ لمَ قالوا أنك مُتِّ؟»

تراجعت سان سان مجفلةً. ما خطب صوت جدتها؟ من كانت بي ليان؟

تدخلت أمها بسرعة: «أمي، إنها ليست أختك، إنها سان سان، حفيدتك».

لوَّحت الجدة في وجه أمها وتابعت كلامها: «أنا آسفة جدًّا يا أختي الصغيرة، لم أعرف أن الكلب سيهاجم. كان ظمآنًا للغاية وأردتُ منحَه بعض الماء وحسب» أخذت الجدة ذراعَ سان سان، وكانت يدها باردة، فحاولت سان سان تدفئتها بكلتا يديْها.

قالت أمها: «بي ليان تُوفيَت منذ زمن طويل».

لكن لم يبدُ على الجدة أنها سمعتها: «لم يكن يجدر بي تركك مع ذلك الكلب. كنتُ أكبر منك! كان يجب أن أكون أكثر حكمةً وتعقُّلًا. أنا الأخت الكبرى».

اعتصرت سان سان يدها وقالت: «جدتي، إنها أنا».

ابتسمت الأم ابتسامةً مطمئنة لسان سان: «جدتك مرتبكة. يمكن لحمَّى شديدة التسببَ بذلك».

عبست جدتها: «أتظنين أنني لم أكن لأتعرف على أختي؟ تلك التي أحبها حبًّا جمًّا؟» والتفتت إلى سان سان: «أوه! تلك الدماء التي فاضت من وجهك. دماء كثيرة جدًّا على بنت صغيرة مثلك».

امتصَّت سان سان نفَسًا عميقًا.

قالت أمها: «حسنًا يا أمي، هذا يكفي».

شدت الجدة قبضتها على يد سان سان: «أرجوكِ يا أختي الصغيرة، أيمكنك مسامحتي؟»

بدا هواءُ الغرفة ينقُص، وتغبشت صورة جدتها أمامها. شعرت بنفسها تندفع إلى الأمام، وتشبثت بحافة لوح السرير بيدها الحرة لتثبّت نفسها.

فقالت أمها: «تحتاج الجدة إلى الاستراحة».

تلألأت الدموع في عينيْ جدتها: «أيمكنك؟»

أرخَت سان سان أصابع جدتها، ووضعت يدها فوق معدتها ومسَّدت العروق الخضراء المزرقّة المعقدة. عادت الجدة إلى استلقائها، ومشت سان سان على مهلٍ إلى الباب.

قالت أمها: «سأطلب من الخادمة أن تحضر كِمادةً باردة، وسنطلب الطبيب إن لم تشفَ الحمى قريبًا».

قالت جدتها: «لا أطباء».

تركت سان سان أمها تقودها إلى الردهة، وعندما أُغلق الباب خلفهما، همست: «إنها تُحتضر».

فجثمت أمها حتى صارتا عينًا لعين: «هراء، إنها مجرد حُمى وهذا كل شيء».

لكن سان سان عرفَت أن هذا لم يكن كل شيء، فقد أمسكت يد جدتها المتجمدة ورأت بشرتها الملساء وسمعت أنفاسها الجشاء. عضَّت على شفتِها السفلى ولم تقل شيئًا. عرِفَت أن أمها تعرف أنها لم تصدقها.

قالت الأم: «في بعض الأوقات، يمكن أن يعاني الشخص من توتّر جمٍّ إلى درجة يصعب معها أن يتعافى تمامًا. يعجز جسدها عن تحمّل المزيد أحيانًا».

قالت سان سان فجأةً: «أعطيت صديقي أسوارتي ليتمكن من شراء دواء لأمه».

لم تقل أمها شيئًا في البداية، ثم حثتها: «أكملي».

فحاولت مجددًا: «قص حلّاق شعري مجانًا».

قالت أمها: «أي»، محيطة وجه سان سان براحتيْها.

فانسلّت من قبضتها: «رشوتُ بعض البحارة بساعتي».

«أي، أكملي».

لكن نظرة أمها كانت استقصائيةً واجتياحيّةً إلى درجةٍ أعجزت سان سان عن الإكمال. انكمشت على نفسها متراجعةً حتى ضرب كتفاها الجدار، وراح حلقها يخفق بكل الأشياء التي لم تملك كلامًا يصفها، بكل الأشياء التي عجزت عن قولها جهارًا.

طوّقتها أمها بعُنف مُجفلٍ خانقةً وجهها، وحاولت سان سان دفعَها، فقد ظنّت أنها عاجزة عن التنفس.

قالت أمها: «ما يهم أنك هنا الآن. لن نتركك تعانين مجددًا أبدًا».

أرسلت كل قبلة وكل لمسة صاعقةً من الألم في صميم سان سان، لكنها كانت أوهن من أن تُوقفها. بذراعيْها المسمرتيْن على جنبيْها، لم تتمكن حتى من حشر إصبعيْها في أذنيْها لتحجب كل تلك العبارات التافهة التي راحت أُمها تنطق بها مرارًا وتكرارًا، كما لو أنها خائفة مما سيستجلبه الصمت.



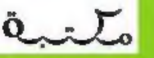


شُكرٌ وتقدير

شكرًا لعائلتي، ميشيل براور، كارمن جونسون، آل وودورث، سكوت كالامار، ليتل أيه، كيم لياو، بيث نوين، فانيسا هيوا، ريز كوون، أيمي فان، كلير فاي واتكينز، باميلا بينتر، بول دوغلاس، نيك تايلور، برنامج ستاينبِك فيلوز، وهيدجبروك.

لمات ساليسيس على حكمته، وليونيس تشين على مشاركتها ذكرياتها. ولجون ما، على إخباري قصة لا تُنسى منذ سنوات عديدة خلَت.

ساعدتني كتب كثيرة على إتمام هذه الرواية، ولا سيما *الهروب من الصين الحمراء* لروبرت لوه وهمفري إيفانز، *واكتشف ڤولانغيو* لويليام براون، *والحياة الشخصية للرئيس ماو* للدكتور لي تشيسوي، *والبيانو السري* لتسو شياو مي، *والبحر المر* لتشارلز إن. لي، *ومأساة التحرير* لفرانك ديكوتر، وأخيرًا وليس آخرًا، *المغامرات المذهلة لكافالبير وكلاي* لمايكل تشابون، والتي تحتوي في ملاحظة كاتبها سطرًا صار نجمتي الهادية، التي انتشلتني من تلك الأوقات حين هدد الشك والتقلقل بإيقاف سير عملي. عن كتابته روايته، صرح تشابون: «لقد حاولت احترام التاريخ والجغرافيا أينما كان فعل ذلك يخدم أهدافي باعتباري روائيًا، لكن أينما لم يفعل ذلك، تجاهلتها إما ببهجة أو بحسرة». وأنا أوافق على ذلك من صميم قلبي.



ادفنوا ما لا يمكننا أخذه

«تسبر رواية ادفنوا ما لا يمكننا أخذه أغوار ما تتطلبه النجاة في عالم فقد صوابه، وما الذي نخسره حينما نفعل ذلك. كتبت كيرستن تشين دراما تاريخية ساحرة، واستكشافًا دقيقًا للمدى الذي يمكن لأواصر الحب العائلي بلوغه على حد سواء».

- سليست إنغ، مؤلفة الروايتَين المصنفتَين ضمن الكتب الأكثر مبيعًا بحسب صحيفة نيويورك تايمز: كل شيء لم أخبرك به ونيران صغيرة في كل مكان.

«في الصين الماويّة، تتمزّق العائلة التي تتمحور هذه القصة المؤرقة المستفزة للمشاعر حولها جراء التداعيات المعقدة على نحو مذهل لفعل واحد لا رجعة فيه. تُظهر هذه الرواية المشوّقة جميلةُ الحبكةِ مُرهفة العواطف كيرستن تشين التي لطالما أُعجبتُ بأعمالها في قمة إبداعها على الإطلاق. إن ادفنوا ما لا يمكننا أخذه كتاب مهمّ».

- لورا فان دين بيرغ، مؤلفة رواية جِدني.



«تفي ادفنوا ما لا يمكننا أخذه بما وعد به الظهور الأول لكيرستن تشين. تفرّ عائلة سان سان من جزيرة دزم ويف ويتركونها وراءهم، ويعقب ذلك قصة ملحمية تتحرّى الأدوار الجندرية والأيديولوجيات القمعية والتضحية ومعنى أن تكون حرًا، وكل ذلك عبر عالم مصغر قوامه عائلة واحدة. إنه كتاب تدور أحداثه في الماضي، وفي الجانب الآخر من العالم، لكنه أكثر من ملائم لأمريكا اليوم. قدّمت تشين كتابًا مشوّقًا يحمل مرآة تاريخية في وجه عالمنا الأغبش المتواطئ».

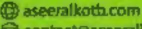
- ماثيو ساليسيس، مؤلف فيضان المئة عام.

تصميم الغلاف: كريم آدم









aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
AseerAlkotb
AseerAlkotb
AseerAlkotb